اصول
الفلسفة الماركسية

تأليف

جورج بوليتزر

و

جي بيس ، موريس كافين

تعريب

شعبان بركات

ليسانسيه في الآداب

٢

أصول الفلسفة الماركسية

تأليف
جورج بوليتزر
و
جي بيس ، موريس كافين

تعريب
شعبان بركات
ليسانسيه في الآداب

٢

منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت

المطبعة العصرية
للطباعة والنشر
صيدا - لبنان - تلفون [illegible]

اهداءات ٢٠٠١

ا.صلاح راتب

القاهرة

القسم الرابع

المادية التاريخية

الدرس الخامس عشر

الانتاج
القوى الانتاجية
وعلاقات الانتاج

١ – ظروف حياة المجتمع المادية .
أ) البيئة الجغرافية .
ب) السكان .
٢ – طريقة الانتاج .
أ) القوى الانتاجية .
ب) علاقات الانتاج .
٣ – ملكية وسائل الانتاج .
٤ – تغير طريقة الانتاج مفتاح تاريخ المجتمعات .
٥ – الخلاصة .

١ - ظروف حياة المجتمع المادية

رأينا في القسم الثالث من هذا الكتاب ما هي نتائج النزعة المادية الجدلية إذا ما طبقناها على تاريخ المجتمعات ، ودرسنا كيف تعكس حياة المجتمع الروحية ظروف حياته المادية.

ولكن هناك سؤال يعرض لنا وهو: « ماذا يجب أن نفهم، حسب نظرة النزعة المادية التاريخية ، من « ظروف حياة المجتمع المادية »؟ ان الظروف المادية، أي الظروف الموجودة مستقلة عن إرادة الناس التي يجب توفرها لنمو المجتمع ، متعددة ومتفاعلة .

فما هي ، بين ظروف حياة المجتمع المادية ، القوة الرئيسية التي تحدد وجه المجتمع وطابع نظامه الاجتماعي ، وتطور المجتمع من نظام إلى نظام آخر[1] ؟

ادعى البعض ان هذه القوة الرئيسية هي البيئة الجغرافية ، وقال آخرون إنها ازدياد السكان . فهي اما ان تكون القضاء المحتوم الجغرافي أو القضاء المحتوم الناتج عن ازدياد السكان .

فليس أمام المجتمع ، كي يعيش ، سوى حلين عند الحاجة :

إما أن يغير الأرض ، كما تفعل القبائل الرحل فتغزو أراضٍ جديدة، وإما أن يقلل من عدد سكانه، مستخدما الخصي (eugenis me) كما كان يفعل الاسبارطيون

---

(١) راجع ستالين : « النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية ٣ ، أ ، ص ١٩

القدماء[1] ؛ وإما بإهلاك الافواه التي لا فائـــدة منها كالعُجَّز والمقعدين والمرضى والمجانين، كما كانت تفعل بعض القبائل البدائية .

، وتجمع حرب الغزو والافناء الجماعي للسكان بين هذين الحلين . فلقد كان الخصي وافناء المعتوهين يصحبان عند المتارين ، نظريا وعمليا ، عقيدة « المجال الحيوي » (l,eepace Vitale)

تزدهر نفس النظريات البربرية الآن في امريكا[2]. وتنحطهذه النظريات بالانسان إلى مرتبة الحيوان، إذ حينما يعيش نوع حيواني على أرض ذات مساحة معينة ولهـــا إمكانيات غذائية معينة ، تنشأ « قوانين للاسكان » تسمح بالتنبؤ بتغيرات النوع. ويمكن لنقص الغذاء وضرورة استهلاك غـــذاء مختلف ان يؤديا إما لزوال النوع أو تحوله .

ولكن الانسان يختلف عـــن الحيوان : فهو يعمل ويناضل ضد الطبيعـــة . ولا يجب أن ننسى الجدلية : فليس هناك الطبيعة من جهة والناس من جهة ثانية ؛ الجغرافية من ناحية ، والبيولوجيا من ناحية ثانية، فيؤثر كل منهما تأثيراً سيئاً .

يكذب هذه الفكرة التطبيق العملي للانسانية التي حولت الأرض لخدمتها عبر آلاف السنين .

---

(١) كانوا يتركون على الجبال المواليد الضعفاء .

(٢) راجع كتاب فوت (Vogt) : « جوع العالم » الذي يدعي بان « الارض ستضيق بمن عليها » فيدعو صراحة للحرب كعلاج لذلك . والواقع ان الرأسمالية بحاجة للحرب كي تستمر في العيش في مرحلة الاستعمار . فقد قال بول اليوار : « انهم يبذلون قصارى جهدهم ليبقوا وحدهم على الأرض » .

١ - البيئة الجغرافية

البيئة الجغرافية ، بما فيها من طبيعة تحيط بالمجتمع ومناخ ومصادر طبيعية وسهولة مواصلات ، وأراضٍ ، هي شرط ضروري دائم لحياة المجتمع المادية . ولهذا كان من البديهي أن تؤثر على نمو المجتمع : فهي إما أن تعمل على هذا النمو وإما أن تعيقه . فلقد عملت سهولة استخراج الفحم الحجري في انجلترا على نمو الصناعة في هذه البلاد . بينما وجود المستنقعات التي تتطلب اعمال التجفيف ، او وجود الصحراء التي تحتاج للري أو فقدان البترول كل ذلك ظروف يمكن أن تعيق نمو منطقة من المناطق .

غير أن تأثير البيئة الجغرافية ليس مبرماً . والدليل على ذلك أن التغيرات في المجتمع تتم بصورة أسرع من التغيرات في البيئة الجغرافية . فلو أن البيئه الجغرافية تؤثر تأثيراً مبرماً على تاريخ المجتمعات لوجب أن تحفظ هذا التاريخ بنفس المعالم طالما أن البيئة الجغرافية لم تتغير تغيراً أساسياً . بينما عرفت أوروبا خلال ثلاثة الاف سنة أربعة أو خمسة أنظمة اجتماعية مختلفة : نظام الكومون البدائي ، ونظام الرق ، والنظام الاقطاعي وأخيراً النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي . ولم تتغير ظروف أوروبا الجعرافية تقريباً خلال هذه الفترة من الزمن .

والنظام الاجتماعي ، بالعكس ، هو الذي يحدد تحول البيئة الجغرافية . إذ أن نظام الرق القديم استنفذ أرض حوض البحر المتوسط ودفع إلى غزو الجول وتسوية أرضها . كما أن البورجوازية التجارية الهولندية قد انتزعت ، في فجر الازمنة الحديثة جزءاً من بلادها من مياه البحر . ولقد حولت الرأسمالية القائمة على التبادل الحر حقول القمح الانجليزية إلى مراع للقطعان ؛ وكذلك قضت الرأسمالية على الغابات في مناطق كاملة من أوروبا ، فعملت بذلك على انتشار الطوفانات ؛ كما افقرت الأراضي الزراعية وحولت مناطق بأجمعها في الولايات المتحدة إلى بوادٍ قفراء .

بينما تقوم ورشات العمل، في روسيا الشيوعية ، باخصاب الصحاري وتحويل مجاري الأنهار ، وتحسين المناخ . ولقد أوجد العلم التقدمي ، بعد دراسته لقوانين نمو الأراضي ، الزراعة القطبية ، واحيى « الأراضي السوداء » الشهيرة ، كما اكتشف قوانين تطور المناظر[1] .

وكذلك قضت الديمقراطية الشعبية في الصين على مصائب فيضانات الأنهار الكبرى .

تحتج الطبقات الرجعية « بالبيئة الجغرافية » للتخلص من مسؤولياتها في المصائب العامة . فإذا كانت سدود هولندا قد تداعت عام ١٩٥٣ فما ذلك إلا لأن البورجوازية الرجعية أبت ان تسحب فلساً من ميزانية الحرب لاصلاح هذه السدود؛ وإذا كانت الجماهير الفقيرة في اليونان لم تحظ بالمعونة ضد الزلازل ، وفي ايطاليا ضد الفيضانات فسبب ذلك سياسة البورجوازية الطبقية وليست « البيئة الجغرافية » .

يدعي المؤرخون الاجتماعيون الديمقراطيون، الذين يريدون اخفاء العامل الحقيقي في التطور الاجتماعي، انهم يفسرون التاريخ بواسطة «البيئة الجغرافية».وليس هدف هذه النزعة المادية الفجة إلا ان تقنعنا بازلية «مدنية» غربية أو اطلنطية مزعومة وتعارض « الشرق » و « الغرب » وتبرير الحرب الباردة .

---

(١) راجع سامنوتوف : الارض المزهرة . الجزء الثالث « خلق الحياة » الناشرون الفرنسيون المتحدون .

ب - السكان

السكان ، نموهم و كثافتهم ، كل ذلك بدون شك عناصر ضرورية من بين ظروف حياة المجتمع المادية . إذ لا يمكن لأي مجتمع أن يوفر حياته المادية بدون حد ادنى من الناس وأن يقف في وجه قوى الطبيعة . وعدد السكان الفعالين من العناصر التي يجب أن نحسب حسابها لتقدير القوى الانتاجية . لأن نمو السكان يؤثر في النمو الاجتماعي ؛ فهو يسهله أو يعيقه . وهكذا فإن تدفق الأيدي العاملة ،التي هاجرت إلى الولايات المتحدة، قد ساعد على النمو السريع للصناعة الضخمة التي لم يكن قد مضى قرن على وجودها . كما أن افناء جزء من سكان اميركا الشمالية من الهنود على يد المستعمرين الانجلوسكسون ، قد ساعد على ركود القبائل الباقية التقني والاقتصادي .

ولكن هذا التأثير نفسه ليس فاصلاً، والدليل على ذلك ان نمو السكان نفسه لا يمكن أن يفسر لنا لماذا يخلف نظام اجتماعي معين نظاماً اجتماعياً ولا يخلفه نظام آخر ، فخلف نظام الرق النظام الاقطاعي وهذا النظام الاقطاعي قد خلفه النظام الرأسمالي . فلو أن نمو السكان يؤثر تأثيرا قاطعاً لكان على البلاد التي بلغت أضخم كثافة من السكان ان تتمتع بأفضل نظام اجتماعي . فقد كانت كثافة السكان في بلجيكا عام (١٩٣٩) ٢٦ مرة اعلى منها في الاتحاد السوفياتي ، ومع ذلك لا تزال بلجيكا في مرحلة الرأسمالية بينما الاتحاد السوفياتي قد انتهى من هذا النظام .

والنظام الاجتماعي،على العكس،هو الذي يفسر حركة السكان.فليس من الصعب أن ندرك أن الرأسمالية في خفضها لقوة الجماهير الشرائية ، وافقار العمال ، وفرض حياة بائسة عليهم تزيد من نسبة الموت (ولا سيما بين الأطفال) . وأما في الاتحاد السوفياتي، حيث تتعارض ظروف الحياة الاشتراكية مع ظروف الحياة الرأسمالية،

فلقد ازداد عدد السكان بين ١٩٤٩ — ١٩٥٢ بما يقرب من العشرة ملايين ، أي بما يساوي سكان بلجيكا والقطاع الشمالي معاً .

ولهذا فإن الاقتصاديين البورجوازيين، حين يعتمدون في تحاليلهم على حركة السكان ، دون أن يدركوا أن هذه الحركة في الواقع هي نتيجة ، يرتكبون في ذلك خطأً جسيما .

ولهذا فليست البيئة الاجتماعية ولا نمو السكان هما اللذان يحددان طابع النظام الاجتماعي وتطور المجتمع من نظام إلى آخر .

وترى النزعة المادية التاريخية أن بين ظروف حياة المجتمع المادية قوة أخرى مستقلة في وجودها عن إرادة الناس وهي القوة الرئيسية للتطور الاجتماعي . وتتكون هذه القوة من طريقة الناس في الحصول على وسائل معاشهم ، الا وهي الوسائل المادية الضرورية للحياة . وهذا ما يسمى بطريقة الانتاج للوسائل المادية .

٢ - طريقة الانتاج

ليس هناك شيء آخر سوى الطبيعة والناس . ولقد رأينا أن كلا من هذين العنصرين لا يمكن أن يفسر ، لوحده ، نمو المجتمعات . بل ان اتحادهما الجدلي هو الذي يمدنا بالجواب. وهذا الاتحاد الجدلي هو العمل والانتاج . إذ لا يمكن للمجتمع ان يعيش أو ينمو بدون العمل والانتاج . وليس هذا قضاء الهياً محتوماً بل هو الشرط الموضوعي لكل وجود انساني :

وأمام المجتمع طرق عديدة للحصول على وسائل المعيشة الضرورية . فهو يمكنه

مثلاً ان يستخدم آلاف المصانع اليدوية أو يستخدم الآلات أو الحيوانات أو الارقاء. ولهذا يجب أن ندرس الطريقة التي يتم بها الانتاج او طريقة الانتاج .

يفهم البورجوازي الصغير ، حين نتحدث عن طريقة الحصول على الوسائل المادية الضرورية للعيش ، الظروف التي نشتريها بها في السوق . ولكن هذا يتعلق بالتوزيع والاستهلاك وليس بالانتاج مطلقاً . ومن البديهي أنه لا يوجد توزيع أو استهلاك بدون الانتاج .

١ - القوى الانتاجية

يحتاج الانسان إلى الغذاء والثياب والاحذية والمسكن والمحروقات في معاشه. ويجب أن ينتج المجتمع هذه الوسائل المادية لكي يستطيع الحصول عليها . ويحتاج المجتمع في انتاجها لآلات خاصة ، فيجب ان يعرف كيف يصنع هذه الآلات وكيف يستعملها .

يؤدي بنا ، إذن ، تحليل القوى التي تساعدنا على الحصول من الطبيعة على معيشة المجتمع ؛ إلى أن نميز بين :

(١) ـ آلات الانتاج التي تنتج بواسطتها وسائل الحياة المادية (ولا تحتوي هذه الوسائل على وسائل الاستهلاك بل آلات الانتاج نفسها) .

(٢) ـ الناس الذين يستخدمون الآلات (ولا سيما عددهم) والذين لا يمكن استعمال هذه الالات بدونهم .

(٣) ـ تجربة الانتاج التي اكتسبتها الأجيال المتتابعة : التقاليد المهنية ، المعارف التقنية والعلمية . فمن الصعب مثلاً أن نستغني ، في وقت قصير ، عن التجربة التي

تجمعت في صناعة الحرير في ليون .

٤ - عادات العمل الخاصة بكل عامل ، صفته ، مهارته . إذا نظرنا الى هذه القوى المادية في مجموعها وتفاعلها تكون لنا منها قوى الانتاج .

فما هو العنصر الأساسي الذي يسمح بتحديد حالة قوى الانتاج ؟ هي آلات الانتاج . لأن طبيعة هذه الآلات هي التي تحدد عدد الناس الضروري لاتمام عمل معين ، والمعارف التقنية الضرورية ، وعادات العمل التي يكتسبها المنتج باستخدامه لها . كما أن طابع العمل اليدوي وطابعه الفكري يتعلقان بطبيعة وسائل الانتاج .

ذلك لأن تطور قوى الانتاج مشروط بتطور وسائل الانتاج ، فقد كانت هذه الوسائل ، في أول الامر ، عبارة عن حجارة ضخمة بدائية ، ثم أصبحت سهاماً مما ساعد على الانتقال من الصيد الى تأليف الحيوانات وتربية القطعان عند البدائي ؛ ثم ظهرت الآلات المعدنية التي ساعدت على الانتقال وتطور الزراعة ؛ وبعد ذلك حدثت اختراعات جديدة ساعدت على صنع المواد ، كصناعة الخزف (poterie) وصناعة الحديد ثم تطورت المهن .وتم انفصالها عن الزراعة ؛ ومن ثمّ ظهرت الصناعات اليدوية التى تمتاز بتقسيم العمل الى مهام جزئية لصنع منتوج معين[1] ؛ وبعد ذلك تم الانتقال من وسائل انتاج الصناعة اليدوية الى الآلة التي ساعدت على التطور من الصناعة اليدوية الى الصناعة الآلية والمصنع والصناعة الضخمة الالية الحديثة بظهور الآلة البخارية والطاقة الكهربائية .

ذلك هو عرض مختصر لنمو قوى الانتاج على مر تاريخ الانسانية .

---

(١) هذا هو العمل الجماعي الذي يتألف من الجمع بين عدد كبير من العمال الذي يميز عصر الصناعة اليدوية » (ك . ماركس : رأس المال ، الكتاب الأول ج ٢ ص ٣٩) .

وألاحظ أن هذا النمو هو اصل تقسيم العمل بين الناس، ولا سيما التقسيم الاول الكبير للعمل : بين الصيادين البدائيين وصيادي الاسماك وبين القبائل التي تقوم بتربية المواشي ، ثم الزراعة.

وأما التقسيم الثاني للعمل بين المهني والزراعة فقد أدى بالضرورة والى وجوب تبادل المنتوجات بين الزراع وبين العمال اليدوين المهنيين ، والبحث عن توزيع آخر غير التوزيع العائلي.وهكذا ظهرت في ظروف معينة، سنحددها فيما بعد ، السلعة[1] كما أنهذا التقسيم الثاني للعمل هو أصل الأختلافالتدريجي بين القرية والمدينة(وهذه الأخيرة ضرورية كمركز للانتاج ومصدر للتبادل) .

وأخيراً أثر تطور وسائل الانتاج على مظاهر قوى الانتاج الأخرى : لا شك أن تطور وسائل الانتاج وكما لها قد تما على يد الناس الذين لهم علاقة بالانتاج ولم يحدث ذلك بعيدا عن الناس . ولهذا ففي الوقت الذي تغيرت فيه وسائل الانتاج تطور تغير الناس ــ وهم العنصر الاساسي في قوى الانتاج ــ أيضاً وتطوروا . فتغيرت بذلك تجربتهم الانتاجيــة وعاداتهم في العمل ومقدرتهم عـلى استخدام وسائل الانتاج وتطورت[2] .

فاضطرت البورجوازية الرأسمالية ، تلبية لحاجات الصناعة الضخمة الحديثــة ، الى تعليم العمال القراءة والكتابة والحساب ؛ كما اضطرت الى تنظيم التعليم الابتدائي الجماعي الاجباري وفتح بعض المدارس المهنية .

ولقد حاول لسيون بلوم أنيدخل النزعة المثالية منجديد فادعى أن الآلات لا يمكن اتقانهــا إلا بفضل اختراعات الفكر الانساني، ولهــذا فإن الفكر هو أصل

---

(١) راجع الدرس الثاني ، المسألة الثانية .

(٢) راجع ستالين : النزعة المادية والنزعة المادية التاريخية ٣ ت ص ٢٣ – ٢٤ .

تقدم قوى الانتاج . ولكننا نعرف كيف تتولد الأفكار من التطبيق العملي نفسه : وذلك أن أفكار الاتقان تتولد بفعل حاجات الحياة المادية ؛ فهي تظهر عند استعمال آلة من الآلات .

والآلة هي الواسطة بين الانسان والطبيعة ؛ ووظيفتها انها تساعدنا على تحويل الأشياء الطبيعة الى أشياء يمكن أن يستعملها الانسان. ولهذا تعكس الآلة متطلبات المادة التي يجب معالجتها (لا يعالج النحاس بنفس الآلات التي يعالج بها الصلب) ومتطلبات الانسان الحياتية ؛ أي صفات الشيء الذي يجب أن يقوم بخدمته والذي يجب صنعه (ولهذا اختلفت الآلات باختلاف المهام).

تعبر الالة ، في المظهر الأول ، عن خضوع الانسان للضرورة الطبيعة ؛ بينما هي تعبر في المظهر الثاني عن خضوع الطبيعة لحاجات الانسان وعمله ، أي لحرية الانسان . تعبر الالة إذن بصورة جدلية ، عن النضال بين الانسان والطبيعة .

وأما قوى الانتاج فهي تعبر عن مسلك الناس نحو الاشياء وقوى الطبيعة التي يستخدمونها لانتاج منتوجات مادية[1] .

فبماذا ينتج الناس ؟ هل ينتجون بواسطة المحراث البدائي أم بواسطة المحراث المتعددالسكك؟

تلك هي المسألة الأولى التي يثيرها تحليل طريقة الانتاج الا وهي مسألةمستوى قوى الانتاج .

ب - علاقات الانتاج

الانتاج هو نضال الانسان ضد الطبيعة. ولكن الانسان لا يناضل قط لوحده

(١) راجع ستالين : نفس المرجع ، ٣ أ ص ٢٠

لأنه ان فعل ذلك فشل وعاد القهقري الى حالة الحيوان . ولهذا يناضل الناس سوية ضد الطبيعة . فمهما كانت الظروف فالانتاج دائماً هو انتاج اجتماعي . لأن المجتمع هو الذي جعل الانسان ما هو عليه، وهو الذي انقذه من حالة الحيوانية .

ولهذا فإن خطأ الاقتصاد السياسي البورجوازي الأساسي هو التحدث عن النشاط الاقتصادي عند رجل وحيد يشبه روبنسون كروزوه أو آدم ، وهذا الانسان لم يوجد قط ، بل هو ضرب خيال ميتافيزيقي . ولهذا لم نبدأ نحن بالحديث عن المنتوجات المادية الضرورية للفرد بل عن المنتوجات الضرورية للمجتمع في مجموعة .

فإذا كان للانتاج دائماً طابع اجتماعي فلا بد من أن تنشأ بعض العلاقات بين *الناس بصدد هذا الانتاج*. وليست هذه العلاقات علاقات أفلاطونية بل هي علاقات تتصل بالانتاج وتخضع له. وليس هناك فقط علاقات الناس بالطبيعة (قوى الانتاج) بل هناك علاقات الناس فيما بينهم خلال عملية الانتاج ، ونسمي هذه العلاقات بين الناس علاقات انتاج .

ويمكن لعلاقات الانتاج بين الناس أن تكون أنواعاً متعددة

— يمكن للناس ان يجتمعوا بحرية للقيام معاً بعمل مشترك كبناء بيت مثلاً ؛ فتنشأ بذلك علاقات تعاون وتعاضد بين اناس أحرار من كل استغلال :

— ولكن يمكن لأنسان أيضاً، في بعض الظروف ، ان يضطر اخاه الانسان للانتاج من أجله : فيتغير بذلك طابع علاقات الانتاج تغييرا سياسياً ؛ فتصبح علاقات سيطرة وخضوع ويظهر استغلال عمل الآخرين .

— وأخيرا يمكن ان نلقى، عبر التاريخ، مجتمعات يوجد فيها هذان النموذجان: أحدهما في طريق الزوال والآخر في طريق الاشتداد فتنشأ علاقات فترة انتقال

من صورة لأخرى .

ولكن مهما كان نموذج علاقات الانتاج فإن هـــذه العلاقات عنصر ضروري للانتاج . ولنكتف الآن بمثـــال بسيط فنقول ان الانسان الذي يعمل من أجل نفسه لا يعمل كالذي يشتغل من أجل الآخرين .ولقد بلغ من صحة هذا الأمر ان المستغلين يحاولون دائماً تغطية الاستغلال تحت ستار تعاون مزعوم وايهام المستغَلين بأن علاقـــات الاستغلال هي علاقات تعاون « عائـــلي » وهـــذا ما يسمى بـ (paternalismes) فيقولون للعمال : « دافعوا عن مصالح صاحب العمل فسوف تنالون الأجر على ذلك في الآخرة ! » .

ولكن إذا كان طابع علاقات الانتاج عنصراً أساسياً في الانتاج ، فـــإن هذه العلاقات لا تتفق والفكرة التي يمكن أن نكونها عنها.وكان ليون بلوم يقول،منافقاً إنه لا يفهم بماذا تزيد العلاقات الاقتصادية بماديتها على سائر العلاقات . ونحن نعلم أن المادية تعني الوجود بعيدا عن ارادة الناس ووعيهم ، والانتاج بالنسبة للناس ضرورة موضوعية لا يمكن ان تتم إلا ضمن نطاق المجتمع كما هو كائن . مثال ذلك ان من لا يملك أي شيء من المنتوجات المادية الضرورية للحياة مضطر، ماديا، للعمل من أجل الآخرين ، خاضعاً لسيطرة الآخرين. وهكذا ليس الاستغلال « فكرة » وإنما هو واقع موضوعي يؤثر في الانتاج .

ولا يؤثر الناس في الانتاج عـــلى الطبيعة فقط ، بـــل يؤثر أيضاً كل منهم في الآخر . فهم لا ينتجون إلا بالتعاون بصورة معينة ، متبادلين نشاط كل منهم فيما بينهم . فهم يقيمون في سبيل الانتاج ، علاقات معينة بعضهم مع بعض ، ويتحدد تأثيرهم في الطبيعة،أي الانتاج، في حدود هذه العلاقات الاجتماعية[1] .

(١) راجع ك . ماركس : العمل المأجور والرأسمال، يتبعه الاجر والسعر والربح .

لا يمكن، إذن، فصل قوى الانتاج عن طابع علاقات الانتاج، لأن قوى الانتاج وعلاقات الانتاج « مظهران » لا ينفصلان عن طريقة الانتاج التي «تجسد»، حسب تعبير ستالين، وحدتها الجدلية في عملية انتاج المنتوجات المادية .

وإنـــه لمن الخطأ الاساسي ان نجعل من دراسة الانتاج دراسة قوى الانتاج فقط . ولقد ارتكب هذا الخطأ، معذلك، الذين يعتقدون ان الماركسية تقوم على تفسير تطور المجتمعات بواسطة تطور قوى الانتاج فقط، ويتغاضون عن طبيعــة علاقات الانتاج . ولهذا فإن تفسير العالم الحديث بواسطة آلة البخار واهمال تحليل علاقات الانتاج الرأسمالية لا يدل على ايمان بالمادية بل هو تشويه لها . كما ان تعليم أطفال المدارس التقدم التاريخي للوسائل التقنيـــة والتغاضي عن تعليمهم ماهية الاستغلال الرأسمالي خداع لهم وتقـــدير الماضي والحاضر والمستقبـــل تقديراً خاطئاً لهم .

ويرتكب نفس الخطأ أولئك الذين ينسون التقدم الاجتماعي وتقـــدم علاقات الانتاج فـــلا يرون في « التقدم » سوى التقـــدم التقني . ذلك كان وهم البورجوازية في القرن التاسع عشر . وبهـــذا نشأت خيبة أمل مريرة لأن التقدم التقني والعلمي يمكن ان يخدم اعمال السلام كما يخدم اعمال الحرب، إذ أن الآلة يمكنها إما أن تقضي على العامل أو تحرره . حتى إذا ما أخذت الرأسماليــة بالانحطاط، في عصر الاستعمار، وكشفت عن جروحها المزمنة من فقر واضطهاد وحرب، مستخدمة احدث الوسائل في التقتيل، اعلن الخياليون من انصار «التقنية» بافلاس التقدم وحمّلوا الآلة مسؤولية المصائب التي يولدها رأس المال ! ويكرس بعض علماء الاجتماع البورجوازيين أنفسهم لمثل هذه السفسطة ألا وهم دعاة « علـــم الاجتماع الصناعي » ولا سيما زعيمهم جورج فريدمان (Georges Friedman) فيتبنون وجهة نظر « اصحاب العمل » ويتظاهرون بالبحث عن سبب موقف العامل

« السلبي » في البلاد الرأسمالية، أمام العمل، فإذا به النزعة الآلية، بينما السبب الحقيقي، هو استخـــدام الآلات الرأسمالي من أجل الانتاج الرأسمالي وزيادة الاستغلال. يقول ماركس إن قوى الانتاج لا تؤثر إلا في حدود عـــلاقات الانتاج. ولهذا فإن استخدام الآلة، في الاتحاد السوفياتي حيث زالت علاقات الاستغلال، لا يمكن أن يكون له سوى نتائج طيبة بالنسبة للعامل.

لا تختصر الآلات، في روسيا، العمل فقط، بل هي تسهل، في نفس الوقت، العمل للعمال. ولهذا يستخدم العمال الآلات عن طيبة خاطر في عملهم لانهم يعيشون في ظروف اقتصاد اشتراكي، على عكس ما يجري في ظروف الرأسمالية[1].

تنظر النزعة المادية التاريخية الى طريقة الانتاج في مجموعها وفي وحدتها: علاقات الانتاج وقوى الانتاج. ولمـــا كانت قوى الانتاج لا تؤثر إلا في حدود علاقات الانتاج فإننا نسمي، عادة، مختلف طرق الانتاج بطابع علاقات الانتاج التي تسيطر عليها؛ فنحن حين نتحدث عن طريقة الانتاج نريـــد بذلك القول بأن علاقات الانتاج الاقطاعية كانت مسيطرة عليها، وكانت تطبع الحياة الاجتماعيـــة بطابعها. ولا نعني بالضرورة القول بأنها كانت العلاقات الوحيدة. كما أنه ليس من العـــلم في شيء أن تسمى عصراً تاريخياً بالنسبة لحالة قوى الانتاج كقولنا العصر الحجري والعصر المعدني وعصر الآلة البخارية أو العصر الذري.

٣- ملكيـــة وســـائل الانتـــاج

رأينا، حين درسنا قوى الانتاج (المسألة الثانية أ) أن وسائل الانتاج هي

(١) ج. مالنكوف « تقرير للمؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ». كراسات الشيوعية (عدد خاص) تشرين الثاني سنة ١٩٥٢ ص ١١٣

العنصر الاساسي فيها . وذلك لأن طبيعة وسائل الانتاج هي التي تحدد ، في الحقيقة ، مستوى قوى الانتاج .

فانتظر الآن مـــا هو الأهم في عـــلاقات الانتاج . وما هو العنصر الذي يحدد طابعها ؟

تلك هي خاصية وسائل الانتاج.

من الواضح انمن يفتقد الى هذه الوسائل لايمكنه ان يعيش إلا إذا قبل سيطرة من يمتلكها .

ولا يجب أن نخلط بين وسائل الانتاج وبين منتوجات الاستهلاك (كالأثاث ، ومنازل السكن ، والسيارة العائليــة) ونعني بوسائــل الانتاج كل مــا هو ضروري للانتاج .

فما هي ، مثلا ، وسائل الانتاج في المجتمع الحديث ؟ أولا الخيرات الطبيعية (كالارض والغابات والمياه وباطن الارض ، والمواد الأولية) ؛ ثم وسائل الانتاج التي تساعد على تحويل هذه الخيرات الطبيعية ؛ ثم المنشآت الضرورية للانتاج كأبنية المصانع ومنشآت المناجم ؛ ووسائل النقل والاتصال. يضاف إلى ذلك وسائل وسائل التبادل بين أعضاء المجتمع ؛ كالمنشآت الضرورية للتوزيع وللتجارة (المستودعات . مخازن البيع) ومؤسسات القروض (كالمصارف) .

والسؤال الذي نسأله إذا ما أردنا تحديد طابع علاقات الانتاج هو السؤال التالي : من يملك وسائل الانتاج ؟ هل هو المجتمع بأكمله ؟ أم الأفراد أو الفئات التي تستخدمها لاستغلال أفراد آخرين وفئات أخرى ؟

والاجابة على ذلك هي توضيح حالة علاقات الانتاج وحالة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الناس .

ندرك إذن أنه إذا كانت وسائل الانتاج ملكا للمجتمع بأكمله يمكن أن تكون

العلاقات بين الناس علاقات تعاون وتعاضد .

وأما الذين لا يملكون أية وسيلة للانتاج فلن يستطيعوا العيش إلا إذا وضعوا أنفسهم في خدمة من يملكها . فيشتغل البعض ويستغل الآخرون هذا العمل . لأن التعاون لا يوجد إلا بين الذين يقومون بنفس الدور في الانتاج فيكون تعاوناً طبقياً .

ينقسم المجتمع ،إذن، إلى طبقات اجتماعية متناقضة . فتكون الملكية الخاصة لوسائل الانتاج .

ونعني بالطبقة الاجتماعية مجموعة من الناس يقومون في الانتاج بدور مماثل، وتجمعهم علاقات مماثلة بالنسبة للآخرين[1] (لينين) .

ليس لتعبير « الطبقة الاجتماعية » أي معنى إلا على مستوى علاقات الانتاج . إذ تتحدد هذه الفكرة بنموذج الملكية أو بانعدام الملكية . ولا يجب أن نخلط هذه الفكرة بالمقولات الاجتماعية ، التي تتحدد بواسطة التقنيات والمهن واوجه النشاط الاجتماعي الضرورية لحياة المجتمع.مثال ذلك عامل المعدن ، وعامل المنجم أو عامل القطار . ان يكون المرء « فلاحاً » هو ان ينتمي لمقولة اجتماعية ، غير أن هذا لا يحدد الطبقة التي ينتمي اليها . إذ يمكن ان يكون المرء ملاكا للارض كبيرا رأسمالياً (« فلاح ذواياد بيضاء ») أو ملاكا مستغلا بمساعدة عمال زراعيين . أو ملاكا لاستغلال عائلي ، أو عاملا زراعياً[2] الخ .

وكذلك ليس « صاحب العمل » في المصنع هو المدير أو المهندس بل هو

---

(١) سنعود الى تفصيل القول عن فكرة الطبقة الاجتماعية في الدرس السابع عشر .

(٢) نريد بقولنا « تحالف العمال والفلاحين » والفلاحين العمال (الملاكين الصغار ، الذين يعملون في المزارع) والعمال الزراعيين .

الرأسمالي أو جماعة الرأسماليين (« الشركة ») الذين يملكون وسائل الانتاج .

حين تملك طبقة اجتماعية وسائل الانتاج فإنها تتشخص فيها علاقات الانتاج المناسبة لها ، ولهذا فسوف نتحدث عن علاقات الانتاج « الرأسمالية » أو علاقات الانتاج « البورجوازية » . حتى إذا ما سيطرت علاقات الانتاج هذه فإن نفس التعابير تستعمل للدلالة أيضاً على طريقة الانتاج . فنقول : الطبقة « الاقطاعية » وعلاقات الانتاج « الاقطاعية » ، طريقة الانتاج « الاقطاعية » لأن البورجوازية ليست حينئذ الطبقة المسيطرة .

يمكننا الآن أن نحدد فكرة علاقات الانتاج .

تضم هذه العلاقات :

أ) صور ملكية وسائل الانتاج ؛

ب) وضع مختلف الفئات الاجتماعية في الانتاج وعلاقاتهم المتبادلة أو « تبادل أوجه نشاطهم » التي تتولد عن هذه الصور ، حسب قول ماركس ؛

ج) صور توزيع المنتوجات التي تتعلق بها . كل هذا يكون موضوع الاقتصاد السياسي[1] .

صور الملكية إذن هي التي تكون العنصر الاساسي في علاقات الانتاج . ومن البديهي أن الطبقة المستغلة تتخذ جميع الاحتياطات المفيدة من أجل حماية صور الملكية التي تضمن لها امتيازاتها . وتكون علاقات الانتاج ، التي تحمل طابع نظام ملكية وسائل الانتاج ، الأساس الاقتصادي للنظام الاجتماعي بأكمله .

تملك الآن جميع الافكار الضرورية لندرك أن طريقة الانتاج تكون القوة الرئيسية في التطور الاجتماعي .

(١) راجع ستالين : « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » آخر مؤلفات ص ١٦٢ .

٤ ـ تغير طريقة الانتاج مفتاح تاريخ المجتمعات

يمتاز الانتاج بهذه الخاصية وهي أنه دائم التحول والتطور، وانه لا يقف فترة طويلة في نفس الوقت؛ بينما تظل البيئة الجغرافية في مجملها على ما هي عليه. لأن الناس يحاولون باستمرار الاستفادة، الى أقصى حد، مما تقدمه الطبيعة لهم؛ كما يحاولون اتقان الانتاج الذي يتطور دائماً.

لو أن الانسان لم يحاول دائماً أشباع حاجاته المادية بصورة أفضل، لما كان انساناً واعياً، بل حيواناً خاضعاً للضرورة العمياء. غير ان الانسان يجد في الانتاج الوسيلة لاستخدام الضرورة الطبيعية لخدمته؛ ولهذا لا يتوقف الانتاج فترة طويلة في نفس الوقف.

تكون هذه الحقيقة، بالنسبة للمثالي، موضوعاً للتشهير؛ فهو يرى فيها عطشا لا يرتوي نحو الخيرات المادية؛ كما ترى فيها المسيحية عملاً من أعمال الشيطان والشر. ولكننا نعلم، أيضا، أن هذه الموضوعات مخصصة للجماهير الكادحة؛ فتلقن الصيام والطهارة بينما تنعم الطبقات المستغِلة بفيض من المنتوجات المادية. لأن ازدياد الانتاج هو ضرورة موضوعية للمجتمعات الانسانية. واستغلال الانسان للانسان هو الذي يحول دون أن يكون لهذه الضرورة نتائجها الطبيعية الخيرة.

وتغيير طريقة الانتاج وحده يستطيع تفسير كيف أن نظاما اجتماعيا يحل محل نظام آخر، ولماذا تتغير الأفكار الاجتماعية والأراء والمؤسسات السياسية، ولماذا تمس الضرورة، في بعض الاحيان، لاعادة صهر النظام الاجتماعي والسياسي بأكمله.

ولقد بان لارسطو، منذ أمد بعيد، الصلة بين الرق ومستوى قوى الانتاج.

يقول ارسطو ، وهو أعظم فيلسوف قديم ، :«لو أن كل آلة تستطيع القيام بوظيفتها بعد أمرها القيام بذلك، أو من تلقاء نفسها، كروافع ديدال التي تتحرك من نفسها أو مقاعد إ آله النار والمعدن فولكين (les trepieds de vulcain) التي تتحرك أيضاً من تلقاء نفسها لتقوم بعملها المقدس ؛ لو أن مكاكيك الحائكين (navetts) كانت تحوك من نفسها لما أحتاج صاحب المصنع لمساعدين أو رئيس للعبيد»[1]. ولقد برورت الميتافيزيقية المسيحية ، في القرون الوسطى ، وجود النقابات المهنية (les corporations) التي تحد من انطلاق قوى الانتاج وتساعد على استقرار النظام الاقطاعي . ولكن إذا كان هذا النظام يهدف في الأصل لضمان المجتمع ضد الفقر فقد ظهر على مر الايام ان هذا الخوف من الحركة والتغير ليس سوى خوف الاقطاعيين أمام موجة البورجوازية الصاعدة . حتى إذا ما استولت هذه على زمام الحكم ازالت القيود المفروضه على الانتاج ومنعت النقابات المهنية (les capoutais) .

وهكذا كان السلطان السياسي ضروريا لفرض القانون الجديد الذي هو انعكاس لطريقة الانتاج الجديدة . كما كانت الافكار الجديدة ضرورية لتبرير هذا السلطان الجديد وذاك القانون الجديد . فكانت الفلسفة سلاحاً فكريا ضد نظام الاشياء القديم . وضمنت البورجوازية المنتصرة حق الملكية البورجوازي في اعلان حقوق الانسان ، كما أقامت منظمات برلمانية بورجوازية ، ودعت لأخلاقها وأوجدت نظاماً جديداً للتعليم حذفت منه فلسفة القرون الوسطى كما حرمت الجمعيات العمالية لتحمي نفسها ضد نضال البروليتاريا المستغَلة .

وهكذا فرضت على الامة بأجمعها «نوع الحياة» البورجوازية والافكار الخاصة

---

(١) ك . ماركس : رأس المال . الكتاب الاول ، ج ٢ ص ٩١ . المطبوعات الاجتماعية .

بها لان « لكل نوع من الحياة نوعاً من الفكر[1] » .

ولنقرأ من جديد صفحات القسم الأول من بيان الحزب الشيوعي الخالدة .

« لقد داست البورجوازيــة ، في كل مكان استولت فيــه على السلطان ، العلاقات الاقطاعية والبطريركية والغرامية بالاقدام . فحطمت بدون شفقة جميع الصلات المعقدة المتنوعة التي توحد بين الانسان ورؤسائه الطبيعيين في عصر الاقطاع، ولم تبقِ الا على علاقة الربح بين الانسان والانسان ومتطلبات الدفع نقداً القاسية. فإذا بها تغرق رعشات النشوة الدينية المقدسة والحماس الفردوسي والعاطفة البورجوازية في مياه الحساب الاناني المتجمدة. وجعلت من كرامة الانسان قيمة بسيطة للتعامل؛ فاحلت محل الحريات العديدة حرية التجارة الوحيدة، أي أنها احلت محل الاستغلال الذي تخفيــه الأوهام الدينية والسياسيــة استغلالا مفضوحاً مباشراً . جردت البورجوازية جميع الوان النشاط، التي كان ينظر اليها على انها مقدسة توجب الاحترام من هذه الهالة التي كانت تحيط بها . فجعلت من الطبيب و المشرع والكاهن والشاعر والعالم عمالا مأجورين.

كما مزقت البورجوازية ستار العاطفية الذي يخيم على العلاقات العائلية وحولتها إلى مجرد علاقات مالية[2] .

ولهذا فإن عدم إدراك، ان البورجوازية ارادت ان تقوي بجميع الوسائل طريقة الانتاج التي هي نفسها ثمرة لها، يمنعنا من ادراك الحوادث التاريخية التي وقعت، مثلا،

---

(١) راجع ستالين : النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية ، ٣ ب ليس هذا التعبير نفس تعبير فورباخ الميكانيكي : « نفكر في قصر بصورة تختلف عن تفكيرنا في كوخ » .

(٢) راجع البيان ص ٣١ .

فيما بين ١٧٨٩ — ١٨١٥ .

يميز المؤرخون البورجوازيون أنفسهم بين عصر بدائي هو العصر القديم ، والعصور الوسطى ثم الأزمنة الحديثة . فما هو الفرق بين هذه العصور ؟ الفرق الأساسي هو أنه كان يوجد في القديم الملكية المشتركة ؛ ثم نشأت، عند فجر التاريخ والمدنية، طريقة الانتاج التي تقوم على الرق، وقد سيطرت، في العصر القديم ؛ بينما سيطرت، في القرون الوسطى ، الملكية الاقطاعية للأرض ، وشاهدت العصور الحديثة نمو الملكية البورجوازية التجارية ثم انتصار البورجوازية الرأسمالية وافول نجمها . ويقول المؤرخون المناهضون للماركسية إن هناك صفات مشتركة بين العصر القديم والقرون الوسطى والأزمنة الحديثة. ولهذا فليس تفكير أفلاطون أو أحاديث شيشرون ، مثلاً ، غريبة علينا. وهذا صحيح. وهناك تفسير هذه الصفات المشتركة ، ولا سيا على الأقل فيما يتعلق بالمؤسسات والأفكار .

١ — تمتاز نزعات الرق والاقطاع والرأسمالية بصفة واحدة مشتركة، مهما اشتد الخلاف بينها، وهي انها جميعاً تمثل علاقات انتاج تقوم على استغلال طبقة على يد طبقة أخرى ، كما تعتمد على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج. النضال الطبقي إذن موجود في هذه النماذج الثلاثة للمجتمعات ، وكل ما ينتج عنها على مستوى المؤسسات والأفكار.

٢ — يوجد ، إلى جانب هذه الطرق الثلاث للانتاج، طبقات عديدة للبورجوازية الصغيرة ، (كالبورجوازية التجارية ، والصناعية اليدوية، والزراعية ، والفكرية) .

يؤدي هذا الواقع التاريخي المستمر إلى تكوين سيكولوجية « الانسان المتوسط » وتغذيتها؛ وهو انسان فردي يتعلق بالملكية الخاصة، مليء بالتناقض، لأنه يقف موقفاً سلبياً من النضال الطبقي ويستسلم دائماً للطبقة الحاكمة المستغلة.

وبالرغم من أن هذه النظم الثلاث تتشابه، فإنها في نفس الوقت تختلف نوعياً في أساسها الاقتصادي، فهي تؤلف تكوينات اجتماعية مختلفة. وموضوع العلم التاريخي هو دراسة أوجه الاختلاف والتشابه فيا بينها.

٥ ـ الخلاصة

النزعة المادية التاريخية هي النظرية العامة لطرق الانتاج.

والاقتصاد السياسي هو العلم الخاص بالقوانين الموضوعيـة التي تسيطر عـلى علاقات الانتاج بين الناس.

وموضوع علم التاريخ هو العلاقات المتبادلة بين الطبقات التي تتمثل فيها هذه العلاقات للانتاج ولا سيا علاقاتها السياسية.

وليس هناك من علم تاريخي إذا لم نتساءل في كل لحظة عن طابـع علاقات الانتاج، وطابع الملكية، والطبقات الاجتماعية والربح الطبقي.

ولهذا لا يمكن ان يقتصر علم التاريخ الحقيقي على دراسة أعمال الملوك وقواد الجيوش والغزاة لأن التاريخ هو تاريخ الشعوب.

ان تاريخ التطور الاجتماعي ... هو تاريخ منتجي المواد المادية، تاريخ الجماهير الكادحة التي تكون القوى الأساسة في عملية الانتاج والتي تنتج المواد الماديـة الضرورية لوجود المجتمع[١].

والواقع أن قانون التاريخ هو الصلة الضرورية بين علاقات الانتاج وبين قوى الانتاج: ويعبر هذا القانون عن مصالح جماهير الانسانية الحيويـة.

---

(١) راجع ستالين: النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية ٣، ب ص ٢١.

ولهذا كانت الماركسيــة ، حسب قول ستالين ، « علـم ثورة الجماهيــر المضطهدة المستغَلة » .

ولكن إذا كان الناس يصنعون تاريخهم بأنفسهم؛ فإنهم يصنعونه « في ظروف معينة تحدد هؤلاء الناس » (ماركس) فلا يجب البحث عن مفتاح التاريخ في أدمغة الناس وآرائهم وأفكارهم؛ بل في علاقات الانتاج والقوانين الاقتصادية الموضوعية التي تعمل مستقلة عن ارادة الناس، متى ما انتج هؤلاء بصورة اجتماعيــة، الذين يتعلقون بصورة مُلكية وسائــل الانتاج،أي بالأساس الاقتصادي.

لا يمكن لعــلم التاريخ أن يستغني عن معرفة هذه القوانين، ولهذا لا يجب عــلى حزب البروليتاريا ، إذا أراد أن يسير بالطبقة العمالية لتحقيق رسالتهــا التاريخية ، أن يدعو هذه الطبقة للعمل من أجل مصالحها فقط بل يجب عليـــه أيضاً أن يقيم برنامجه ونشاطه العملي على معرفة قوانين النمو الاقتصادي[1] .

(١) ان وضع برنامج الحزب الشيوعي الجديد في الاتحاد السوفياتي والتوجيهات العملية للانتقال الى الشيوعية لم يكن ممكنا عليا بدون اكتشاف قوانين الاقتصاد الاشتراكي ، وبدون دراسة علاقات الانتاج الاشتراكية واكتشاف ظروف تحولها الى علاقات انتاج شيوعيــة . هذا ما كان يجهله لاروشنكو ورد عليه ستالين في آخر كتبه « مشاكل الاشتراكية الاقتصاديــة في الاتحاد السوفياتي » ، آخر مؤلفات ، لا سيما ص ١٤٦ وما يليها .

الدرس السادس عشر

قانون الترابط الضروري

بين علاقات الانتاج وطابع قوى الانتاج

١ ـ قوى الانتاج هي اكثر العناصر ثورية في الانتاج .
٢ ـ تأثير علاقات الانتاج على قوى الانتاج .
٣ ـ قانون الترابط الضروري .
٤ ـ تأثير عمل الانسان .

رأينا في الدرس السابق أن طرق الانتاج تتغير عبر التاريخ. فهي، ككل واقع تمر بتغيرات كميّة هي عبارة عن تطور يتبعه تغيرات كيفية يمكن أن تتخذ صورة ثورية حينما تعترض الطبقات الزائلة المفضلة سبيل التغيرات الضرورية .

ويدفع إلى هذه التغيرات ، ككل واقع ، تناقض داخلي . فما هو التناقض النوعي لطرق الانتاج عامة ؟ التناقض بين علاقات الانتاج وطابع قوى الانتاج . وهذا هو موضوع هذا الدرس .

١ ـ قوى الانتاج هي أكثر العناصر ثورية في الانتاج

قلنا إن الانتاج في تغير دائم. ولكن ما هو المظهر الذي يتغير أولا ؟ أهي قوى الانتاج أم علاقات الانتاج ؟ هل هي الآلات أم صور الملكية ؟ من البديهي أنه بينما يستمر الأساس الاقتصادي لتكوين اجتماعي، يحدث أثناء ذلك تطور في التقنية . قوى الانتاج ، إذن ، هي التي تتغير أولا قبل تغير آلات الانتاج . تلك هي الميزة الثانية للانتاج[1] .

وهاك مثالا بسيطاً جدا : كلما نعلم الطريقة التي تقوم على وضع قطعة ضخمة من الحجارة، إذا ما أردنا نقلها ، على قطار من الجذوع . وكلما ازداد استعمالنا لهذه الجذوع كلما ازداد صقلها من جراء هذا الاستعمال نفسه؛ فتصبح اسطوانات مستديرة تامة ، قبل أن ترد أية فكرة هندسية عن الاسطوانة على ذهن الناس[2]. كما أن النقل يصبح أسرع وأسهل فيوحي للانسان بفكرة تحقيق هذا الصقل بنفسه بوسائط معينة . وإذا بخيال الانسان ، بمساعدة الحاجة ، يعمل ويكتشف أن العمل سيزداد سهولة إذا كانت الاسطوانات (les rondire) ، مع دورانها حول نفسها ، حسب محورها ، متصلة بقطعة الحجر اثناء النقل . فلا تمس الضرورة لوضعها من جديد أمام قطعة الحجر . حتى إذا ما مضت عشرة أو مئة أو الف سنة طلع علينا (المحور) والدولاب والعربة .

---

(١) درسنا الميزة الأولى في الدرس الخامس عشر وهي أن تغير طريقة الانتاج يحول شكل المجتمع بأجمعه .

(٢) تتولد الافكار الرياضية اذن من التطبيق العملي .

وهكذا لا تظل قوى الانتاج في مكانها ، بل تكتمل فتسبق ارادة الانسان وتدفعها معها . كما تنمو، في نفس الوقت، حاجات الانسان، لأن الانسان متى ما عرف العربة لن يكتفي قط بالاسطوانات كلما عرض له نقل حمل ثقيـــل .

وتتغير علاقات الانتاج بدورها تبعاً لتغير قوى الانتاج . فهي وثيقــة الصلة بطابع قوى الانتاج .

ولنضرب على ذلك مثلاً . يوجـــد، في فترة انحطاط مجتمع الرق، قوى للانتاج جديـــدة مرت بتطور طويل في العصر السابق . كاتقان صنع الحديـــد الصب (la fonte) والحديد ؛ واستعمال مغزل اليد ؛ وشيوع استخدام العربة ؛ وتقدم الزراعة والبستنة وانتاج الخمر والزيت والعسل؛ واكتشاف مطحنة الماء (٣٤٠م)، ولكن هذه التقنيات الجديدة ، التي كان الرومان يلاحظونها عند الشعوب التي كانوا يسمونها بالبربرية ويحاولون استخدامهـــا ، كانت تتعارض مع نظام الرق ! إذ ليس للرقيق أية فائدة من العمل ؛ فهو مهما عمل فسوف يعامل كما كان في السابق. ولهذا لا يشعر بأي ميل للعمل كما أن انتاجه قليل . ولم يعد الأمر الآن القيام بأعمال ضخمة على يد قطعان الارقاء تحت ضرب السياط . بل إن قوى الانتاج الجديـــدة تتطلب من العامل أن يظهر بعض الاهتمام لعمله وإلا ذهبت هذه القوى سدى.

ويدرك السيد ذلك، لاسيما وأن الارقاء ، وهم غالباً من البربر الاسرى ، يقومون بالثورات ويهجرون اماكن العمل ويصبحون (قراصنة) فيتقنون صناعة الأسلحة والملاحة .

تتطلب ، إذن، قوى الانتاج الجديدة علاقات للانتاج جديدة. ولهذا فإن مالك وسائل الانتاج، الذي يتخلى عن رقيق ضعيف الانتاج ، يفضل الحصول على قن. لأن القن يملك ما يستغله لنفسه كما ، يملك وسائل الانتاج . فو إذن مهتم اهتماماً

شخصياً بالعمل ؛ وان كان مرتبطاً بارض سيده . وهذا الاهتمام ضروري كي يزيد من انتاجه في جميع الأعمال الزراعية ، ويدفع قدراً من محصوله للاقطاعي . ولهذا فإن السيد ، بدلا من اعالة رقيق لا يعمل شيئاً ، ولو تحت سياط وكلائه فإنه سيطلب نصيبه من المحصول من قن حر يعمل كما يريد ، شريطة أن يطحن قمحه في مطحنة السيد ويخبز خبزه في فرنه .

وهكذا ولد نمو قوى الانتاج الجديد ، ضمن علاقات الانتاج في نظام الرقيق علاقات جديدة للانتاج هي العلاقات الاقطاعية .

ان العلاقات الاجتماعية وثيقة الصلة بقوى الانتاج . لأن الناس يغيرون طريقتهم في الانتاج ، وبتغييرهم لطريقة الانتاج وطريقة كسب معاشهم ، يغيرون جميع العلاقات الاجتماعية . وهكذا تؤدي مطحنة السيد لظهور السيد الاقطاعي بينما تؤدي مطحنة البخار لظهور مجتمع الرأسمالي الصناعي[1] .

٢ ـ تأثير علاقات الانتاج على قوى الانتاج

إذا اقتصرنا على ملاحظة ان قوى الانتاج هي أكثر العناصر حركة وثورة في الانتاج ، فإننا نقع في الميتافيزيقية وفي النزعة الميكانيكية . لأن طريقة الانتاج تمثل وحدة قوى الانتاج وعلاقات الانتاج الجدلية . وكل من هذين النقيضين يعمل ضد نقيضه في هذا التناقض الداخلي ولو أن أحدهما يتغير أولا . يجب علينا إذن أن ندرس تأثير علاقات الانتاج المقابل على قوى الانتاج .

---

(١) راجع ماركس : بؤس الفلسفة ، ص ٨٨ المطبوعات الاجتماعية .

لو عدنا إلى مثل الانتقال من مجتمع الارقاء إلى المجتمع الاقطاعي لرأينا أن علاقات الانتاج الاقطاعية قد عملت، بعد ظهورها، على نمو قوى الانتاج التي كانت تقف في وجهها علاقات الانتاج القديمة ، لأن القين يهمه ، بالرغم من أنه مستغَل ، ان يعمل أكثر من الرقيق. وهكذا زال بالتدريج ما خلفته العصور القديمة والقرون الوسطى الأولى من بؤس وشقاء .

وهناك مثال آخر ؛ رأينا في الدرس السابق (٢ ، أ) ان تقدم صنع المعادن والفخار أدى إلى تقسيم العمل بين الزراعة والحِرَف (métiers) . وقد افضى هذا التقسيم ، في ظروف ملكية وسائل الانتاج الفردية التي يتطلبها العمل اليدوي واستخدام الارقاء ، إلى بيع المنتوجات اليدويه والزراعية وشرائها في السوق ، أي إلى ظهور السلعة . كما ولدت ، في نفس الوقت ، طبقة جديدة هي طبقة التجار المتخصصين في نقل السلع وتوزيعها .

ولما كانت مصلحة هذه الطبقة الخاصة في التجارة فقد أدى بها الأمر إلى تشجيع الانتاج التجاري ، وتوسيع هذه التجارة . وكان هذا أصل المستعمرات الفينيقية الأغريقية ، مراكز التجارة حول حوض المتوسط . ومن البديهي أن الانتاج التجاري قد عمل على نمو قوى الانتاج ، والتقنيّات والفنون ، وكذلك الملاحة فكانت المصنوعات الخزفية الاثينية تباع في جميع أنحاء المتوسط ؛ كما وجدت في أثينا مصانع أسلحة يعمل فيها أكثر من مئة رقيق .

مثال آخر : كانت ثروة الاقطاعيين الأرض وما يقدمه لهم الاقنان من محصول الأرض ؛ أما ثروة البورجوازيين ، التي تقوم على التجارة والانتاج الرأسمالي الحديث فهي تتكون من المال . ولهذا فإن الاقطاعي ، الذي يريد أن يحصل على المنتوجات التجارية ، سعياً وراء الأبهة ومنافسة لاغنياء البورجوازيين ، يخسر ثروته بسرعة

ولم يكن يحميه سوى الامتيازات الاقطاعيـة وازدياد حقوق الاقطاعيين . ولهذا كان نمو الانتاج التجاري يهدد قوته الاقتصادية . فكان يحاول تنظيم هذا النمو بواسطة نظام النقابات (Corporations) .

وهكذا كان النظام الاقطاعي يعيق نمو قوى الانتاج الجديدة . غير أن هذه القوى كانت تتطلب تعميم علاقات الانتاج الجديدة (الرأسمالية) .

ولهذا يجب علينا أن لا ننسى ما يلي : ان قوى الانتاج، التي تتغير أولا، ليست مستقلة عن علاقات الانتاج . وان علاقات الأنتاج التي يتعلق نموهـا بنمو قوى الانتاج تؤثر بدورها على نمو هذه القوى . فهي إما أن تعيقها أو تزيد في نموهـا . وتصبح عـلاقات الانتاج عائقاً لنمو قوى الانتاج حينما لا تساير ازدهار قوى الانتاج .

وهي تصبح ، عـلى العكس ، دافعاً لهـذا النمو حينما تتفق وحـالة قوى الانتاج .

ولما كانت الأولية لقوى الانتاج في النمو فإن علاقات الانتاج الجديـدة هي القوة الأساسية التي تدفع بها نحو التطور .

ومن الخطأ القول بأن علاقات الأنتاج ، في تاريخ المجتمع، تقوم بدور العائق الذي يشل نمو قوى الانتاج . وحينما يقول الماركسيون بأن علاقات الانتاج تقوم بدور العائق فانهم لا يقصدون أي نوع من علاقات الانتاج بل يقصدون علاقات الانتاج القديمة التي لم تعد تتفق وتطور قوى الانتاج فتعيقها عن النمو . ويوجد، إلى جانب علاقات الانتاج القديمة، علاقات جديدة تحل محل العلاقات القديمة . فهل يمكن القول بأن دور علاقات الانتاج الجديدة يقتصر على اعاقة الانتاج ؟ كلا . لأن علاقات

الانتاج الجديدة هي ، على العكس ، القوة الرئيسية التي تحدد نمو قوى الانتاج في المستقبل وإلا كتب على قوى الانتاج أن تظل بدون تأثير[1] :

٣ - قانون الترابط الضروري

ندرك، الآن، الجدلية الداخلية لعالم الانتاج. تتقدم قوى الانتاج تقدماً محسوساً على أنها أساس اقتصادي، لفترة معينة من الزمن ، وتصبح علاقات الانتاج ، التي كانت جديدة ، في مطلع تاريخ هذه الطريقة في الانتاج، قديمة . بعد أن كانت في أول الأمر القوة الرئيسية التي تحدد نمو قوى الانتاج.حتى إذا لم تعد تتفق وازدهار هذه القوى أخذت تعيق هذا الازدهار .

ولا شك أن علاقات الانتاج الجديدة لا يمكن أن تظل جديدة إلى الأبد ؛ بل تأخذ بالقدم والتناقض مع نمو قوى الانتاج اللاحق؛ فتفقد بالتدريج دورها كمحرك رئيسي لقوى الانتاج وتصبح عائقاً لهذه القوى[2] .

فما هو موقف الرأسمالية ، مثلاً ، تجاه التقنية الحديثه ؟ يدعى الرأسماليون أنهم أنصار التقـــدم التقني ، ودعاة ثورة في هذا الميدان . ولا شك أن الرأسمالية قد عملت على تقدم التقنية . لأن التقنية الجديدة تنقص زمن العمل الضروري

---

(١) راجع ستالين : مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي ، آخر مؤلفات ص ١٥٠ .

(٢) راجع ستالين : « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » آخر مؤلفات ص ١٥١ .

للانتاج ، وتساعد على زيادة فائض القيمة[1] أي زيادة الربح .

ونعلم أيضاً ان الرأسمالية فيها ظواهر ركود تقنية ؛ فيظهر الرأسماليون في صورة رجعيين في الميدان التقني ؛ فلا يريدون القيام بأي تحسين جديد، ويلجأون الى العمل اليدوي أو العمل المنزلي . ذلك لأن اقامة المنشآت الجديدة يفضي إلى تجميد رؤوس الأموال، وازدياد الرأسمال المجمد ينقص من نسبة الربح فلا يساعد على الحصول على الربح الأقصى في الرأسمالية في زمن زال فيه استقرار الأسواق الرأسمالية النسبي .

يفسر لنا، إذن، ظاهرة الركود قانون الرأسمالية الأساسي، الا وهو تحقيق أقصى الأرباح ، أي طابع علاقات الانتاج القديمة .

تقف الرأسمالية إلى جانب التقنية الجديدة، متى لوحت ها بأعظم الأرباح . كما أنها تقف في وجه هذه التقنية الجديدة وتدعو للعودة إلى العمل اليدوي إذا لم تلوح لها التقنية الجديدة بأرباح أعظم[2] .

ومع ذلك فإن تأخر علاقات الانتاج عن اللحاق بتقدم قوى الانتاج لا يمكن أن يستمر طويلا . وذلك لأنه مهما كانت الاجراءات التي تتخذها الطبقات التي تمثل علاقات الانتاج القديمة التي قضى عليها التاريخ بالزوال ، لاطالة أمد الأساس الاقتصادي، فإن هذه الاجراءات لا يمكنها أن تعيد التاريخ القهقرى . ذلك لأن

(١) يبدع العامل خلال ساعات العمل الأولى قيمة تساوي قيمة المنتوجات التي يسمح له اجره بالحصول عليها . أما في سائر ساعات العمل فهو يبدع قيمة اضافية هي فائض القيمة الذي يربحه الرأسمالي .

(٢) راجع ستالين: « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » آخر مؤلفات ص ١٢٩ - ١٣٠ .

نمو الانتاج ضرورة مادية للانسانية . لا يمكن « للذهن » ان يقاومها طويلا . يجب إذن أن تزول علاقات الانتاج القديمة . ولا يمكن للاجراءات التي اتخذتها الطبقات الرجعيـة إلا أن تفضي ، في النهايـة ، إلى القضاء عـلى طريقـة الانتاج بأجمعها .

مهما كان إذن تأخر علاقات الانتاج فإنه يجب عليها ، ان آجلا او عاجلا ، أن تتلاءم مع طابع قوى الانتاج الجديد . فكيف يتم هذا الانسجام ؟ بقلب صور ملكية وسائل الانتاج التي تكوّن ، كما رأينا ، العنصر الأساسي في علاقات الانتاج . ولهذا فإن إقامة نظام جديد للملكية يساوي اقامـة علاقـات جديدة للانتاج .

من الواضح ان استخدام الطاقة الذرية السلمي لخدمة المصلحة الوطنية ، لا يمكن ان يتحقق على يد رأسماليين ، لأنهم لا يستطعون الحصول على الربح الاقصى في حالة تقنية باهظة كطلبات الدولة الحربية . وكذلك شأن استخدام الطاقـة الهيدرو كهربائية وكهربة العمل الزراعي .

أما الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج فإنها تستطيع تحقيق ذلك لأنها لا تخضع لقانون الربح . وهكذا يمكن القول ان قوى الانتاج تولد عـلاقات الأنتاج التي تحتاجها لتحقيق نموها في المستقبل .

وبهـذا تكوّن قوى الانتاج العنصر الفاصل في نمو الانتاج . ذلك هو قـانون الترابط (correspondance) الضروري بين علاقات الانتاج وبين طابع قوى الانتـاج . فكما تكون قوى الانتـاج يجب أن تكون عـلاقات

الانتاج[1] .

تحل محل علاقات الانتاج القديمة علاقات جديدة للانتاج تكون المحرك الرئيسي لنمو قوى الانتاج في المستقبل .

ويضيف ستالين إلى ذلك قوله :

تكون هذه الخاصية لنمو قوى الانتاج – وهي كونها اولا عائقاً لقوى الانتاج ثم صيرورتها المحرك الرئيسي الذي يدفع هذه القوى الى الأمام، ثم انتقالها من كونها المحرك الرئيسي الى صيرورتها عائقاً لقوى الانتاج – احد العناصر الرئيسية للجدلية المادية الماركسية . وهذا ما يعرفه اليوم كل الشيوعيين المبتدئين[2] .

يضاف الى ذلك ان هذا القانون شامل ، أي انه يصح على جميع طرق الانتاج مهما كانت قوانينها الاقتصادية الخاصة ؛ فهو أساس كل تطور للمجتمعات الانسانية .

٤ - تأثير عمل الانسان

قانون الترابط الضروري هو قانون موضوعي . إذ لا يختار اي انسان طريقة الانتاج التي يعيش فيها . فنحن لم نختر بأنفسنا ان نولد في عصر الصناعة الضخمة ولا في عصر الرأسمالية الاستعمارية . ويفرض الانتاج نفسه على الناس في جدلية متطلباته الداخلية . إذ لا يمكن لقوى الانتاج ان تتقدم إلا في حدود بعض علاقات

---

(١) راجع ستالين : « النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية ص ١٦

(٢) راجع ستالين : « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » في مؤلفات أخيرة ص ١٥١

الانتاج ، وهذا الترابط الضروري هو نتيجة طبيعة قوى الانتاج نفسهـا ، وليس نتيجة لارادة الناس ، ولا يد لنـا في ذلك . وليس هنـاك من رأسمالي يستطيع القضاء على هذا الواقع الموضوعي، وهو ان الرأسمالية الحاضرة تؤدي الى توقف نمو قوى الانتاج .وليس هناك اي انسان يقف في وجه هذا الواقع وهو أن الاشتراكية تستطيع اقامة هذا الترابط الضروري .

لا يعني هذا ان عمل الناس لا يمكن ان يقوم ، او لا يقوم ، بأي دور في النمو الاجتماعي . ويظهر هذا العمل في شعورهم او معرفتهم الصحيحة لضرورات الانتاج الموضوعية ، ولقانون الترابط الضروري . وإذا استشهدنا بمثال ذكرناه سابقاً فإن السيد الاقطاعي الذي يفضل ان يتعامل مع قين بدلا من التعامل مع الرقيق، لأن ذلك أفضل للانتاج، يشعر بقانون الترابط ويعتمد عليه لمصلحته الطبقية حين يجعل من الرقيق قيناً . فهل يعني عمل الانسان هذا انـه ليس هناك قانون موضوعي ؟ كلا . بل يفترض، على العكس، موضوعية القانون . والدليل على ذلك أنه بقراره هذا يبلغ النتائج التي توخاها . فهو يستخدم القانون لمصلحته .

كما يشعر الرأسمالي ، الذي يرى ان تقدم التقنية يهدد الربح الأقصى، فيتخذ لهذا الاجراءات ضد نمو قوى الانتاج،وضد العلم ، يشعر بقانون الترابط الضروري . فهويحس بالخوف من نمو قوى الانتاج الذي يودي بالملكية الخاصة ووسائل الانتاج. وهو ، كي يبعد هذه الامكانية ، لا يمكنه سوى محاولة القضاء على قوى الانتاج التي تقلب اوضاع الانتاج . فيعتمد على قانون الترابط الضروري ، لخدمة مصلحته الطبقية ، محاولا ازالة نتائجه الموضوعية فيعيق عمل هذا القانون .

يبدو إذن عمل الارادة الانسانية في معرفة الناس لهذ القانون معرفة صحيحة . فإذا ما عرفوا هذا القانون حاولوا الحيلولة دون عمله وتأخير الوقت الذي يعمل

فيه . كما أنهم يستطيعون تشجيع هذا العمل وتقريب ذلك الوقت واتخاذ الاجراءات الملائمة للضرورات الموضوعية والتوفيق بين علاقات الانتاج وطابع قوى الانتاج .

ندرك إذن أن طابع قانون الترابط الضروري الموضوعي لا يقضي على مسؤولية الانسان . إذ يمكن للانسان أن يوجد ، بواسطة عمله الواعي ، الظروف التي تعيق عمل هذا القانون او تساعده . فإذا ما استمر ، الزعماء الاميركان ، مثلا ، في سياسة الحرب فليس ذلك بدون وعي منهم بل هم يريدون اعادة علاقات الانتاج الرأسمالية حيثما حلت محلها علاقات اشتراكية، كما انهم يريدون ، بقضائهم على قوى الانتاج، اعاقة ازدهار هذه القوى لأنه يضر بمصالحهم .

ولكنــه من المفهوم أيضاً ان ارادة الناس لا يمكن ان تعمل إلا في حدود عصرهم الموضوعية. فهم لا يستطيعون اعادة قوى الانتاج إلى مستوى عصر القوافل، بالرغم من القول الرجعي الذي يدعي : « ان الناس ربما لم يكونوا فيــه اسوأ حالا ». كما ان القدرة الفعلية على تغيير علاقات الانتاج لا توجد دائماً بل هي تتعلق بحالة قوى الانتاج وطبيعتها . ويردد الرأسماليون ان بناء الاشتراكيــة مستحيل وان هذه التجربة ستفضي الى الجوع ، الخ .. ربما صح ذلك في عام ١٨٨٤ ، ولكن ذلك لا يصح متى ما أصبح باستطاعة المجتمع ان يقيم قوى الطاقة والصناعة الهائلة في القرن العشرين .

ولقد برهنت التجربة على ذلك فإذا بالرجفة تعتري الرأسماليين حين رأوا أنــه يمكن منذ الآن بناء الاشتراكية، واخيراً تتعلق قدرة الناس بطابع علاقات الانتاج أيضاً : وذلك لأن عمل الطبقات ، في مجتمع منقسم إلى طبقات متعادية ، التي يهمها الملائمة بين علاقات الانتاج وقوى الانتاج ، يصطدم بالعديد من العراقيل ، وليس الحال كذلك حينما يخلو المجتمع من طبقة زائلة يمكنها تنظيم المقاومة .

لا يمكن لارادة الناس ، وهي العنصر الذاتي ، ان تكون مجدية إلا إذا كان هدفها تسهيل تطبيق القانون الموضوعي . فالارادة التي تأبى الاعتماد على الواقع الموضوعي هي عكس الارادة . وليست الارادة سوى مجرد كلمة إذا ما تجاهلت قدرتها .

ويلح ستالين على أهمية عمل الناس فيقول :

« استخدمت البورجوارية ، في عصر الثورة البورجوازية ، في فرنسا ، مثلا ، ضد الاقطاعية قانون الترابط الضروري بين علاقات الانتاج وطابع قوى الانتاج ، فقلبت علاقات الانتاج الاقطاعية ، واوجدت علاقات انتاج جديدة ، بورجوازية ، وجعلتهـا تتلاءم مع طابع قوى الانتاج ، التي نمت داخل النظام الاقطاعي . ولم تفعل البورجوازية ذلك بسبب مشاكلها الخاصة بل لأنهـا كانت ترى في ذلك مصلحة لها . وعارض الاقطاعيون ذلك لا عن غباء بل لأنه كان يهمهم الحيلولة دون تطبيق هذا القانون[1].

ويلاحظ ستالين ، في مكان آخر ، انه إذا كان السوفيات قـد وفقوا ببناء الاشتراكيه فليس ذلك لأنهم قضوا على القوانين الاقتصادية الموجودة « وأوجدوا بدلا منها قوانين جديدة » بل لأنهم اعتمدوا على قانون الترابط الضروري الاقتصادي بين علاقات الانتاج وطابع قوى الانتاج[2] .

وإذا كانت البورجوازية قد استخدمت جميع الوسائل لمقاومة تطبيق هـذا

(١) راجع ستالين : « مشاكل الاشتراكيـة الاقتصادية في الاتحاد السوفيـاتي » ص ١٣٧ — ١٣٨ .

(٢) راجع ستالين : نفس المرجع ، ٣ أ ص ٢٠

القانون فلانه كان يهمها عدم تطبيق هذا القانون .

نخلص إلى القول إذن ان عمل الانسان، الذي يستخدم القوانين الاقتصادية لمصلحة النمو الاجتماعي ، يجري في جميع التشكيلات الاقتصادية حسب الظروف . ولكن النتائج تكون اسرع حينما يكون هذا الاستخدام علميا ، ولا يلقى مقاومة أية طبقة . وهذا ما يحدث في النظام الاشتراكي .

ونلاحظ أيضاً ان استخدام القوانين الاقتصادية ، في مجتمع طبقى ، له دائماً دوافع طبقية، وان طبقة الطليعة هي التي تدعوا دائماً إلى استخدام القوانين الاقتصادية لخدمة النمو الاجتماعي ، بينما تعارض الطبقات الزائلة ذلك ، مهما كانت نتائج ذلك بالنسبة لسائر المجتمع ؛ فتصبح بذلك عدوة المجتمع وتنطوي على كبريائها الطبقي .

ومما يميز البروليتاريا عن بقية الطبقات التي قلبت في الماضي علاقات الانتاج هو انه لا يمكنها بطبيعتها تطبيق قانون الترابط الضروري ، دون ان تقضي على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج أي على كل صورة للاستغلال . تتفق إذن مصالحها الطبقية مع مصلحة الانسانية الكادحة ومع مصلحة جميع المستغَلين والمضطهدين .

نستخلص من دراستنا فكرة ماركسية رئيسية من أجل عملنا وهي ان الناس يصنعون تاريخهم بأنفسهم ضمن ظروف معينة تحددعملهم ولهذا يجب تقديرها . وهذه حقيقة أبدية . لأن صنع التاريخ هو التغلب على مقاومة الطبقات الرجعية التي تعارض التغيرات الضرورية في عالم الانتاج .ولهذا فإن صنع التاريخ مهمة المستغَلين والمضطهدين لأن التاريخ هو تاريخ منتجي المواد المادية، والجماهير المضطهدة المستغَلة هي التي تصنع التاريخ ، فالشعب هو الخالق الحقيقي للتاريخ .وتتضح هذه الحقيقة

الأبدية في ظل الرأسمالية . ذلك لأن الرأسمالية، بامتدادها إلى أنحاء العالم اجمع واستغلالها لأغلبية سكان بلد من البلدان ، واستعبادها شعوب البلاد الأخرى، قد حركت، في مرحلتها الأخيرة، جماهير من الشعب أوسع من الجماهير التي حركتها النظم السابقة . وان عصر الثورة البروليتارية وتحرير الشعوب المستعمَرة هو عصر تظهر فيه الجماهير العالمية علي مسرح التاريخ . وعمل الجماهير وحدههو الذي يستطيع القضاء على مقاومة الرأسماليين. فلقد انتصرت هذه الجماهير عام ١٩١٧ في بتروجراد في موسكو ، كما انتصرت عام ١٩٤٩ في نانكين وشنغاي . ولا يخشى الماركسي ، على عكس الرجعيين الذين يخشون الجماهير، وصغار البورجوازيين الذين يقدمون « العقل » و « التفكير » على عمل الجماهير ، عمل الجماهير . بل هو يسير ، على العكس ، في مقدمتها،لأن الاشتراكية البروليتارية ليست مجرد عقيدة فلسفية، بل هي ، حسب قول ستالين : عقيدة الجماهير البروليتارية ، و « شعارها » ، فهو يثق ثقة لا تتزعزع بالجماهير وفعلها لأنه يعلم أنها متى تحركت اسرع التاريخ في سيره ، كما يعلم أن نضال الطبقات هو محرك التاريخ .

الدرس السابع عشر

نضال الطبقات قبل الرأسمالية

١ ـ اصول المجتمع .
٢ ـ ظهور الطبقات .
٣ ـ مجتمعات الرقيق والاقطاع .
٤ ـ تطور البورجوازية .

عرضنا لقانون الترابط الضروري بين علاقات الانتاج وقوى الانتاج . ونعلم من جهة ثانية ان علاقات الانتاج، حين تعتمد على الملكية الخاصة، تمتاز بالاستغلال الطبقي ، أي بالنضال الطبقي . على هذا الشكل يظهر عمل الناس في التاريخ بصورة تلقائية .

ويجب الآن ان نبتعد عن خطأين : الاعتقاد انه ، لما كان هناك قانون ضروري مشترك بين جميع المجتمعات ، فإن عمل الناس لا فائدة منه ولا تأثير له في التاريخ ، وفي تغير الأساس الاقتصادي للمجتمعات ؛ ـ او الاعتقاد، عكس ذلك، وهو ان النضال الطبقي يمكن أن يقوم بكل شيء وفي كل زمان .

تريد الطبقات المستغَلة ان تقضي على الاستغلال . ولا يمكن هذا إلا في

مستوى معين لنمو قوى الانتاج . ولهذا لم يفض نضال الطبقات المضطهدة ، حتى عهد الثورة البروليتارية ، إلا الى تغيير نظام الملكية الخاصة ، واحلال صورة للاستغلال محل صورة أخرى .

يعكس نضال الطبقات التناقض الأساسي الموجود في علاقات الانتاج بين المستغلين والمستغَلين ، ولكن لا يمكن لهذه النتائج ان تتخطى ما يسمح به قانون الترابط الضروري بين علاقات الانتاج وبين قوى الانتاج في وقت معين .

غير أن نضال الطبقات يتخذ اهمية كبرى حين يوجد الاستغلال كمنهج لتطبيق قانون الترابط الضروري . وبهذا المعنى فقط يصبح محرك التاريخ .

وسوف ندرس في هذا الدرس هذه الجدلية في مراحل نمو المجتمعات الكبرى .

١ - أصول المجتمع (١)

ليس هناك ما هو أشد اختلاطاً واضطراباً من تفاسير المثاليين فيما يتعلق بالتقنيات الاجتماعية الأولية . وإذا ما ضربنا صفحاً على اسطورة آدم وحواء فإن أكثر النظريات شيوعاً تلك التي تعتبر العائلة كأنها خلية بدائية للمجتمع . بينما العائلة ، في الحقيقة ، هي مؤسسة اجتماعية يتعلق نموذجها بعلاقات الانتاج السائدة ، أما علماء الاجتماع البورجوازيون فهم لا يهتمون بسوى التقنيات والمعتقدات البدائية فإذا بهم موزعون بين النزعة المادية الميكانيكية وبين النزعة المثالية . يضاف الى

(١) راجع فيما يتعلق بدراسة الاقتصاد بصورة تفصيلية منذ القدم حتى ظهور الرأسمالية : ج ، بابي . « اصول الاقتصاد السياسي » الجزء الاول . المطبوعات الاجتماعية باريس ١٩٤٩

ذلك أنهم ينظرون للنمو الاجتماعي من خلال امتداد « حجم » المجتمع . فهم يرون في ذلك انتقالا « من القبائل الى الأمبراطوريات » .

والماركسية وحدها تعطينا تعريفاً علمياً للمجتمعات البدائية حين تدلل على أن لها أساساً اقتصادياً ككل مجتمع .

فلقد كانت قوى الانتاج، في ذلك العصر، ضعيفة في نموها . ولم تكن الآلات الحجرية والوتر والقوس،التي ظهرت فيما بعد وأصبحت السلاح القاطع ، قوية بالقدر الذي يسمح للانسان بالنضال لوحده ضد قوى الطبيعة والحيوانات المفترسة.فحاول الناس ، إذن ، مجابهة هذا الوضع بتوحيد قواهم ..

كان على الناس، كي يجنوا الثمار في الغابات، ويصطادوا السمك، ويبنوا المسكن ان يعملوا سوية ، إذا لم يريدوا الموت جوعاً ، أو أن يصبحوا فريسة للحيوانات المفترسة أو القبائل المجاورة[1] .

وكانت نتيجة هذه الحالة ان اصبحت ملكية وسائل الانتاج واراضي الصيد ، مثلاً ، وكذلك ملكية المنتوجات، مشتركة أيضاً بين جميع أفراد المجتمع،ولم يبق سوى بعض آلات الانتاج ، التي هي في نفس الوقت اسلحة للدفاع ضد الحيوانات المفترسة ، ملكية فردية للذين صنعوها .

وهكذا تتعلق ملكية وسائل الانتاج الجماعيـة بطابع قوى الانتاج وتكون الأساس الاقتصادي لهـذا التكون الاجتماعي الذي يسمى بالكومون البدائي .
« la Commune primitive »

---

(١) راجع ستالين : « النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية » ، أ ، ص ١٩

يولّد هـذا الأساس الاقتصادي بدوره خواص فكرية مهمة : فإن الشعور بالملكية الفردية والتفكير بها لم يوجدا بعد . كما ان الحقـد الطبقي غير موجود لعدم وجود الطبقات والاستغلال الطبقي ، نرى ، إذن ، أنـه على عكس ما يقوله المثاليون فإن الشعور « بما يخصني » و « يخصك » ، وأن الحقد والكبرياء ليست عواطف أبدية خالدة في الطبيعة الانسانية ، بل هي منتوجات تاريخية تتولد من الملكية الخاصة . ويمتاز الانسان البدائي بالاخلاص لمصالح القبيلة ، والوفاء والثقة نحو سائر اعضاء القبيلة ، ومن هنا نشأت خرافة « الفردوس المفقود » . ولكن هذه « الفضائل » لم تكن نتيجة للطبيعة الطيبة » العزيزة على نفس روسو بل كانت تعكس الأساس الاقتصادي ، كما كانت شرطاً ضروريا للانتصار على القوى المعادية التي كانت تجاور القبيلة . وكان الانسان البدائي يعيش ، في نفس الوقت ، فريسة الرعب والجهل لهذه القوى المعاديـة ، ولهذا كان يعيش في جو من الخرافات .

ومن خصائص الشيوعية الأولية اعترافها بدور المرأة الكبير ؛ ولم يكن عدم المساواة بـين الرجل والمرأة إلا في تقسم العمل بينهما ، ولم يكن يعترف إلا بنسل المرأة لوحدها . فكانت المرأة تشرف على التربية كما كانت نصائح الجدة نافذة . ذلك كان عهد سيطرة الأم . (le matriarcat)

٢ - ظهـور الطبقـات

فما الذي أدّى إلى انحطاط الكومون البدائي ، وظهور الطبقات ؟ ليست هي طبيعة الانسان الشريرة كما تدعي النزعة المثالية بل هو نمو قوى الانتاج كما تقول الماركسية .

والواقع أنه يجب على المجتمع أن يمتلك من الخيرات المادية اكثر مما كانت الكومون البدائية تمتلك من مصادر ضئيلة كي يستطيع الانسان الحصول على هذه الخيرات بصورة خاصة . فلقد كانت هذه المصادر الضئيلة لا تكاد تسمح للمجتمع بالعيش . ولهذا كان الاحتكار، في مثل هذه الظروف، حكما على الآخرين بالموت. لم يكن ذلك في مصلحة احد لأن النضال المشترك وحده يساعد على مواجهة الأخطار المتعددة . ولكي توجد امكانية الاحتكار فإنه يجب ان يكون لدى أعضاء المجتمع ما يقتاتون منه وان يوجد لديهم فائض، أي ان تكون قوى الانتاج قد تقدمت .

ولقد تم تقدم قوى الانتاج (راجع الدرس الخامس عشر، المسألة ٢، أ) داخل الكومون البدائية، التي كانت تسهل آنذاك، إلى أقصى حد، النضال ضد الطبيعة . وكانت المراحل الأساسية هي : تأليف الحيوانات بفضل القوس والسهام وتقسيم العمل بين الرعاة والصيادين البدائيين ؛ ثم الانتقال الى الزراعة بفضل الآلات المعدنية كفأس الحديد وسكة المحراث ثم التفريق بين المهن والزراعة ؛ يضاف الى ذلك ان صناعة الخزف كانت تساعد على الاحتفاظ بالمؤن .

كان لهذا التقدم نتائج عظيمة . فلقد وفرت تربية الحيوانات والزراعة مصادر اكثر انتظاماً وغزارة مما يوفره الصيد البري .

كما ان تأليف الحيوانات جعل للانسان وضعاً اقتصادياً مفضلاً . فاستطاع ان يقلب القانون الوراثي وان يقيم النسب الأبوي .

كان قلب القانون الأموي[1] اكبر انهزام تاريخي للجنس الانثوي . فاستولى الرجل على السلطة حتى في البيت ؛ وتخلت المرأة عن مكانتها واستعبدت حتى أصبحت أسيرة لذة الرجل ومجرد وسيلة للتناسل . هذا الوضع الشائن للمرأة كما

(١) نسبة الى الأم . (المعرب)

يظهر لا سيما عند اليونان في عصر البطولة وفي العصر الكلاسيكي،بالرغم من جميع المحاولات لاخفائه أو التقليل من حدته، لم يقض عليه قط[1] .

ولقد حفظت لنا خرافة الامازون ذكرى الوان من النضال البطولي قامت به قبائل تخضع لسيطرة الأم وقد نجحت في كبت الجماح ضد قبائل يسيطر عليها الرجال .

ولم يعد للعمل ، بعد ظهور تربية الحيوانات والزراعة ، الحاجة المباشرة بل أصبح ينتج فائضاً : فيصبح التبادل ضرورياً وممكناً كما تتوفر امكانية تجميع الثروات .

يملك الناس الآن ، بدلا من الآلات الحجرية ، آلات معدنية .وأخيراً نرى ظهور تربية الحيوانات والزراعة ، والمهن ، وتقسيم العمل بين مختلف فروع الانتاج عوضاً عن اقتصاد لا يتعدى الصيد البري البدائي ، ولا يعرف تربية الحيوانات أو الزراعة . كما ظهرت امكانية تبادل المنتوجات بين الأفراد والجماعات ، وامكانية تجميع الثروات في أيدي فئة قليلة[2] .

أصبح العمل الانساني يوفر فائضاً عن الاستهلاك الأدنى، ولهذا أصبح من المصلحة ضم قوى جديدة للعمل . كان اسرى الحرب ، في العصر السابق ، أفواها غير مجدية، لأن العمل لم يكن يكاد يوفر قوت صاحبه .ولهذا لم يكن من المصلحة الاستيلاء على أسرى حرب بل القضاء على القبيلة المعادية التي تحتل أرض الصيد . أما الآن

---

(١) راجع انجلز : اصل العائلة ، والملكية الخاصة والدولة ، ص ٥٧ المطبوعات الاجتماعية باريس ١٩٤٥ .

(٢) راجع ستالين : النزعة المادية والنزعة المادية التاريخية ج ٣ ، ص ٢٤ .

فإن عمـــل الاسير يمكنه أن يوفر فائضاً، فـكان من الطبيعي استخدامه، فأصبح الاسير رقيقاً .

جعل نمو الانتاج، في جميع الفروع ـ كتربية المواشي ، والزراعة ، والصناعة البيتية ـ لقوة العمل الانسانية المقدرة على انتاج اكثر مما يلزم لمعيشتها ، كما أنه زاد ، في نفس الوقت ، مقدار العمل اليومي الواجب على كل عضو من العائـــلة[1] (gens) أو الجماعة البيتية أو العائلة الزواجية. ولهذا أصبح من المستحسن الاستعانة بقوى جديدة للانتاج . وجاءت الحرب بهذه القوى الجديـــدة : إذ تحول أسرى الحرب إلى ارقاء .

ولقد أدى التقسيم الأول الكبير للعمل ، في الظروف التاريخية المعينة ، بزيادته لانتاج العمل ، أي للثروة، وتوسيعه لميدان الانتاج، إلى الرق حتما. فنشأ عن التقسيم الأول الكبير للعمل التقسيم الأول الكبير للمجتمع إلى طبقتين : الأسياد والعبيد ، المستغلين والمستغَلين .

وصلنا الآن إلى عتبة المدنية ... لم يكن الناس، في الدرج الأسفل، ينتجون الامباشرة من أجل حاجاتهم الشخصية. وكان التبادل، الذي يجري بالمناسبة، منعزلا، ولا يتعلق إلاّ بالفائض الذي يزيد صدفة[2] .

وقد أصبح انتاج الفائض ، من ثمَّ ، منظما . وأصبح بعض الارقاء ملـكا جماعياً للذين اسروهم ، كما أصبح بعضهم مالـكا خاصاً . ولم يكن الارقاء ، على كل حال ، يملكون شيئاً : فظهرت الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، ومن ثم انقسم المجتمع إلى

---

(١) العائلة البطريركية (patriaucale)

(٢) راجع انجلز . نفس المرجع ص ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥١

طبقات ، وزالت الشيوعية البدائية ، كما تغير أساس المجتمع الاقتصادي . تم كل ذلك حسب متطلبات قوى الانتاج الجديدة ، وتحسين التقنيات داخل الكومون البدائية ، بدون إرادة الناس .

حينما أخذ بعض أعضاء الكومون البدائية بالانتقال تدريجياً من الآلات الحجرية إلى الآلات الحديدية، كانوا يجهلون النتائج الاجتماعية التي يفضي اليها هذا التجديد . ولم يكونوا يفكرون بذلك .

ولم يعوا ذلك ، ولم يكونوا يدركون ان استعمال الآلات المعدنية يعني ثورة في الانتاج، وأنه سيؤدي بالنهاية إلى نظام الرق . لم يكونوا يريدون سوى مجرد جعل عملهم أسهل، وان يحصلوا على فائدة مباشرة محسوسة ؛ فكان نشاطهم الواعي ضمن نطاق هذه الفائدة الشخصية اليومية الضيق[٢] .

تركت نهاية العصر البدائي ومطلع عصر الرق آثاراً عميقة في مخيلة الناس . ولما كانوا لا يدركون ضرورتها الموضوعية، رأوا فيها انتقاما إلهياً، وفقداناً « للبراءة » الأولية ، وثمرة « للشر » و « الكبرياء » ، والشيطان . وهكذا صيغت « الفضائل » القديمة في أفكار ، تولد عنها العديد من الموضوعات الأخلاقية . فاستمرت ذكرى وجود المرأة القديم في اسطورة سيبيل (Cybèle) الهة الخصب . كما نعى الانجيل « سقوط » الانسان ، كما تغنى الشعراء القدامى أمثال هزيود وأوفيد « بالجيل الذهبي » الذي تنبأ المأثور بعودته المحتومة .

وإذا كان العصر البدائي لم يعرف ضروب النضال الطبقي ، التي مزقت المجتمع في العصر التالي ، فلقد عرف حالة الانسانية البائسة ، التي كانت فريسة للاخطار

(٢) راجع ستالين : النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية ٣ ، ب ص ٢١ .

الطبيعيــة المتعددة . وانه لمن السخرية ان لا نعترف بأن الرق ، الذي ظهر على أساس نمو قوى الانتاج ، قــد انتزع القبائل المتأخرة تقنياً من الحالة التي كانت تتخبط فيها، فكان بذلك خطوة إلى الأمام.

يجب، اذن، ان لا نجعل من العصر البدائي العصر المثالي. لانه كان لابد من ظهور الطبقات الذي يجعل نمو الانتاج ممكنا . ومع ذلك لا يجب ان ننسى أنه يفتتح هذا العصر الفريد من تاريخ الانسانية حيث نجد ، حسب قول انجلز ، ان كل خطوة الى الأمام ينتج عنها خطوة الى الوراء . لأن كل ازدياد في الانتاج والرفاهية والمدنية عندفريق من المجتمع يشترط ازدياد استغلال سائر اعضاء المجتمع وازدياد شقائهم.

وقد غير مجتمع الطبقات نفسية الانسان تغييراً قوياً ، ولهذا لم يكن روسو مخطئاً حينما جعل « المجتمع مسؤولا » عن « فساد الطبيعة الانسانية » إذ أن نتيجة استغلال الانسان للانسان حرمان المستغَل من الحصول على ثمرة عمله. وهكذا يُفصل الانسان عن عمله . ويحرمه المستغِل من عمله ويستولي على هــذا العمل . فإذا ما 'فصل الانسان عن عمــله ، 'فصل بذلك عن نفسه، لأن النشاط الانتاجي والمبادرة المبدعــة إنما هما من خصائص الانسان التي تجعله انساناً وتميزه عن الحيوان، وبينما يحرم المستغَل مما انتجه يستولي المستغِل عــلى ما لم ينتجه. وهكذا ينفصل الوعي عن نفسه، لأنه لا يمكنه تحقيق غاياته بحريــة ، كما ان وعي المستغِل ينفصل عن نفسه، لأن الكذب قد حل فيه، ولانه لا يمكنه الاعتراف بغاياته بحرية . وكل من هذين الوعيين يعكس بطريقته الاستغلال . هذا الانقسام في الوعي على نفسه، هو ما يسمى بفقد « البراءة البدائية » أو ما سماه هيجل : « مصيبة الوعي ». وهكذا ينعكس ظهور الطبقات، والاستغلال ، وانقسام الانسانيــة إلى جماعات متناقضة ، في هذا الانقسام العميق الاساسي للوعي الانساني الذي يتوزع من تلقاء نفسه الى نزعات تتناقض بشدة .

وبدلا من ان يكون الانسان نفسه غاية نشاطه المنتج ، فإننا ، نجد علـى العكس ، ان الغايـة والوسيلة منفصل كل منها عن الآخر. وذلك لأن الفئة التي تكون وسيلة الانتاج في المجتمع ، (وهي الاكثرية) ليست غاية هذا الانتاج ، بل ان غاية هذا الانتاج (وهي الاقلية) ليست وسيلة .

يفسر هذا التناقض انحطاط الطبقات المستغِلة الأخلاقي، متى ما لم يعد نظامهـا الاستغلالي يتفق وحاجات نمو قوى الانتاج . وكلما ازداد الاستغلال زاد التفسخ في عالم المستغِلين . فيظهر عندئذ ، بوضوح اشد ، طابع مجتمع الطبقات المفسد وضرورة الاصلاح .

مثال ذلك ان الفلاسفة ، في نهاية النظام القديم ـ وليس روسو وحده ـ قد قابلوا بمجموعهم « الفضيلة » بعيوب الارستقراطية الزائلـة . وصرح روبسبيير (Robespierre) انه يستعمل الرعب في سبيل خدمة الفضيلة. كما توخى كوندوسيه وغـيره من الثورة تجديـد الجنس البشري . فلم يعتم النظام الاداري أولا (Le Directoire)، ومن بعده النظام البورجوازي، ان خيبا الأمل مما ساعد على ظهور نزعة فورييه الخيالية .

وكان على ماركس وحده ان يدلل عـلى ان الإحياء لا يمكن ان يأتي من الدعاية الاخلاقية أو الفلسفية ، ولا من تشريع اسبارطي، ولا من ثورة عامـة ، بل من ازالة الاستغلال الطبقي. ذلك لأن نهاية النضال الطبقي، وانقسام الانسانية على نفسها، يستطيع اعادة الانسجام الى الانسان وحلول عهد الوعي السعيد ، غير أن إزالة النضال الطبقي لا يمكن أن تتم إلا بالاستمرار في النضال الطبقي حتى النهاية. ذلك لأن الثورة البروليتارية، ولا شيء غيرها ، هي التي تعيد إلى الانسانية وحدتها التي تتمثل في البروليتاريا والجماهير الشعبية . إذ يستعيد البروليتاريون

وحلفاؤهم ، في نضالهم الظافر ضد ظلم الطبقات المستغلة وانحطاطها ، الانسانية من أجلهم، ويحققون بذلك غاية الانسان . وهكذا تصبح الوسيلة مماثلة للغاية . يمكن الأمـــل في عمل الجماهير الشعبيـــة للاحياء لأن النضال وحده هو الذي يحول المناضلين .

ولهذا فإن الثورة الاشتراكية هي فجر الانسانية الحقة ، لأنها من عمل رجال جعلهم النضال الثوري يبلغون ذروة الانسانية . أما التعارض الميتافيزيقي ، الذي يحاول المفكرون البورجوازيون اقامته، بين غاية الثورة ووسائلها،فهو مجرد سفسطة. لأن عملية تحويل المجتمع الثوري هي عملية واحدة في جميع مراحلها. وتنمحي ، في ظروف نضال الجماهير الثوري، معالم سلب الانسان (aliénation) ومعالم الوعي الموزع ، والانسانية المفسودة ، كما تتأكد، في، ظروف هـــذا النضال، معالم انسان المستقبل ، الذي تطهر من عيوب مجتمع الطبقات . والدليل الحي عـــلى ذلك تضحية الثوريين .

٣- مجتمعات الرقيق والاقطاع

دللنا ، في درسنا لأصل استغلال الانسان للانسان ، بصورة بديهية،على طبيعة هذا الاستغلال : اذ يستولي صاحب وسائل الانتاج على الفائض، الذي يمكن ان تنتجه قوى الانتاج ، بالنسبة للحد الادنى الفردي لحياة العامل ، الذي حرم من ملكية وسائل ألانتاج متى بلغت قوى الانتاج مستوى معيناً في نموها :

يعرف التاريخ ثلاث صور لاستغلال الانسان للانسان : استغلال الرقيق ، الاستغلال الاقطاعي والاستغلال الرأسمالي . وسوف نتحدث بسرعة عن خصائص

الضربين الأولين . وسنخصص الدرس المقبل للحديث عن خصائص الضرب الثالث .

التناقض الخاص بعلاقات الانتاج في استغلال الرقيق هو التناقض بين طبقة الاسياد ، مالكي الرقيق ، وبين طبقة الارقاء . وليس نظام الرق ، الذي أوجده النضال والحرب، من أجل الحصول على الارقاء، سوى تسخير امرى الحرب ، ولهذا كان هذا النظام ، منذ بدايته حتى النهاية ، مسرح نضال طبقي مرير .

وملكية سيد الارقاء لوسائل الانتاج والعمل هي أساس علاقات الانتاج، وهي تتفق مع حالة قوى الانتاج . إذ يمكن للرقيق ، وهو أسير الحرب القديم ، ان يُشترى ويباع ويقتل كالحيوان ، فتتكدس وسائل الانتاج بين يدي اقلية ضئيلة . انتهى بذلك عهد العمل المشترك الحر ، ولم يبق سوى تسخير الارقاء من جهة ، وبطالة الاسياد الذين لا يهتمون بالانتاج ولا يرون وسيلة لزيادة الانتاج الا في زيادة عدد الارقاء . فسيد الارقاء هو المالك الأول الرئيسي والمالك المطلق .

يشعر الرقيق بالاستغلال شعوراً قويا : فهو يرى ان كل ثمرة عمله يستولي عليها سيده ؛ فلا يبقي له سوى جزء ضئيل يناله في صورة غذائه . غير ان صور نضال الارقاء بدائية : كالسلبية أمام التسخير، وهجر مكان السيد، وتنظيم عصابات قطاع الطرق وأخيراً الثورات الجماعية .

وقد نشأت داخل مجتمع الرقيق طبقات أخرى . فقد ظهرت طبقة العمال اليدويين حينما انفصلت المهن عن الزراعة ؛ ثم ولد ازدياد التبادل تبادل السلع .

ومن هنا نشأت تناقضات جديدة . ولما كانت طبقة التجار وسيطاً لا غنى عنه

بين منتجين ، فقد جُمعت بسرعة ثروات ضخمة ، وأصبح لها تأثير اجتماعي يناسب هذه الثروات . وأخذت تتنافس الملاكين لتوجيه السياسة حسب مصالحها الطبقية (كنضال « الديمقراطيين » ضد « الارستقراطيين » في اليونان (ونضال « plébéiens »ضد « patricieus » في روما) .

غير ان هذه التناقضات الثانوية لا يجب ان تخفي التناقض الأساسي : ذلك لأن الرق يساعد على زيادة الثروات ، والانتاج الذي تعيش منه التجارة . وتزيد زيادة الانتاج قيمة قوة العمل الانساني فيصبح من الصعب الاستغناء عن الرق الذي يصبح عنصراً أساسياً في النظام الاجتماعي .

لم يكن تناقض المصالح بين الاسياد والارقاء ليهدد نظام الرق طالما ان تقدم التقنيات فيه يجعل له أفضلية على القبائل المتأخرة التي كان يردها الى الرق . ولقد أصبحت علاقات الانتاج في نظام الرق ، بعد ان كانت القوة الرئيسية لنمو قوى الانتاج ،عوائق لقوى الانتاج. مثال ذلك أن هيرون الاسكندري اكتشف ، في القرن الثاني بعد المسيح ، مبدأ الآلة البخارية . ولكن لم يكن لهذا الاكتشاف نتائج عملية . لأنه كان من الأفضل الحصول على ارقاء جدد بدلا من ادخال التقنيات الجديدة التي يجعلها عمل السخرة لا فائدة منها . وأخيراً حل محل الأفضلية التقنية جمود التقنيات وتقهقرها .

كما أن الحصول على الارقاء كان يتطلب الحرب الدائمة ، وإلا كان لابد من تربية أطفال الارقاء للحصول على ارقاء جدد . وأخيراً انهارت دولة الرق القديم والامبراطورية الرومانية ، تحت ضربات البرابرة ، بعد فترة طويلة من النزع ، تشابكت فيها التناقضات الموضوعية وضروب النضال الديني والسياسي . انهارت الامبراطورية في الوقت الذي لم يعد نقصها التقني وتناقضاتها الداخلية ــ من اقتصادية وسياسية ــ

يسمحان لها بالانتصار على البرابرة ، والحصول بذلك على ارقاء جدد . لان نضال البرابرة ضد الدولة الرومانيــة لم يكن سوى نضال ضد استعبادهم . ولهذا كانت الامبراطوريــة الرومانيــة بفعل ، منطق نظامهـــا ، تحتل مركز المعتدي الدائم .

وهكذا افضى تناقض نظام الرق بهذا النظام الى الدمار، حينما أصبح هذا النظام نفسه مناقضاً لطابع قوى الانتاج . فكان لا بد من علاقات أنتاج جديدة لبناء الاقتصاد من جديد : فنمت هذه العلاقات الجديدة على انقاض عهد الرق ، وكان النظام الاقطاعي .

يمثل النظام الاقطاعي تطوراً في الملكية الخاصة . وأساسه الاقتصادي هو ملكية السيد الاقطاعي لوسائل الانتاج ، وكذلك ملكيته المحدودة للعامل القن . لم يعد بإمكان الاقطاعي ان يقتله وان كان يمكنه ان يبيعه أو يشتريه . ولا يملك القن ، سواء كان فلاحا أو عاملا يدوياً ، شخصياً إلا آلاته وما اقتصده على أساس العمل الشخصي ، وهكذا يمكنه ان يكون عائلة ؛ ولهذا فإن الحصول على الاقنان يتم بوراثـــة الرق . وتتفق علاقات الانتاج هذه مـــع حالة قوى الانتاج .

يقوم جوهر الاستغلال هنا أيضاً على أن السيد الاقطاعي يستولي بصفة خاصة على فائض انتاج القن . كان يعمل القن ، مثلا ، ثلاثــة أيام لنفسه وثلاثــة أيام للسيد . ولايكاد الاستغلال يقل بالنسبة لعصر الرق ؛ كما ان كلمة « قن » نفسها مشتقة من لفظ لاتيني يعني « الرقيق » (servus) ويتمتع السيد بجميع الحقوق . لأن السيد ينهب قيونه طالباً اليهم تقديم تضحيات ضخمة ، زاعماً انه « يحميهم » من غزو الاسياد المجاورين . وتظل صور نضال القيون بدائية : كالهرب من منطقة

السيد ، وتنظيم العصابات في الغابات ، والقيام بالثورات لمحاولة القضاء على السجلات التي سجل عليها السيد ما يتوجب عليهم .

وينزل الاضطهاد بالقيون[1] (gacques)•ويستمر النضال الطبقي بين الملاك الاقطاعيين والقيون — وهو انعكاس للتناقض الخاص بعلاقات الانتاج الاقطاعية — من بداية النظام حتى نهايته . يضاف الى ذلك ان هـذا التناقض ينمو في صورة جديدة تكون بداية منازعات جديدة : إذ تولد فئـة القيون، التي مارست الصناعة اليدوية ومن ثم التجارة، طبقة جديدة . ويزداد تناقض المصالح بين هؤلاء « البورجوازيين » وبين الاقطاعيين . إذ يجب على هذه البورجوازية الفتية ان تنمي قوى الانتاج ، وان تكون قوة اقتصادية جديدة . وتصبح علاقات الانتاج الاقطاعية ، التي كانت في البدء مطابقة لطابع قوى الانتاج ، عامل تأخر،فتتحول الى عوائق لهذه القوى . ويبدو التناقض بين البورجوازية والاقطاعية ، بعد أن كان ثانويا،قد تولد عن نمو قوى الانتاج، داخل نظام الرق،فيظهر على المسرح ليقوم في النهاية بالدور الرئيسي .

ذلك لأن نضال القيون القرويين يفضي الى بعض التحسن في مصيرهم لخوف الاقطاعيين من أن تجد البورجوازية فيهم حلفاء لها . ولكن هذا النضال لا يستطيع بنفسه ان يؤدي الى تصفية علاقات الانتاج الجديدة، لأن قوى الانتاج الجديدة لم تكن تنمو في القرية بل في المدينة . ولقد قضت الثورة الديمقراطية البورجوازية على نظام القين . ولم يختف

---

(١) اقرأ بروسبير مريميه : (La jocquerie) مقدمة اراجون . المكتبة الفرنسية ، وانجلز : « حرب الفلاحين » في « الثورة الديمقراطيـة البورجوازيـة في المانيا » المطبوعات الاجتماعية .

التناقض الخاص بعلاقات الانتاج الاقطاعية إلا متى تناقضت هذه العلاقات نفسها تناقضاً شديداً مع طابع قوى الانتاج الجديد . ذلك لأن النمو الاقتصادي الجديد بحاجة لعلاقات انتاج جديدة ، فارتفع بناء الرأسمالية على انقاض النظام الاقطاعي .

٤ ـ تطوّرُ البُورجُوازيَّة

نستطيع ان نلاحظ بأن قوى الانتاج الجديدة ، التي ستؤدي الى علاقات انتاج جديدة ، لا تظهر خارج النظام القديم بعد زواله ، بل هي تظهر ، على العكس ، داخل هذا النظام . إذ يعمل كل جيل ، في الواقع ، لتحسين التقنيات الموجودة التي تفيده مباشرة ، وذلك لانه يجب عليه أن يتلاءم مع ظروف الانتاج الموجودة التي ابدعها عمل الأجيال السابقة . يضاف الى ذلك أن كل جيل لا يعي النتائج الاجتماعية التي يمكن ان يؤدي اليها تحسين قوى الانتاج على مر الأيام ، فهو لا يفكر الا بمصالحه اليومية . ولا تدرك الطبقات الحاكمة الخطر إلا بعد مضي فترة من الزمن ، فتوقف تقدم قوى الانتاج . وهكذا يندفع كل جيل في سلسلة من الأسباب والنتائج التي لا يسيطر عليها . وليست علاقات الانتاج الجديدة نتيجة عمل واع يقوم به الناس ؛ بل هي تنبعث ، على العكس ، من تلقاء نفسها ، مستقلة عن وعي الناس وارادتهم . وهي ليست اعتباطية ، بل تنبعث ضرورتها من ظروف النظام القديم التقنية والاقتصادية . وتلك خاصية مهمة لجدلية طرق الانتاج . إذ أن ما يحدد طريقة الانتاج انما هي علاقات الانتاج المسيطرة . ولنمعن النظر في تطور البورجوازية التي عاشت سبعة قرون داخل نظام الاقطاع .

كان الانتاج ، في البداية ، ضعيفاً ، وكان يُستهلك محلياً . وكان التبادل

قليلاً ، وكنا نشعر بسيطرة القرية على المدينة الخاضعة للاقطاعيين ، ثم ظهرت في المدن ، حوالى القرن الثاني عشر ، بفضل تقدم المهن الذي يسره نظام القن نفسه ، ظواهر جديدة : إذ ظهر فائض الانتاج في السوق. ومن هنا نشأت الأسواق (les foires) ، ونشأت معها طبقة تخصصت في بيع السلع وشرائها : وهؤلاءهم التجار طلائع البورجوازية .

وكان انطلاق البورجوازية هذا مصدر الحركة المسماة: «الكومونال» (Commnnal) وهي أول صورة لنضال البورجوازية الطبقي ضد الاقطاعيين . فقد كان السيد يطلب بدلا من عتق القن حقوقاً تدفع (en espéces) ؛ وكذلك اشترى البورجوازيون ، بنفس الطريقة، حقوقاً سياسية مختلفة كبناء الاسوار حول مدنهم، اوسك العملة، أو بناء السجون أو تكوين مليشيا حربية، وانتداب ممثلين منتخبين، أو إقامة مركز بلدية مع برج محصن(beffroi).وكان الملك يقف الى جانبهم ضد الأسياد اعدائه مقابل قرضه المال الضروري لتقوية الدولة الاقطاعية وتسيير شؤونها .

وقامت الحرب الصليبية بتنمية البورجوازية التجارية بفتحها طريق المتوسط. كما نمت في نفس الوقت طبقة اصحاب المصارف(في فلورنسا).

ولقد دلت حرب المئة عام على عجز الاقطاعيين[١] الحربي ، كما دلت على نهضة البورجوازية الانجليزية والبلجيكية على يد بائع الأقمشة ارتيفلد (Artevelde) وزميله أتيين مارسيل (Etienne Marcel) . ولقد انحط التقدم التقني الحربي بالأسياد، إذ بلغ من غلاء الأسلحة النارية ان الملك وحده يستطيع شراءها بأموال التجار التي كان يقترضها .

---

(١) قام الملك جان في اليوم السابق على معركة بواتييه بتجريد الكومونات من السلاح .

حدثت الاكتشافات الكبرى، في نهايـــة القرن الخامس عشر، وكانت تهدف للاستيلاء على الذهب . كما كان لتدفق الذهب على السوق الاوروبي نتائج مدهشة : إذ تكونت سريعاً ثروات ضخمة ، وارتفعت الاسعار ، وافلس الأسياد. وأصبحت العائلات البورجوازيـــة الكبيرة كعائلة المدتشي (les Médecis) ، ملوك العصر الحقيقيين الذين يملكون سلطة بحسب حسابها . وقد منحت الملكية البورجوازية مقابل المساعدة المالية التي كانت تتلقاها منها بعض الاحتكارات :

أصبح من الممكن عندئذ ظهور الصناعة اليدوية (Manufacture)، لوجود رؤوس الأموال التي تكدست في العصر السابق، ولأن ازدهار التجارة قد بلغ حداً أصبح معه الانتاج اليدوي ، الذي يمتاز به عهد الاقطاع ، لا يكفي. وهكذا تم الانتقال من ال (artisauat) إلى التجارة ومن التجارة إلى الصناعة اليدوية(Mamadiur)، فتحققت بذلك خطوة جديدة قامت بها قوى الانتاج. وأصبحت المراكز التجارية مراكز للصناعة اليدويه مثال ذلك صناعة الحرير في ليون .

وتقوم الصناعة اليدوية (Mmfatcne) على تجزئـــة صنع منتوج إلى مهمات جزئية يقوم بها عمال مختلفون . يعنى ذلك امكانية زيادة الانتاج من أجل التجارة وزيادة رأس المال . فأصبحت التجارة غاية توجد لنفسها وسائل جديدة بعد ان كانت وسيلة . وهكذا ظهرت البورجوازية الصناعيـــة، وسط المجتمع الاقطاعي . كما ظهرت معها طلائع البروليتاريا . فحلت « العصور الحديثة » محل « القرون الوسطى[1] » فكان ذلك بداية علاقات جديدة للانتاج تمتاز باستغلال الرأسمال لبروليتاريا مأجورة . وقد تكونت هذه البروليتاريا من الفلاحين المفلسين ، بعد أن وطردوا من أراضيهم، ومن الصناع اليدويين الذين قضت عليهم المضاربة، ومن مرتزقة

(١) ليس لهذين التعبيرين سوى معنى علمي ضعيف جدا بيد أنهما يدلان على تغير حقيقي .

(Marcairs) الاقطاعيين ، الذين لا عمل لهم ، ومن جميع الذين يفرون من الاضطهاد الاقطاعي، فقد كانوا أحراراً ولكنهم جميعاً لا يملكون وسائل الانتاج ، فاضطروا ، كي لا يموتوا من الجوع ، إلى بيع قوتهم العملية إلى البورجوازي ؛ لأن البورجوازي ، الذي ولد نفسه من الانتـــاج التجاري ، يعتقد ان كل شيء يُشترى ويُباع .

تتطلب قوى الانتاج الجديدة من العمال أن يكونوا أشد ثقافة وذكاءً من القيون الجاهلين ؛ وان يكونوا قادرين على فهم الآلة، وان يعرفوا كيفية إدارتها كما يجب. ولهذا يفضل الرأسماليون التعامل مع عمال مأجورين متحررين من قيود القينونـــة (seige) ذوي ثقافة كافية لادارة الآلات كما يجب[٢] .

فقد ساعدت علاقات الانتاج الجديدة على نمو قوى الانتاج التي تزيد الربح . وتم الانتقال من الصناعة اليدوية الى الصناعة الآليـــة ، ومن ثم إلى نظام الآلات بواسطة الآلة البخارية، وبعد ذلك الى الصناعة الآلية الضخمة الحديثـــة. وفي القرن الثامن عشر وقعت « الثورة الصناعية » التي وصفها ماركس بقوة في الجزء الاول من « بيان الحزب الشيوعي » .

كان من نتيجة ظهور هذه العلاقات الجديدة للانتاج ان بدأ النضال الطبقي ضد الاقطاعيين . ولقد عرف هذا النضال تطوراً طويلا منذ المعارك الأولى من أجل العتق (franlises) .

وقد عبرت النهضة عن ذلك. فتصدت البورجوازيـــة للكنيسة، وهي حليف الاقطاعية الروحي ، معتمدة على النظريات الفكريـــة في العصر القديم . وأخذت تمجد الطبيعة ، والعلم ، والعقل ، وقوة التفكير الانساني على يد ليونار دي فنشي

(١) راجع ستالين : النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية ، ٣ ج ، ص ٢٦ .

(Leonard de vinci) وإراسم (Erasme) ورابليـــه (Rabelais)
ومونتيني(Montaigne) كما انتقدت تربية القرون الوسطى على يد رابلية ومونتيني .
وقد عبرت حروب الدين عن هذا النضال في صورة صوفية .

واشتد النضال في القرن الثامن عشر فاتجه ضد الدولة الاقطاعية التي تعيق نمو قوى الانتاج وازدياد التبادل، وذلك بواسطة القوانين وتجزئة الارض والامتيازات والضرائب . ولاشتداد النضال هذا مغزى كبير : إذ أخذت البورجوازية تدرك انه يتحتم عليها ـ كي تزدهر ـ ان تصفي علاقات الانتاج القديمة، وان تؤمن للعلاقات الجديدة سيطرة تامة . فأصبح بذلك النضال سياسياً .

وهاك ما رأيناه حتى الآن : وجدت وسائل الانتاج والتبادل التي قامت على أساسها البورجوازية داخل المجتمع الاقطاعي . إذ لم تعد وسائل الانتاج والتبادل هذه ـ بعد أن بلغت درجة معينة من النمو، كما لم تعد الظروف التي ينتج فيهـــا المجتمع الاقطاعي ويتبادل ، والتنظيم الاقطاعي للزراعة والصناعة اليدويـــة ، أي النظام الاقطاعي للملكية ـ تتفق مع قوى الانتاج في ذروة نموها ، فاعاقت الانتاج بدلا من العمل على تقدمه ، فتحولت بذلك إلى قيود كان لا بـــد من تحطيمها فحطمت .

وحلت محلها المضاربـــة الحرة ضمن دستور اجتماعي وسياسي خاص وسيطرت الطبقة البورجوازية اقتصادياً وسياسياً .

ولا شك أن هذا الادراك لم يتم بـــين عشية وضحاها .

حينما أخذت البورجوازية الفتيـــة ، في اوروبا ، في النظام الاقطاعي ، ببناء المصانع الكبيرة إلى جانب مصانع العمال اليدويين الصغيرة ، فساعدت بذلك عـلى تقدم قوى الانتاج في المجتمع ، كانت تجهل حتما النتائج الاجتماعية التي يؤدي اليهـــا

هذا التجديد ؛ ولم تكن تفكر بهذه النتائج؛ كما أنها لم تكن تعي، ولم تكن تفهم ان هذا التجديد «الصغير» سيؤدي الى تجمع جديد للقوى الاجتماعية، وسوف ينتهي بثورة ضد السلطة الملكية، وضد طبقة النبلاء التي كان يحلم افضل ممثلي البورجوازية بالانضمام اليها ، وكانت تهدف الى تقليل تكاليف انتاج السلع وزيادة كمياتها في أسواق آسية واميركا التي كانت قد اكتشفت حديثاً ؛ والحصول على أرباح أعظم ؛ وهكذا كان نشاطها الواعي لا يتعدى نطاق مصالحها العملية اليومية الضيق[1] .

لم تكن البورجوازية تهدف ، في أول الأمر ، إلا لضمان مكان لها في المجتمع الاقطاعي . والنضال الطبقي هو الانعكاس الاجتماعي السياسي الفكري للمصالح الحقيقية المادية الاقتصادية . وهذا واقع موضوعي، لأن البورجوازية نفسها تدخل ضمن نطاق التاريخ الموضوعي ، فهي ثمرة القوانين الاقتصادية للانتاج التجاري ، كما أنها ثمرة للملكية الخاصة التي جاءت عناصرها الأولية للطبقة المستغلة عن طريق مؤسسة القننونة نفسها .

ثم جاء زمن أصبحت فيه الملكية الاقطاعية، كما أصبح النظام الاقطاعي كله عائقاً مباشراً لتقدم قوى الانتاج بعد أن أمسى التناقض بين علاقات الانتاج القديمة وبين قوى الانتاج الجديدة لا يحتمل . وذلك لأن الطبقة الصاعدة هي تلك التي تستطيع تنمية قوى الانتاج الجديدة .

وازداد وعي النضال: كما أصبح نضالا منهجيا، بعد أن كان تلقائياً، فجعل من الطبقة الصاعدة طبقة ثورية . وأصبح الوسيلة التي لا يمكن تطبيق قانون الترابط الضروري بدونها . وأصبح هدفها ، منذ الآن، ليس تهيئة مكان للبورجوازية في

---

(١) راجع ستالين : النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية ، ٣ د ، ص ٢٩.

النظام الاقطاعي بل القضاء على هذا النظام .

ولهذا اشتد نضال الاقطاعيين واحتدم أيضاً، أولئك الذين لم يكونوا مهددين فقط بزوال سطوتهم الاقتصادية النسبية بل أصبحوا مهددين في وجودهم كطبقة، ولهذا ازدادت رجعيتهم .

نفهم الآن قول ماركس: نضال الطبقات محرك التاريخ، أي أنه الوسيلة السياسية التي تنحل بواسطتها تناقضات الانتاج، كما انه الوسيلة التي تتقدم بفضلها قوى الانتاج والمجتمع بأكمله . ولكن إذا كان النضال محل التناقض، فليس هو الذي أوجده . إذ ليس وعي الناس هو الذي يلهو بإيجاد التناقضات . لأن هذا المحرك لا يدور في الهواء . بل هناك الانتاج وقانون الترابط الضروري . فهو يساعد هذا القانون على الظهور تماماً، كما أن المحرك يساعد طاقة المحروق على أن تظهر كل فعاليتها، حتى إذا ما أصبح الانتاج يولد الطبقات المتناقضة حتى زوالها، فإن نمو المجتمع يتم بواسطة نضال الطبقات: نضال بين الطبقات المعادية، من جهة، لترابط علاقات الانتاج الضروري مع قوى الانتاج، وبين الطبقات المؤيدة، من جهة ثانية، لهذا الترابط، ولنلاحظ بهذا الصدد؛ ان الطبقة الثورية يمكن ان تكون في نفس الوقت مستغلة وان الطبقة المغلوبة (كطبقة البورجوازية في عهد الاقطاع) ليست بالضرورة طبقة مستغلة .

تصبح الطبقة الصاعدة واعية لرسالتها التاريخية بمساعدة العلم الاقتصادي أو على الاقل بمساعدة التجربة الاقتصادية، وكلما تحدد هذا الوعي كلما ازدادت فعالية النضال الثوري، لأن هذا النضال يعتمد على معرفة قانون الترابط الضروري الموضوعي .

نخلص الى القول إذن : ان الانتاج الاقتصادي والنظام الاجتماعي الذي ينتج عنه حتما يكونان ، في كل عصر تاريخي ، أساس التاريخ السياسي والفكري لهـذا العصر ؛ .:. ولهذا فقد كان التاريخ (بعد زوال ملكية الأرض المشتركة في العصور البدائية) تاريخ نضال طبقي بين طبقات مستغِلة وطبقات مستغَلة ، بين طبقات محكومة وطبقات حاكمة، في مختلف مراحل تطورها الاجتماعي[1] .

---

(١) راجع انجلز : مقدمة طبعة بيان الحزب الشيوعي عام ١٨٠٣ انظر ص ١٩ من طبعة ١٩٥٤ . المطبوعات الاجتماعية .

الدرس الثامن عشر

تناقضات المجتمع الرأسمالي

١ ـ علاقات الانتاج الرأسمالية : تناقضها النوعي .

٢ ـ قانون الترابط الضروري في المجتمع الرأسمالي .

أ ـ الترابط بين علاقات الانتاج الرأسمالية وطابع قوى الأنتاج .

ب ـ النزاع بين علاقات الانتاج الرأسمالية وطابع قوى الأنتاج.

٣ ـ نضال طبقة البروليتاريا ، منهج لحل التناقض بين علاقات الإنتاج وقوي الإنتاج .

٤ ـ الخلاصة .

١ - علاقات الانتاج الرأسماليّة : تناقضها النّوعي

كتب ستالين يقول ، في وصفه لطابع المجتمع الرأسمالي الذي يتلو المجتمع الاقطاعي .

تكوّن ، في النظام الرأسمالي، ملكية وسائل الانتاج الرأسمالية أساس علاقات الانتاج ، بعد أن زالت ملكية المنتجين والعمال فلم يعد الرأسمالي يملك حق قتلهم أو بيعهم، لأنهم تحرروا من كل ارتباط شخصي معه، بيد انهم محرومون من وسائل الانتاج ، ولهذا فهم مضطرون ، كي لا يموتوا جوعاً ، الى بيع قوتهم على العمل الى الرأسمالي، والتردي في نير الاستغلال [١]».

يعني هذا ان العلاقات الرأسمالية تحتوي على تناقض أساسي بين مصلحة الطبقة المستغِلة (البورجوازية الرأسمالية) ومصلحة الطبقة المستغَلة (البروليتاريا) . وهذا التناقض خاص بالرأسمالية . وذلك لأن وجود البورجوازية الرأسمالية ورخاءها لا يتوفران إلا بعمل البروليتاريا .

وهكذا ندرك ، إذن ، ان نضال الطبقات ملازم للرأسمالية ، فهو يعبر عن التناقض الداخلي في علاقات الانتاج الرأسمالية ، واستغلال الانسان الرأسمالي لأخيه الانسان؛ حتى إذا ما نشأت علاقات الانتاج الرأسمالية ــ داخل المجتمع

---

(١) راجع ستالين : المادية الجدلية والمادية التاريخية ، الفصل الثالث صفحتين : ٢٥ — ٢٦ .

الاقطاعي نفسه ـ ظهر النضال الطبقي الموضوعي بين البورجوازيين والبروليتاريين[1] ويستمر ذلك النضال على مدى تاريخ البورجوازية .

وسوف يتيح لنا تحليل علاقات الانتاج الرأسمالية تحديد طبيعة تناقضها النوعي الذي يؤدي بالضرورة إلى نضال الطبقات .

كان الصانع اليدوي يبيع مصنوعاته اليدوية ليشتري لنفسه حاجات مادية ضرورية ؛ والرأسمالي يشتري المواد الأولية لبيع منتوجات مصنوعة . هدف الانتاج اليدوي هو الاستهلاك ؛ بينما غاية الانتاج الرأسمالي هي الفائدة. وهكذا يتحول المال الى رأسمال، في هذا النوع الجديد من دوران المال، وذلك لأن توظيف المال هو لزيادة انتاج المال .

ويصبح الانتقال من الشكل الأول لدوران المال الى شكل دوران الرأسمال ممكنا، كلما وجدت الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . وهذا ما يحدث في النظام الاقطاعي خاصة ، كما يفسر لنا نشأة الرأسمالية في هذا النظام .

بيد أنه يجب ، كي يتحقق الربح من هذه العملية، ان يجد الرأسمالي في السوق بضاعة لها ميزة خاصة ، الا وهي انتاج قيمة اكثر من القيمة الضرورية لتجديدها ، وان يملك الرأسمالي لوحده فائض القيمة هذه .

---

(١) ولهذا من الخطأ الاعتقاد ان الفئة الثالثة (le tiers état) كانت في عام ١٧٨٩ ، أيام الثورة البورجوازية ، كتلة واحدة خالية من تناقضات المصالح . فلقد كانت مصلحة جميع الطبقات التي تكون الفئة الثالثة ، المشتركة في القضاء على الاقطاع ؛ ولكنه كان يوجد في نفس الوقت تعارض في المصالح داخل الفئة الثالثة بين المستغلين والمستغَلين ، يضاف اليه تعارض المصالح بين البورجوازية الكبرى والبورجوازية الصغرى والخ ..

فما هي هذه البضاعة المفيدة للرأسمالي ؟ انها ولا شك قوة العامل على العمل ، لان العمل وحده يمكنه ان ينتج القيمة[1] .

ويجب ان نفهم من القوة على العمل مجموعة الصفات الحية التي يستخدمها لانتاج أشياء مفيدة(٢) .

مـــاذا يجب كي يمتلك الرأسمالي القيمـــة المنتجة ؟ ويملك جميع وسائـــل الانتـــاج ؟

ماذا يجب كي تصبح قوة العمل الانسانية بضاعة ؟ ويضطر الناس الى بيعها بأنفسهم في الأسواق ؟

يجب أولا : أن يملكوا هذه القوة تماماً ، أي ان يتحرروا من قيود الرق ؛
ثانياً : يجب وجود الاسواق : حيث يوجد الشراء والبيع والانتاج التجاري ؛
ثالثاً : ان لا يكون لدى الناس للبيع سوى قوتهم على العمل ؛ أي أنهم لا يملكون هم انفسهم أي وسيلة للانتاج .

يوجد مثل هؤلاء الناس البروليتاريين وذلك اما بسبب ازدهار النظام الاقطاعي اقتصادياً ، أو بسبب المضاربة التي تسيطر في الانتاج التجاري وتقضي على صغار الصناع اليدويين ، وصغار التجار .

هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن الرأسمالي ، الذي يهمه استخدام العمال الاحرار

---

(١) لا شك ان قوة الانسان على العمل لا يمكنها ان تنتج فائضاً على القيمة الا في مستوى معين من تطور قوى الانتاج . كما رأينا في الدرس السابع عشر ، ٢

(٢) راجع كارل ماركس : الرأسمال ، الكتاب الاول ، الجزء الاول ، الفصل السادس ص ١٧٠ المطبوعات الاجتماعية .

الذين هم ارقى من الرقيق الجهلة ، ويعرفون كيف يستخدمون الآلات الجديدة ، يشجع بكل الوسائــل نضال الرقيق من أجل تحريرهم .

ندرك الآن مصدر « الحرية » التي نادت بها الرأسمالية ، وطبيعة هذة الحريــة ، هذه الحرية هي حريــة التجارة والاعمال بالنسبة الرأسمالي ، وحرية العمل عنــد الرأسمالي بالنسبة للبروليتاري .

وهذا ليس سوى قوة البروليتاري على العمل . ولكن كيف سيُدفع اجر هذه القوة ؟ كما يدفع ثمن كل سلعة ، إذ تتحدد قيمتها بكمية العمل الضرورية لانتاجها . وقيمة المنتوجات الضرورية لاستمرارها وتجددها ، كي يعيش البروليتاري ويشب أطفاله فيحلوا محله . ولما كانت هذه القيمة ستحسم من القيمة التي ينتجها العــامل خلال عمله اليومي ، فإن الزائد ، وهو فائض القيمة ، سيزيد من رأس المال : « يكوّن القسم الأول الاجر بينما يتولد عن القسم الثاني الربح(١) .

ولهذا كانت مصلحة الرأسمالي في تحديــد العمل اليومي ، كما ان مصلحة البروليتاريا ، في تقصيره . فإذا وجب ثلاث ساعات لانتاج قيمة تساوي ما تتطلبه تغذية قوة العمل عند العامل ، وإذا كان هذا العامل يبدأ عمله في الساعة السادسة صباحاً ، فإنه منذ الساعة التاسعة يعمل لمصلحة الرأسمالي . فإذا عمل بدون انقطاع وانتهى من عمله الساعة ١٤ فإنــه يكون قد عمل خمس ساعات لمصلحة

---

(١) « تتحدد قيمة قوة العمل بقيمة الاشياء الضرورية الواجبة لتوليد قوة العمل وحفظهــا واستمرارها » . (ك . ماركس ، الاجر ، السعر ، والربح ص ١٨ العمل المأجور ورأس المال . ص ٩٥)

« واما فائض القيمة ، أي جزء القيمة الكلية للسلع التي تحتوي على فائض العمل ، أي العمل غير المأجور الذي قدمه العامل فاسمه الربح » (نفس المراجع ص ٢٣ ، ١٠٠)

الرأسمالي . وإذا انتهى الساعة ١٩ (نفترض عملا متواصلًا) فإنه يكون قد عمل عشر ساعات لمصلحة الرأسمالي .

وهكذا يتضاعف ربح الرأسمالي ما بين ثماني ساعات عمل يومياً وثلاثة عشر ساعة : (وكان هذا شائعاً في مطلع الرأسمالية) بينما أجر العامل لم يتغير : فهو محدد بالقيمة لتغذية قوة العمل ، وهي قيمة تكفي ثلاث ساعات لانتاجها.

يخفي ، طبعاً ، الرأسمالي ، هذا الامر حين يدفع اجر العامل ، في نهاية اليوم ، بعد انتهاء العمل المطلوب.

ولهذا يضطر البروليتاري ، كي لا يموت من الجوع ، الى العمل طيلة الوقت المحدد كي ينال اجره .

ويعني هذا ان الرأسمالي ، مقابل اجر يمثل تماماً ما يساوي أقل حاجات البروليتاري المادية ، يستولي على منتوجات عمل البروليتاري. وهكذا ينقسم العمل اليومي الى عمل يومي ضروري وعمل يومي بالمجان .

يوجد إذن ، في عهد الرأسمالية ، كما وجد في عهد الاقطاع وعهد الرق ، تملك خاص للعمل غير المأجور. غير ان البروليتاري لا يكتشف رأساً مر هذا الاستغلال، لانه يخيل اليه انه قد دُفع اليه اجر كل عمله عند نهاية اليوم . كان الرقيق يملك منتوجات اقتصاده الخاص، وكان يعرف انه يعمل عدداً من الايام بالمجان في خدمة سيده .

اما البروليتاري العصري ، فهو ، كالعبد ، لا يملك شيئاً سوى « حريته » ، أي قدرته على بيع قوته على العمل . وكان العبد ينال غذاءه من سيده ؛ اما الرأسمالي فهو يعطي البروليتاري ، في صورة اجر ، الضروري مما يحتاجه في غذائه ،

وربما عاد فاستولى على كل هذا الاجر في مستودع الاغذية، او عند دفع اجرة السكن : فالرأسمالية هي إذن العبودية المأجورة .

اتاح لنا هــذا التحليل أن نتأكد اننا كنا محقين في قولنا إن مصالح الرأسمالي الاقتصادية لا تتفق ومصالح البروليتاري في الأساس ، ولا يمكن التوفيق بينهما ، وان هنــاك تناقضاً كامناً في الرأسماليــة يكوّن جوهر علاقات الانتاج الرأسمالية .

ينتج عن ذلك ان فكرة تعاون الطبقات والشراكة بين رأس المال والعمل هي سلاح لخدمة الرأسمالي. فهي تهدف الى ابعاد البروليتاري عن النضال من اجل الدفاع عن مصالحه . ليس الاستغلال الراسمالي نتيجة « استغلال رؤساء العمل الفاسدين »، كما تدعي منشورات البابا ؛ لانه لا يوجد راسمالية « صالحة » إذ ان كل راسمالية مستغلة بطبيعتها . ولهذا فإن القول بالقضاء عــلى البروليتاريا ، والقضاء عــلى الاستغلال الرأسمالي مع المحافظة على الرأسمالية والملكية الفردية لوسائل الانتاج إنما هو سخر بعقول الناس ، إذ يجب القضاء على الرأسمالية كي نقضي على البروليتا .

وتصح هذه الملاحظات بصدد « الاشتراكية » البورجوازية عند برودون التي لا تهتم بالقضاء على الرأسمالية بواسطة عمل الطبقات الثوري ، بل « بتحسين مصير الطبقة العاملة » . ضمن نطاق الرأسمالية بعد تعديلها[1] .

---

(١) « لا تبلغ الاشتراكية البورجوازية صورتها الكاملة الاحين تصبح مجرد صورة بلاغية . التبادل الحر من اجل مصلحة الطبقة العاملة ! وحقوق تحمي اصحاب المصانع ، من اجل مصلحة الطبقة العاملة !. .

تلك هي آخر كلمة للاشتراكية البورجوازية ، وهي الكلمة الوحيدة التي قالتها جادة ، لان الاشتراكية البورجوازية تكمن كلها في هذا القول وهو ان البورجوازيين هم بورجوازيون من اجل مصلحة الطبقة العاملة » (ماركس – انجلز : بيان الحزب الشيوعي ، ص ٥٧)

وهناك نتيجة أخرى لتحليلنا، وهي ان نضال الطبقات ليس من اختراع كارل ماركس . فهو موجود مستقــلّا عن ارادة الناس . ولهذا لا يستطيع البروليتاريون توفــير اسباب عيشهم إلا بالنضال ضد المستغل ، حتى إذا ما كفت البروليتاريا عن النضال، من اجل الأجور، انتهت بها الرأسمالية الى حالة قريبة من حالة الحيوان .

غير أنه يجب ان نلاحظ ان التناقض بين الرأسمال والعمل ليس هو التناقض الوحيد الذي وجد منذ مطلع الرأسمالية . ولكن تناقض المصالح بــين الرأسماليين المتنافسين ليس أساسياً بل يتبع التناقض النوعي للرأسمالية ، وهو التناقض بين الرأسمالي المستغِل وبين العامل المستغَل : ولولا هذا التناقض لمـا كان هناك رأسمالية . وهكذا يكون قانون سطرة الانتاج في النظام الرأسمالي تابعاً لقانون فائض القيمة الأساسي .

٢ - قانون الترابط الضروري في المجتمع الرأسمالي

درسنا فيا سبق علاقات الانتاج الرأسمالية : وذلك بتحليل تناقضها الداخلي ذلك التناقض الخاص بالرأسمالية .

وسوف تسمح لنا هذه الدراسة ان ندرك مصير قانون المجتمعات الأسامي ، في المجتمع الرأسمالي ، وهو قانون الترابط الضروري بين علاقات الانتاج وطابع قوى الانتاج .

وسوف نرى ، في المرحلة الاولى ، كيف أوجد تناقض الرأسمالية الخاص ظروفاً مواتيـــة لعمل قانون الترابط الضروري ، أي لازدهـــار قوى الانتاج .

ثم سوف نرى ، في مرحلة ثانية ، ان تناقض الرأسمالية الخاص يوجد ظروفاً مواتية لعمل قانون الترابط الضروري : ومن ثم ينشأ النزاع بين علاقات الانتاج وبين قوى الانتاج . فيعيق ذلك نمو قوى الانتاج .

١ - الترابط بين علاقات الانتاج الرأسمالية وطابع قوى الانتاج

رأينا في الدرس الرابع (المسألة ٤) ان طبقة البورجوازية تكونت وسط المجتمع الاقطاعي . ولما كانت مصالح الطبقة البورجوازيـــة مرتبطة بازدهار قوى الانتاج الجديدة (كالصناعات اليدوية ، المصانع) فإنهـــا لم تستطع النمو إلا عن طريق النضال ضد علاقات الانتاج الاقطاعيـــة التي لم تنسجم مع قوى الانتاج الجديدة . فكانت بذلك حجر عثرة في وجه قانون الترابط الضروري .

كانت مهمة الثورة الديمقراطية البورجوازيـــة تصفية الاقطاع ، فسيطرت علاقات الانتاج الرأسمالية بفضل انتصار البورجوازية .

وهكذ اقبلت مرحلة تاريخية كانت فيها طريقة الانتاج الجديدة تتفق تماماً مع متطلبات نمو الانتاج . واستعاد قـــانون الترابط الضروري ، الذي كان المجتمع الاقطاعي يعيق عمله ، كل قوته في المجتمع الرأسمالي .

ويجب ان نلاحظ ان العلاقات الرأسمالية لا تتفق مع أية صورة أخرى لعلاقات الانتاج . لماذا ؟ تقوم الرأسمالية على الربح (راجع المسألة ١ من هذا الدرس) ولهذا كانت مصلحة الرأسمالية في زيادة الانتاج باستمرار وبأسعار اقـــل . ولهذا تحتاج الرأسمالية الى ضم قوى جديدة للانتاج تقلل من الوقت اللازم للانتاج ، كما تحتاج الى الحصول ، بمختلف الوسائل ، على اسواق جديدة . غير ان هـــذا الربح لا يمكن ان يأتي بربح اكبر إلا اذا استخدم في مشاريع صناعية ، او تجاريـــة ، او زراعية جديدة . ولهذا كان على الملكية الرأسمالية ان تمتد الى جميع وسائل الانتاج بدون استثناء . وهكذا لا تستطيع الرأسمالية ان تسمح بوجود أية صورة أخرى للملكية الى جانبها . بل يجب عليها ان تشمل الامة بأجمعها ، ومن ثم ما هو خارج عن الأمة ، فتسعى منذ بدايتها الى سيطرة عامة شاملة .

لا يمكن للبورجوازية ان توجد إلا بتطوير وسائل الانتاج باستمرار ، وهذا يعنى تطوير ظروف الانتاج وجميع العلاقات الاجتماعية . بينما كانت المحافظة على طريقة الانتاج القديمة بدون أي تغيير ، عـــلى العكس ، الشرط الأول لوجود الطبقات الصناعية السابقة[1] . ولهذا يتميز عهد البورجوازية ، عن جميـــع العهود السابقة ، بهـــذا التطوير الدائم للانتاج الذي يؤدي الى زعزعـــة مستمرة للنظام الاجتماعي باكمله ، والى اضطراب وعدم اطمئنان لا ينقطعان ، فتزول جميع العلاقات الاجتماعية التقليدية مع ما يوافقها من نظريات وافكار قديمة . وإذا بالشيخوخة تعتري العلاقات التي تحل محلها قبل ان يشتد ساعدها ، فكل ما هو صلب دائم يصبح دخاناً تذروه الرياح ، كما يُدَنَّسُ كل مـــا هو مقدس ؛ ولهذا يضطر

(١) في الصناعة التي تعتمد على الرقيق مثلا

الناس الى النظر لأحوالهم المعيشيــة ولعلاقاتهم المتبادلة نظرة تنم عن الخيبــة واليأس(١) .

ومع ذلــك يعم قوى الانتاج ازدهار عظيم . إذ تعتقد الرأسمالية ، في هــذه المرحلة ، ان عليها ان تنمي قوى الانتاج بصورة غير محدودة . ومن هنا كان الاعتقاد « بالتقدم » اللانهائي داخل البورجوازية، وخلود الرأسمالية التي تبدو على انها الصورة النهائية الـكاملة للمدنية . فيعتقد، حينئذ، الاقتصاديون الرأسماليون ان الانتاج الرأسمالي ينمو بيُسر ، بعيداً عن التناقضات، فـإذا بهـذا العصر عصر « الانسجام الاقتصادي » .

يُخيل للرأسماليين عندئذ انهم يخدمون مصالح المجتمع ، ويزيـــدون من حجم السلع المستهلكة ، ويوفرون العمل للجميـــع .

اما مشاغلهم «الاجتماعية» فهي ؛ بالنسبة لفريق منهم ، الأمل بعلاج الامراض الاجتماعية، عن طريق تنمية الانتاج، وبذلك تتوطد اركان النظام الرأسمالي والمجتمع البورجوازي . ويصبح مثل المصلحين البورجوازيين الأعلى، آنئذ، ان يجعلوا من جميع الناس ملاكين ، لتكون البورجوازية بدون البروليتاريا . وقد ولد هذا الضرب من الاحسان المحافظ الجمعيات الخيرية المتعددة .

تعكس لنا هذه الافـكار ان الملكية الخاصة الرأسمالية لوسائل الانتاج ، في هذه الفترة ، تساعد الانتاج مساعدة قصوى .

لا شك ان العصر الذي تلى الثورة البورجوازية ، حين قضت البورجوازيـة

---

(١) كارل ماركس : بيان الحزب الشيوعي ص ٣٢

على علاقات الانتاج الاقطاعية ، واحلت مكانها علاقات الانتاج البورجوازية ، قد مر بفترات كانت فيها علاقات الانتاج البورجوازية حسب طابع قوى الانتاج . وإلا لما استطاعت الرأسمالية ان تنمو بسرعة ، كما فعلت بعد الثورة البورجوازية (١) .

وكانت علاقات الانتاج الرأسمالية القوة الرئيسية التي تعمل على نمو قوى الانتاج. بيد اننا قد برهنا في المسألة(١) من هذا الدرس ان العلاقات الرأسمالية هي علاقات استغلال ، فإذا كانت قوى الانتاج استطاعت ان تنمو في النظام الرأسمالي فما ذلك إلا نتيجة للاستغلال ! لأن ازدهار الانتاج كان بسبب وجود فائض القيمة الذي يولده العمل الانساني ، فاستولت البورجوازية على هذا الفائض . **وهكذا يكون استغلال البروليتاريين هو الذي عمل على نمو الرأسمالية** . فالبروليتاريون العصريون هم الذين اوجدوا روائع المدنية الحديثة ، وعانوا البؤس المخيف الذي فتك بالرجال والنساء والاطفال، وكان من جرائه نمو قوى الانتاج الرائع الذي اقامت عليه البورجوازية الرأسمالية بذخها وسلطانها(١) .

يعنى هذا أن الانتاج في المجتمع الرأسمالي تابع للربح الرأسمالي ، وهو يقوم على استغلال الطبقة العاملة .

---

(١) راجع ستالين : « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » آخر مؤلفات ص ١ .

(١) « الرأسمال هو عمل ميت ، يشبه الحيوانات التي تعيش على امتصاص الدماء، فهو لا يعيش إلا على امتصاص عمل الاحياء » ك . ماركس : رأس المال ، الكتاب الاول ، ج ١ ، ص ٢٢٩ . المطبوعات الاجتماعية .

يحق لنا القول ، إذن ، ان التناقض الخاص بالرأسمالية ـ وهو التناقض بين الطبقة المستغِلة والطبقة المستغَلة ـ اوجد ظروفاً مواتية لعمل قانون الترابط الضروري ، وان هذه الظروف مواتية ايضاً لازدهار قوى الانتاج .

ولسوف نرى الآن كيف كان لنفس التناقض ، في مرحلة ثانية (تبدأ نحو عام ١٨٤٠) اثر معاكس لهذا الأثر .

ب ـ النزاع بين علاقات الانتاج الرأسمالية وطابع قوى الانتاج

كان الرأسماليون ، في عصر ازدهار الرأسمالية ، يعتقدون انه يمكنهم تطوير وسائل الانتاج بصورة غير محدودة ، كما كانوا يعتقدون ان الصناعة سوف تخفف الآلام ، وتحل جميع المشاكل . ولم يتراء لهم ان تطوير هذه الوسائل يمكن ان يقف في وجهه حد ألا وهو الرأسمالية نفسها . وذلك بنفس الطريقة التي يصبح فيها تكبير حبات العدس محدوداً في الميكروسكوب ، فتحدث عندئذ ظواهر ضوئية جديدة تمنع الرؤية ، وتحول دون اي تقدم في الميكرسكوب القديم . كما ان ازدياد سرعة الطائرات يحدث ظواهر جديدة حين تبلغ سرعة الصوت ، وكذلك يجب على نمو قوى الانتاج ـ الذي يسّرته الرأسمالية ـ ان يضر بالرأسمالية نفسها لأن تلك هي الجدلية في الطبيعة والمجتمع . فلقد اصطدمت الرأسمالية نفسها « بجدار الصوت » فكانت الأزمات الاقتصادية(١) . فما هو أساس هذه الازمات ؟

(١) راجع باي : المراجع المذكور ، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤

تستطيع الرأسمالية ، بواسطة تطوير قوى الانتاج ؛ ان تعرض في الأسواق كميات متزايدةمن السلع بأسعار ارخص ؛ فتزداد حمي المضاربة، وتقضي الرأسمالية بذلك على طبقة صغار الملاكين ومتوسطيهم. بينما تتجمع الثروة في ايدي فئة قليلة من الرأسماليين (المحتكرين)، ويعُمُّ الفقر الاغلبية الساحقة (الطبقة المتوسطة ، والفلاحين) . وتزداد اهمية جميع هذه الطبقات، كلما تجمّع رأس المال بين أيدي اقلية من المستغلين ، كما تضعف قوتهم الشرائية ، فإذا بالبيع في السوق يخف ، وإذا بالكساد يحل، لأن اكثرية السكان تقتصر في استهلاكها على الضروري فقط . فيظهر الخلل عندئذ اكثر فأكثر بين الانتاج والاستهلاك . وهـذا ما يسميه الرأسماليون « فائض الانتاج » ؛ فتحدث حنيئذ الازمة .

وهكذا يولد الجري وراء الربح ؛وهو هدف الرأسمالية ، عكسه : وهو توقف الربح .فإذا بغالبية المجتمع تتردى في البؤس ، لانها انتجت وسائل للعيش لا تستطيع شراءها . فإذا بها تعاني الفقر بسبب كثرة الانتاج !

يظهر التحليل الاقتصادي الماركسي ان التوازن بين الانتاج والاستهلاك ، ونمو الانتاج الاجتماعي بهدوء وانسجام لا يمكن ان يتحققا إلا إذا اعتبرنا مجموع حاجات المجتمع ، سواء كانت سلع الاستهلاك او وسائل الانتاج. ولكن انّى للرأسمالي ان يعتبر هذه المتطلبات،بينما هدفه الوحيد هو مصلحته الخاصة وربحه الذي تحدده احوال السوق ؟

وليس الانتاج ، في النظام الرأسمالي ، تابعاً لحاجات الجميع بل هو تابع لأرباح الاقلية الرأسمالية . ولهذا لا يمكن تنمية الانتاج ، في الرأسمالية ، بصورة منسجمة إذ ينقسم هذا الانتاج بطابع استبدادي .

وهكذا نجد ان اساس الازمات الاقتصادية ، هو ، في النهاية ، التناقض الذي

نشأ بين مصالح الرأسماليين الخاصة وبين متطلبات الانتاج الاجتماعي ، فلقد قضت الرأسمالية ، بتنميتها لقوى الانتاج ، على تجزئة الانتاج الخاصة بالصناعة اليدوية ، كما ادت المضاربة القاسية بين الرأسماليين ، في مطلع القرن العشرين ، الى التهام الاقوياء للضعفاء . فتكونت الاحتكارات ، وهي اشبه باقطاعيات اقتصادية هائلة تمتد حبالها خارج حدود بلادها (كالاحتكار الاميركي المؤلف من شركة Standard oil) تحت اشراف روكفلر ملك البترول[1] .

لا تفرق الرأسمالية ، في هذه المرحلة ، بين الصناعات المختلفة من استخراج المواد الأولية حتى المصنوعات. وتقوم الاحتكارات الضخمة بالاشراف على مجموع اقتصاد بلد او عدة بلدان من صناعة وتجارة وزراعة ، فتسيطر على الاقتصاد أوليجارشية (oligaarchie) اقتصادية تملك رؤوس الأموال الضخمة اللازمة لسير الانتاج .

وهكذا حمل تطور الرأسمالية الرأسماليةَ نفسها على التسرب الى جميع مظاهر الحياة الاجتماعية .فإذا بالمصارف والاحتكارات تربط مختلف فروع الانتاج بروابط متينة . وإذا بعملية الانتاج تتخذ طابعاً اجتماعياً .

ولكن من يستفيد من كل ذلك ؟ حفنة من الرأسماليين تملك وسائل الانتاج الكبرى ، ويصبح الانتاج الاجتماعياً اكثر فأكثر ، ولكنه لفائدة اقلية طفيلية .

---

(١) يكوّن الانتقال من الرأسمالية الحرة الى الرأسمالية المحتكرة اروع تعبير عن نزاع الاضداد. اذ تتحول المضاربة الحرة بين الرأسماليين الى ضدها (الاحتكار) بازالة الضعفاء. تظهر حينئذ صورة جديدة للنضال، هو النضال بين الاحتكارات على المستوى العالمي.

تبجح الاحتكارات المتمادية، التي تكون هذه الأقلية، عن الربح الأكبر، مستغلة الطبقات الكادحة وصغار الرأسماليين ، وذلك لأن الحصول على الربح الأكبر إنما هو، بالنسبة اليهم، ضرورة موضوعية يحتمها اتساع اعمـــالهم ، ذلك هو القانون الأساسي للرأسمالية الحالية .

ويمكن صياغة معالم قانون الرأسمالية الاقتصادي الأساسي ومتطلباته بما يلي : تأمين الربح الرأسمالي الأكبر باستغلال غالبية سكان بلد معين وتدميرها وافقارها، وكذلك باستعباد شعوب البلاد الأخرى ونهبها بصورة منظمة ، ولا سيما البلاد المتأخرة ، واخيراً تسخير الاقتصاد القومي، بواسطة الحروب، للتسلح لاستخدامها في تأمين اكبر الارباح[1] .

يؤدي الجري ، إذن ، وراء الربـــح الرأسمالي الى نتيجة حتميـــة وهي بؤس الطبقات الكادحة المتزايد ، واندلاع نـــيران الحروب . فلقد اعلنت الحرب الكورية على يد زعماء الرأسمالية الأميركية : لأن هؤلاء الرأسماليين ، وقد تملكهم الذعر من شبح الأزمة الاقتصاديه ، لايستنكفون عن السعي ، بواسطة الحروب ، عن طلبات تعود عليهم بالربح الوفير . ولهذا صرح الرئيس ايزنهور بقوله « رخاؤنا هو رخاء حرب » .

تقف الرأسمالية ، في المرحلة الحالية ، موقف المعتدي الدائم على الشعوب . وهذا هو الاستعمار .

---

(١) راجع ستالين : « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » في مؤلفات أخيرة ص ١٥١

غير أنه ليس بوسع الرأسماليين إزالة التناقض الكامن في الرأسمالية ، وهو التناقض بين مصالح الطبقة المستغلة ومصالح المجتمع بمجموعه . وبالرغم من ادراك البورجوازية لهذا التناقض فإنها لا تستطيع تضحية مصالحها الطبقية والنكوص عن أبارحها . ولهذا تعمل على الحد من قوى الانتاج حسب مصالحها . فتحمى بذلك علاقات الانتاج الرأسمالية ضد تقدم قوى الانتاج التي تهددها .

ويمكننا تعداد الأمثلة الكثيرة التي تظهر ان الرأسمالية ، وقد تملكها الخوف من الأزمة الاقتصادية ، تعيق تطور قوى الانتاج، فتعود الى العمل اليدوي ، وتنتج سلعاً سيئة ، وتهمل المخترعات الجديدة ، وتقلل او تلغي الاعتمادات الضرورية للمختبرات الخ . . . يفسر لنا كل ذلك ركود الانتاج الرأسمالي في جميع الميادين .

كتب ستالين يقول في وصف حال الرأسمالية :

تردت الرأسمالية في تناقضات يصعب عليها حلها ، لأنها نمّت قوى الانتاج بصورة هائلة . فهي ، بانتاجها كميات متزايدة من السلع وتخفيضها للاسعار ، تزيد من خطورة المضاربة، وتقضي على طبقة صغار الملاكين ومتوسطيهم فتجعل منهم بروليتاريين، كما تنقص من قدرتهم على الشراء فتكون نتيجة ذلك استحالة تصريف السلع المصنوعة . وتجعل الرأسمالية ، بتوسيعها الانتاج وتجميعها للايين العمال في مصانع ضخمة ، لعملية الانتاج طابعاً اجتماعياً ، كما أنها في نفس الوقت تهدم أساسها ؛ لأن طابع عملية الانتاج الاجتماعي يستدعي ملكية وسائل الانتاج الاجتماعية ؛ غير أن ملكية وسائل الانتاج تظل ملكية فردية رأسمالية لا تتفق وطابع عملية الانتاج الاجتماعي .

تظهر هذه التناقضات المتنــافرة بين طابع قوى الانتاج وبين علاقات الانتاج في ازمات فائض الانتاج المستمرة . فيضطر الرأسماليون ، لانعدام الشراء، بسبب القضاء على الطبقات التي كانوا هم السبب في افقارها ، الى حرق الحبوب وافساد السلع الجاهزة وايقاف الانتاج ، وتحطيم قوى الانتاج ، بينما ملايين الناس يعانون البطالة والجوع ،وليس ذلك ، بسبب فقدان السلع ، ولكن بسبب كثرة هذه السلع .

يعني هذا ان علاقات الانتاج الرأسمالية لا تتفق وحالة قوى الانتاج في المجتمع فنشأ التناقض بينهما[1] .

التناقض إذن بين علاقات الانتاج الرأسمالية وبين طابع قوى الانتاج الاجتماعي هو أساس الازمات التي تعتري الرأسمالية .

غير أن هذا التناقض نفسه قد تولّد من التناقض الخاص بتكوين الرأسماليــة (الذي درسناه في المسألة (١) من هذا الدرس) .

وإذا ما أردنا ان نختصر المسألة (٢) فماذا نجد ؟

كان التناقض الخاص بالرأسمالية (حيث تقف البورجوازيــة المستغِلة ضد البروليتاريا المستغَلة) مواتياً أولا لعمل قانون الترابط الضروري : وكان قانون فائض القيمة ، وهو مصدر الربح الرأسمالي ، يعمل عــلى ازدهار قوى الانتاج ؛ تلك كانت مصلحة الطبقة البورجوازية .

ثم أدّى نفس التناقض الى نتيجة عكسية : إذ أصبحت المصلحة الطبقية حجر

(١) ستالين : « المادية الجدلية والمادية التاريخية» الفصل ٣ ، أ ، ص ٢٦ - ٢٧

عثرة في وجه الانتاج. لان قانون فائض القيمة ، الذي يتمثل اليوم في قانون الربح الاكبر ، قد عمل على فشل قانون الترابط الضروري بين علاقات الانتاج وطابع قوى الانتاج . غير ان قانون الترابط الضروري ، كما نعلم ، هو القانون العام للمجتمعات الانسانية الذي يشمل جميع صور الانتاج، فلا، يمكن للمجتمعات أن تتقدم إلا في ظل هذا القانون .

وهكذا يعمل القانون الخاص بالرسمالية (وهو قانون فائض القيمة الذي لاينفصل عن الاستغلال (البورجوازي) على فشل قانون المجتمعات الانسانية العام . وهذا النزاع هو مصدر انحطاط الرأسمالية . ويعني هذا انه قد نمت، داخل النظام الرأسمالي قوى انتاجية لم يعد يستطيع كبح زمامها . كما يعني أن علاقات للانتاج جديدة ، وهي العلاقات الاجتماعية ، أصبحت ضرورية ، موضوعياً، لانها الوحيدة التي تلائم قوى الانتاج الحديثة .

تحمل الرأسمالية في احشائها ثورة، وعلى هذه الثورة ان تحلّ محل ملكية وسائل الانتاج الرأسمالية الحالية الملكية الاشتراكية[1].

وسوف نلاحظ ان الرأسمالية ، بتنميتها لوسائل الانتاج ، قد عملت ، بالرغم عنها ، ضد مصلحتها . لان مجموع الانتاج يتخذ طابعاً اجتماعياً في مرحلة الاحتكارات ؛ ويصبح التناقض بين الطابع الاجتماعي للانتاج وبين التملك الفردي الرأسمالي حاداً لا يطاق، كلما ازدادت سطوة الاحتكارات. فتكون البورجوازية قد حفرت بنفسها قبرها، في عملها على ازدهار قوى الانتاج، خدمة لمصلحتها الطبقية، وحصرها القوى الانتاج اكثر فأكثر للحصول منها على الفائدة الاكبر. أما حفار القبور فهي

---

(١) المادية الجدلية والمادية التاريخية ، ص ٢٧.

الطبقة التي أتاح عملها وبؤسها للرأسمالية أيامها السعيدة : الا وهي طبقة البروليتاريا .

٣ ـ نضال طبقة البروليتاريا . منهج لحل التناقض بين علاقات الانتاج وقوى الانتاج .

أظهر لنا التحليل الجدلي للرأسمالية :

أ) وجود تناقض في علاقات الانتاج يعمل على تعارض البروليتاريا المستغَلة والبورجوازية المستغِلة . وقد تبينا ،من درسنالهذا التناقض في المسألة (١) من هذا الدرس ،انهيدوم دوام الرأسمالية نفسها ؛ لانه التناقض الخاص بالرأسمالية .

ب) وجود تناقض بين علاقات الانتاج الرأسمالية وبين طابع قوى الأنتاج . وهو لا يظهر الا حين تبلغ قوى الانتاج ، التيتنميها الرأسمالية، مستوى معينا (نحو عام ١٨٤٠) ـ وقد درسنا هذا التناقض في المسألة (٢) من هذا الدرس .

فما هو أساس تغير طريقة الانتاج ، وما هو سبب الثورة الاشتراكية ؟ رأينا أن سبب ذلك هو التناقض الثاني . غير ان التناقض الأول هو الذي يولد التناقض الثاني ، لأن الاستغلال الرأسمالي ، استغلال البروليتاريا على يد البورجوازية ، هو الذي ساعد على ازدهار قوى الانتاج . وهو ازدهار أفاد الطبقة المستغِلة حتى اليوم الذي أصبحت فيه قوى الانتاج هائلة بالنسبة للرأسمالية .

نستطيع الآن ادراك مهمة نضال البروليتاريا الطبقي التاريخية . وسنرى بأن هذه المهمة هي حل التناقض (ب) الذي ظهر بين علاقات الانتاج الرأسمالية وبين قوى الانتاج .

كانت البورجوازية تنمي البروليتاريا ، في نفس الوقت الذي كانت تنمي فيه قوى جديدة للانتاج، حسبما تقتضيه طبيعة علاقات الانتاج الرأسمالية (راجع المسألة ١). وطبقة البروليتاريا هي الطبقة المستغَلة، أي المناقضة للبورجوازية المستغِلة. وكلما تجمّعت وسائل الانتاج بين يدي البورجوازية كلما ازداد عدد البروليتاريا وقوتها. وهكذا جمّعت البورجوازية ، من أجل الاستغلال الرأسمالي ، عشرات الآلاف من العمال ، ثم الملايين في مصانع واسعة اقامتها في المناطق الصناعية ، كما أنها جمّعت عشرات الآلاف من العمال الزراعيين لاستغلالهم .

غير أنه لا يمكن للعمال البروليتاريين ان يؤمنوا معيشتهم، كما نعلم، إلا بالنضال المستمر ضد الطبقة التي تستغلهم . وهكذا ولدت البورجوازية ، بتوليدها نقيضها (البروليتاريا المستغَلة) ، جيشاً من الاعداء يقومون بنضال طبقي ضد المستغلين .

ولقد وصف كارل ماركس، في بيان الحزب الشيوعي، مراحل هذا النضال الرئيسية ؛ فنرجو من القارىء ان يعود الى قراءة ما كتب[1] . سدد العمال ، في مطلع الرأسمالية ، ضرباتهم الى الآلات التي كانت نذير البطالة ، وذلك لجهلهم طبيعة النظام الذي يعانونه . فهم لا يميزون بين الآلة وبين كيفية استخدام البورجوازية لهذه الآلة، وهم يناضلون ضد قوى الانتاج بدلا من النضال ضد الاستغلال.

---

(١) راجع ايضاً ماركس : بؤس الفلسفة ص ١٢٩ - ١٣٦

ثم إذا بهم يكتشفون شيئاً فشيئاً ان عدوهم الحقيقي ليس الآلة بل هو الرأسمالية. وذلك لأن الرأسمالية ،باستعمالها الآلات ، تخفض تكاليف الانتاج، فتنخفض قيمة قوة الانتاج، وتنخفض بذلك الأجور . ولهذا يقوم البروليتاريون بالنضال للدفاع عن اجورهم . حتى إذا رأوا أن الرأسمالي يحاول اثارة العمال بعضهم على الآخر (إذ يرضى البائسون منهم بأجور منخفضة جداً فيضطر من هم اتعس منهم الى قبول اجور منخفضة اكثر من الأجور الأولى) ادركوا مصالحهم المشتركة . فيتحدون عندئذ للنضال ضد عدوهم المشترك الا وهو الرأسمالي .

هذه الصورة الأولى للنضال هي الاضراب الذي يهدف الى الابقاء على الاجر (وتقصير العمل اليومي) . وكان الاضراب يعني ، وهو السلاح الأول للبروليتار ، وعي البروليتاريا الطبقي بان مصالح العمال الفردية لا يمكن الدفاع عنها إلا بالتضامن الطبقي والنضال المشترك .

ذلك لان الصناعة الكبرى تجمع في مكان واحد جمهوراً من الناس يجهل بعضهم بعضاً . فتنفصل المضاربة بين مصالحهم . ولكن الابقاء على الاجر ، وهو مصلحة مشتركة ضد رب العمل ، يوحدهم في المقاومة والتحالف .

وهكذا تسعى المحالفة الى هدف مزدوج : وهو ازالة المضاربة فيما بينهم للقيام بمضاربة عامة ضد الرأسمالي[1] .

يؤدي التحالف العابر ،من أجل الاضراب، الى تحالف مستمر للوقوف في وجه الاضطهاد الرأسمالي وتلك هي النقابة .

---

(١) ماركس : بؤس الفلسفة ، ص ١٣٤

التحالف العابر للاضراب والتحالف المستمر (النقابة) همـا صورتا النضال والتنظيم التلقائيين عند البروليتاريا ؛ وهي تصل اليهما بدون مساعدة اية نظريـة علمية عن طريق تجربتها الخاصة . وهكذا انتزعت الطبقة العامـلة من الرأسماليين بعض الانتصارات الكبرى، كتحديد العمل اليومي بثماني ساعات.

غير أن البورجوازية الرأسمالية تسعى، بتأثير قانون الربح الصارم، الى استعادة كل ما تنازلت عنه . فإذا ما تحدث الرأسماليون ورجالهم السياسيون ، بحرارة، عن « تحسين مصير الطبقة العاملة » فلا يجب الانخداع بذلك، إذ ان هذه التحسينات قد كسبها العمال المنظمون بعد نضال مرير . ولهذا تشن البورجوازية حرباً ضارية على النقابات العمالية . فهي تتهم هذه النقابات بتكوين « اقطاعيات جديدة » كي تثير الطبقات المتوسطة والفلاحين المخلصين لذكرى ١٧٨٩ ضد البروليتاريا المنظمة وهذا اتهام سخيف . يتردد على افواه « اقطاعيي » رأس المال الذين يلتهمون جميع ثروات المجتمع (ثروة صغار البورجوازيين والفلاحين) .

حتى إذا ما تسرب علم المجتمعات ، الذي اسسه ماركس وانجلز ، بين صفوف البروليتاريا ارتفع مستوى النضال الطبقي بفضل الحزب الثوري[1] . لأن مهمة هذا الحزب، الذي يضم تحت لوائه عناصر البروليتاريا الناهضة، ان يدخل الوعي الاشتراكي في الطبقة العاملة، وان يقودها، هي وجميع الطبقات الكادحة المتضامنة معها، الى دك صرح الرأسمالية . فهو يناضل من أجل مطالب العمال العاجلة ؛ غير انـه لا يكتفي بذلك ، بل يشرح لهم ، بصورة علميـة ، مصدر الاستغلال ، كما يظهر لهم إنهم

(١) راجع الدرس الرابع عشر (المسألة ٤ ، ب) حول صفات الحزب الثوري أي الحزب الشيوعي .

لا يستطيعون التخلص من هذا الاستغلال إلا بالقضاء على المجتمع الرأسمالي والدولة البورجوازية التي تحميه، ويستعيض عن هذا المجتمع، بواسطة دكتاتورية البروليتاريا، بمجتمع لا يستغل فيه الانسان اخاه الانسان، الا وهو المجتمع الاشتراكي. مثل هذا النضال يستحق وحده اسم النضال الثوري.

يهم البروليتاريا ان تقود هذا النضال حتى النهاية، وأن تقضي على علاقات الانتاج الرأسمالية. ولقد رأينا ان البروليتاريا، نظراً لارتباطها بأحدث قوى الانتاج، هي نتيجة ضرورية للاستغلال الرأسمالي. فهي لا تستطيع إذن التحرر من الاستغلال الطبقي إلا بالاستيلاء على وسائل الانتاج من البورجوازية، الطبقة المستغِلة، لتجعل من هذه الوسائل ملكا للجميع، في مجتمع لا يعرف المستغِلين ولا المستغَلين وبينما تسعى الطبقات المتوسطة (كصغار الصناع، وبائعي المفرق، والعمال البدويين، والفلاحين الفقراء والمتوسطين) للعيش كطبقات من صغار الملاكين داخل الرأسمالية، فليس للبروليتاريا، وهي التي لا تملك سوى قوتها على العمل، من هدف سوى القضاء على الاستغلال الذي هي موضوعه، أي القضاء على نفسها كطبقة مستغَلة لتبني المجتمع الذي لا يعرف الطبقات.

وكما تضامن الاقطاعيون القدماء، في جميع بلدان اوروبا، ضد البورجوازية الغازية، تتضامن اليوم البورجوازية في مختلف البلاد الرأسمالية، ضد البروليتاريا الثورية. واشتد هذا الوضع، الذي استمرت معه التناقضات بين الرأسماليين الالداء، بصورة غريبة، مع ظهور الاحتكارات. لأن الرأسمالية الكبرى عالمية. غير ان البروليتاريا تضامنت بدورها في جميع البلاد كطبقة ثورية مرددة النداء الذي يختم بيان الحزب الشيوعي: «اتحدوا ايها العمال في جميع انحاء العالم».

وهكذا نجد ان النزعة العالمية للبروليتاريا هي نتيجة لوضع العمال الموضوعي

مهما كانت جنسياتهـــم ، لأن المستغلين في جميع البلاد لهم عدو مشترك هو الطبقة المستغلة مهما كانت جنسيتها .

ذلك هو النضال الثوري ضد الاستغلال .

ومع ذلك لن يفوز هذا النضال بالنصر ، طالما ان علاقات الانتاج الرأسماليـــة تتفق موضوعياً مع مستوى قوى الانتاج ، اي طالما ان الرأسماليـــة تنمو حسبما يقرر قانون الترابط الضروري ولا يعني ذلك ان نضال البروليتاريا غير مجدٍ حينئذٍ ، لأن البروليتاريا ، بفضل هذا النضال ، تعي قواها فتعمل على جمعها وتنظيمها ، كما ان هذا النضال يربيها ويهذبها . ولا يستطيع نضال البروليتاريا ، في هذه المرحلة ، ازالة الاستغلال الرأسمالي بل يحدُّ من تأثيره .

حتى إذا لم تعد علاقات الانتاج الرأسماليـــة مناسبة لقوى الانتاج ، بسبب ازدهار هذه القوى ، اي حين تدخل الرأسمالية في نزاع مع قانون الترابط الضروري بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، تتوفر حينئذ الشروط الموضوعية الجديـــدة لنضال البروليتاريا[1] .

ويسعى نضال البروليتاريا ، من اجل تأميم وسائـــل الانتاج ، الى تهيئة ظروف مواتية لعمل قانون الترابط الضروري الذي لم تعد الرأسمالية تحترمه . وهكذا يسير نضال البروليتاريا الثوري في اتجاه التاريخ ، ولهذا كان واثقاً من المستقبل لأن هذا هذا النضال يسير حسب قانون المجتمعات الاسامي .

غير ان البورجوازية ، الحريصة على أرباحها كطبقة مستغِلة ، تستخدم كل

---

(١) سنرى في الدرسين العشرين والواحد والعشرين ان التغيير الثوري في المجتمع على يـــد البروليتاريا يتطلب ايضاً شروطاً ذاتية سوف ندرسها .

وسيلة لتقف في وجه قانون الترابط الضروري ، فينتج عن ذلك ، كما رأينا ، اعظم الآلام للمجتمع . وليس هناك سوى قوة اجتماعية واحدة تستطيع التغلب على مقاومة البورجوازية لقانون الترابط الضروري ، فما هي هذه القوة ؟ خيّل للخياليين من المفكرين انهم يستطيعون تغيير المجتمع بواسطة قوة الأفكار . ويعود الفضل الى ماركس وانجلز بأنهما اكتشفا ان الوسيلة الوحيدة التي تستطيع حل التناقض بين طابع قوى الانتاج الاجتماعي وبين الملكية الخاصة (التناقض ب) (راجع ما سبق) هو نضال الطبقة العاملة الثوري معتمدة على تأييد ضحايا الاستغلال الاخرى . وذلك لأن البروليتاريا ليست وحيدة في نضالها ، لأن نمو الرأسمالية – وانتقالها من المضاربة الى الاحتكار – يؤدي الى افقار مختلف طبقات المجتمع . إذ لا تستطيع البورجوازية الكبرى ان تزدهر إلا بتعميم البؤس حولها . فيقف في وجهها لا محالة – عدا البروليتاريا الثورية وعدوها الطبيعي – الطبقات المتوسطة التي افتقرت ، والفلاحون العمال ، والصناع اليدويون ، واصحاب الدكاكين ، الخ .. وجميع الطبقات التي قضت عليها ، فتجمع البروليتاريا جميع طبقاتها ، بقيادة الحزب الماركسي اللينيني ، وتؤلف جبهة واحدة للنضال ضد العدو المشترك ، الا وهو البورجوازية الكبرى المستغِلة . وهكذا تقوم قوة اجتماعية جبارة لتحطيم العلاقات الرأسمالية واقامة علاقات جديدة للانتاج ، الا وهي العلاقات الاشتراكية المواتية لمستوى قوى الانتاج الحديثة .

أما قدرة البروليتاريا على جمع اكبر الجموع للنضال ضد الاقلية المستغِلة فهي تظهر بوضوح مهمتها القومية ، وهكذا تقف الطبقة العاملة ، كما اشار اليه كل من ماركس وانجلز ، في النضال الثوري ، في مقدمة الامة ، بينما تنفصل عنها اوليجارشية رأس المال الكبير نظراً لمصلحتها الطبقية . وكلنا يعرف ، اليوم في فرنسا ، كيف انتقلت هذه الاوليجارشية الى الخيانة المفضوحة للمصلحة القومية . وهي مستعدة

لارتكاب كل شيء حباً بالبقاء، ولهذا سلمت البلاد الى الاستعمار الاجنبي . وهذا وضع يشبه وضع الاقطاعيين عام١٧٨٩، حين تحالفوا مع اقطاعيي البــلاد الأخرى ضد شعبهم املاً في استعادة السلطة في البلاد .

بينما تتفق ، على العكس ، مصالح البروليتاريا الثوريـــة مع مصالح الأمة ضد البورجوازية الكبرى المستغلة التي لا تعرف لها وطناً .

وهكذا تصبح النزعة الوطنية البروليتاوية والنزعة العالمية البروليتارية مظهرين لا ينفصلان لنفس النضال الذي تقوم به الطبقة العاملة ضد البورجوازية الرجعيــة التي تضحي حياة الشعوب في سبيل الربح الاكبر .

٤ – الخلاصـة

تؤدي بنا دراسة تناقضات المجتمع الرأسمالي ونموها الى عتبة مجتمع جديـــد لا استغلال فيه . وقبل ان نستمر في البحث يجدر بنـــا ان نمعن الفكر في بعض النتائج الفكرية للاستغلال الرأسمالي .

هناك نزعة انسانية (Humanisme) بورجوازية • وإذا ماقلنا « انسانية » عنينا الثقة بالانسان ، وحب الانسان .

كانت البورجوازية الثورية ، ولا سيما في فرنسا ، تفخر باعتقادهـــا بالاخوة الشاملة. لماذا ؟ لأنها كانت تناضل موضوعياً لتعيد لقانون الترابط الضروري تأثيره الذي وقفت في وجهه الاقطاعية ، وهكذا كان عملها يسير باتجاه التاريخ .

ولكن ماذا بقي اليوم من كل ذلك ؟ أصبحت اليوم البورجوازيـــة، نظراً

لمصلحتها الطبقية ، حجر عثرة في وجه عمل قانون الترابط الضروري بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، وذلك هو الاساس الموضوعي لـ « اللاأنسانية البورجوازية » (inhnmanisme) (التي تقوم على احتقار فاشيستي للانسان وتكون موضوعاً للانحطاط) .

ان عقلية البورجوازية الكبرى العالمية هي عقلية عصابة قطعت كل علاقة لها بالجنس البشري . اما فلسفتها الفكرية ، التي تدعي حرمان كل معارض من ابسط حقوقه ، فهي فلسفة فكرية تقوم على البطش والموت ، كما انها تبرر الجرائم المرعبة التي ترتكبها طبقتها من اجل خلاصها (كحرب كوريا مثلاً) .

بينما تكوّن الطبقة العاملة ، التي تناضل لتعيد الى قانون الترابط الضروري حقوقه ، طليعة الانسانية . ولما كانت الطبقة العاملة طبقة ثورية ، فهي تقيم علاقات حية بين ماضي المجتمعات ومستقبلها . بين الماضي ، لانها تحتضن كل العوامل التي عملت على تقدم المجتمعات (ولهذا فهي تحيي النزعة الانسانية البورجوازية بالرغم من معارضة البورجوازية الرجعية) . وبين المستقبل لأنها تضع هذا المستقبل في نضالها الطبقي .

وهكذا تناضل الطبقة العمالية من اجل جميع الناس : ولهذا كان نصرها الأول – ثورة تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٧ – اعظم حادث في تاريخ الانسانية .

الدرس التاسع عشر

البناء الفوقي

١ - ماهو البناء الفوقي

درسنا في الدرس الثاني عشر والثالث عشر مصدر الافكار ومهمتها في الحياة الاجتماعية : ولقد رأينا ان حياة المجتمع الفكرية انعكاس لحياته المادية . فهل من الصواب إذن ان نطلق كلمة البناء الفوقي (Superstructure) على جميع الافكار والمؤسسات التي توجد في مجتمع معين ؟

نستطيع الاجابة على هذا السؤال بدقة الآن ، وقد عرفنا نظريات المادية التاريخية الاساسية .

يوجد في كل مرحلة من مراحل التاريخ ، في جميع المجتمعات ، جنباً الى جنب افكار مختلفة متناقضة لانها انعكاس لتناقضات المجتمع الموضوعية . ومع ذلك فلا تتساوى هذه الافكار في القيمة . منها ما يصبو الى الابقاء على المجتمع في اوضاعه القديمة، ومنها ما يسعى الى تجديد هذا المجتمع ، وتكون حركة الافكار المتعارضة انعكاساً لنضال الطبقات في المجتمعات التي يوجد فيهـا نضال الطبقات المتعارضة . كما يمكن لنزاع الافكار ان يتخذ شكلا قاسياً زجرياً . وتخلو الاشتراكية من تعارض الطبقات،غير ان النضال بين القديم، والحديث موجود وهو ينعكس في النزاع الفكري .

يدرك الناس المشاكل التي تنشأ في زمنهم من خلال نزاع الافكار الذي يفتح الطريق لاكتشاف حلول يعرضها الواقع نفسه . ولهذا يعتقد المثاليون ، كهيجل ، ان جدلية الفكرة هي التي تولد الحركة التاريخية :

ولهذا من الخطأ القول بأنه وجدت عصور مباركة ، لم تعرف نزاع الافكار ، وحل فيها الانسجام بين الافكار والقلوب، كما اعتاد بعض المؤرخين تصوير الماضي بصورة ميتافيزيقية . فلقد وجدت افكار معارضة قضت عليها الطبقات المسيطرة ولم يذكرها التاريخ الرسمي ، فلقد هاجم العصر الوسيط، بعنف، الاكليروس والاقطاعيين في مؤلفاته الشعبية اللاذعة سواء كانت خرافات ام اغاني .

أما اضطهاد الافكار الجديدة ، ونزاع الطبقة المسيطرة الفكري المنظم، فهما من ميزات المجتمعات التي يوجد فيها استغلال الانسان على يد اخيه الانسان .

ولقد خيل للبورجوازية انها سوف تشتهر إذا ما اعلنت عن حرية النزاع الفكري ، اما الواقع فهو ان الامر لم يتعدَّ حرية الرأي ، ضمن نطاق الفلسفة الفكرية البورجوازية . وهذه حقيقة ستزداد وضوحاً مع انحطاط هذه الطبقة .

ولا تستطيع سوى الطبقة القادرة على ازالة التناقضات الطبقية ان تكون رائدة النزاع الفكري الحر . ولهذا يستحيل، في المجتمع الذي يسرع في تقدمه، اي في الاشتراكية ، ان لا ينمو النزاع الفكري بشدة .

والمادية التاريخية هي الوحدة التي تعلم المناضل ، كما تعلم العالم ، ان لا يضيع في معركة الافكار ، وان يساوي بينها في القيمة ، وان يميز المصالح الطبقية التي تخفيها .

لا شك ان سلطات النظام الرأسمالي تقدم فكرة على أخرى عن طريق الصحافة مثلا : فإذا ما قرأنا في صحيفة ان عــدد صغار التجار الكبير هو سبب الصعوبات الأقتصادية، يجب علينا ان نكتشف وراء هذه « النظريــة » مصلحة رأس المال الكبير، فهو يسعى ، مدفوعاً بقانون الربح الاكبر ، ميزة الرأسمالية الحالية ، الى تخفيض نصيب بائعي المفرق من فائض القيمة الى اقصى حد . وإذا ما قرأنا ان افضل نظام للضرائب هي الضرائب الغير المباشرة، لأن جميع الناس يدفعونهـا ، فإن هذا القول يخفي أيضاً المصالح الرأسمالية ، لأن الضريبة الغير المباشرة ، التي تفرض على الاستهلاك ، تمس اصحاب الاجور والفلاحين والطبقات المتوسطة بصورة أشد مما تمس الرأسمالي .

غير ان هذه الافكار لا تكتفي بفلسفة النظام الموجود . بل هي وسائــل للنضال ، فيسعى رأس المال بإذاعتها الى المحافظة على الوضع المواتي له ، كما انه يهيء الأذهان لتقبل المقررات الجديدة من قوانين واجراءات سياسية توطد اركان الرأسمالية .

وهكذا تعكس هذه الافكار ، التي تنشرها الطبقة المسيطرة ، مصالحها كما انها تخدم هذه المصالح . ابتدأنا ندرك ما نعنيه بالبناء الفوقي (Superstructure) .

وما يصح على فكرة معينة تنشرها الصحافة يومياً ، يصح أيضاً عـلى النظريات الفلسفية .

كتب انجلز يقول بصدد نظرية كلفن عن القضاء والقدر :

كانت العقيدة الكلفانية تتفق وحاجات البورجوازية في ذلك العصر. فقد كانت عقيدة القضاء والقدر تعبيراً دينياً ، إذ كان النجاح والفشل، في عالم المضاربة التجاري لا يتعاقان بنشاط الانسان او مهارته بل بظروف خارجية عن ارادته . لم تكن هذه الظروف تتعلق بارادة الانسان أو بعمله ؛ بل هي تخضع لقوى اقتصاديـة عليا مجهولة .

وكان هذا حقاً ، لا سيما في عصر ثورة اقتصاديـة حل فيه محل مراكز التجارة القديمة والطرق مراكز وطرق أخرى ، كما فتحت الهند واميركا ابوابها للعالم ، بينما اخذت اكثر سلع الثقة الاقتصادية احتراماً، بسبب قدمها — كقيمة كل من الذهب والفضة — تنهار[1] .

وهكذا اصبحت مجرد ظاهرة اقتصادية عمل الحكمة الالهية التي تكتنفهـا الاسرار . ولقد عانت البورجوازية تجربة المضاربة ، غير ان روح العصر الديني كان يخفي عنهم طبيعتها الاقتصادية الصرفة ، كما ان فكرة « القضاء » نقلت الى مستوى النظرة الى العالم ، واخذت تتسرب الى الديانـة . واخذ التجار يشكون من آثار المضاربة، وان عاشوا بفضلها واثروا . إذ كانوا يريدون المضاربـة بدون آثارها . ولكنهم تعزوا عنها بالفكرة القائلة ان الناس يجب ان يعانوا قضاء مقدراً عليهم من قبل .

---

(١) انجلز : دراسات فلسفية ، ص ٩٨

وهكذا وطدت فكرة « القضاء والقدر» الانتاج التجاري، بعملها علــى قبول آثار المضاربة في الفئة التي تعيش منها .

كان من الطبيعي ان لا يرضى الاقطاعيون ، الذين كانت التجارة البورجوازية تحمل الخراب اليهم ، بهذه العقيدة ، ولهذا حرّمتها الكنيسة الكاثوليكية ، سيف الاقطاعية الروحي . غير ان الاقتصاد التجاري، بتنميته لقوى الانتاج، كان تقدماً على الاقتصاد الاقطاعي . ولهذا قامت النظرية الكلفانية بدور تقدمي بالنسبة الى عقيدة القرون الوسطى . بينما اصبحت هذه العقيدة ، في ايامنا هذه ، بالية ؛ لان نزعتها للايمان بالقضاء والقدر تتعارض مع الفكرة الثورية القائلة بأن الانسان سيد مصيره . ولمـــا كانت فكرةَ كبار اصحاب المصارف البروتستنت فهي لا تسعى إلا لقبول « القضاء والقدر » في الازمات الاقتصاديـــة والاضطرابات الاقتصادية في الرأسمالية .

يظهر هذا المثال ، بصورة بديهية، انه يمكن لنفس الفكرة ان تحتل ، حسب الظروف الاقتصادية ، موضعين مختلفين : فهي تستطيع الاساءة الى صورة الاقتصاد السائد ، وذلك شأن عقيـــدة « القضاء والقدر » في النظام الاقطاعي ، كما تستطيع خدمة علاقات الانتاج السائدة، وهذا شأن نفس العقيدة في النظام الرأسمالي، ولا نقول عن هذة العقيدة بأنها عنصر من عناصر البناء الفوقي(la Superstructure) إلا في الحالة الثانيـــة . وهكذا لا ينطبـــق لفظ البناء الفوقي عـــلى أيـــة فكرة او مؤسسة ، بل هو يتحدد بالنسبة الى أساس المجتمع الاقتصادي . وهكذا يشمل البنـــاء الفوقى الافكار والمؤسسات التى تعكس عـــلاقـــات الانتاج السائدة فتسود هي أيضاً .

الاساس هو نظام المجتمع الاقتصادى في مرحلة معينـــة من نموه . اما البناء

الفوقي فهو النظرات السياسة والقانونية ، والمؤسسات السياسة والقانونية ، وغيرها التي تتعلق بهذا النظام.

ولكل أساس البناء الفوقي الذي يتعلق به . ولهذا كان للنظام الرأسمالي بناؤه الفوقي ، ونظراته السياسية والقانونية وغيرها مع المؤسسات المتعلقة به ، كما كان للاساس الرأسمالي البناء الفوقي الخاص به ، وكذلك للاساس الاشتراكي بناؤه الفوقي الخاص بـه . حتى إذا ما تغير الاساس أو زال تغير معه البناء الفوقي او زال ؛ وإذا تولد اساس جديد تولد على اثره بناء فوقي يُناسبه[1] .

ولنلاحظ ان المؤسسات السياسة ، اي الدولة ، هي جزء من البنـاء الفوقي.

وذلك لأن الدولة « تتعلق » ، حسب قول ستالين ، بالنظرات السياسيـة والافكار السياسة السائـدة . وهي تنظَم حسب المباديء التي تعكس المصالح الطبقية ؛ الدولة هي صورة تنظم لسلطة الطبقة الأقوى ، تلك التي تشخص علاقات الانتاج السائدة . فالاساس الاقتصادي هو الأولي ثم تأتي الدولة . وهكذا يتولد التنظيم السيامي عن الافكار السياسية وهي القوة المنظمة . وليست قوى الدولة ، في آخر الأمر ، سوى قوة الافكار التي هي بدورهـا انعكاس لحيويـة الأساس الاقتصادي . وتكمن القوة السياسية في السند الطبقي الذي توفره الأفكار السائدة للدولة ، ويمكن تبرير هذا السند الطبقي او لا يمكن : إذ يمكن للجماهير ان تخدع الى حد ما من التطور التاريخي ، فتكمن قوة سلطة الطبقات المستغِلة في الكذب، حتى إذا ما ضعف هـذا السند الطبقي ضعفت الدولة : واصبح استخدام القوة

---

(١) ستالين : « حول الماركسية في علم اللغة » . آخر مؤلفات ص ، ١٣ - ١٤

الصريحة على يد الطبقة الحاكمة الدليل على ضعفها ونهايتها القريبة . لان الافكار التي تتملك الجماهير هي العامل الفعال[1] :

٢ - يتولّد البِنَاء الفوقي بوَاسِطة الأسَاس

يتولد البناء الفوقي عن الاساس . ويزول معه ويكون مصيرُه مصيرَه . إذ تتولد الافكار السائدة، في مجتمع معين، من نموذج ملكية وسائل الانتاج، التي تسيطر فيه . ليس البناء الفوقي ، إذن ، مجرد تراكم افكار سياسية ، تشريعية ، فلسفية ، دينية ، الخ .. ذلك لأن لهذه الافكار رابطاً داخلياً : فهي تعكس نفس الأساس . وهكذا يكون الأساس والبناء الفوقي كلا عضويا . ولهذا فإن البناء الفوقي الاقطاعي مرتبط ارتباطاً وثيقاً في جميع اجزائه بالأساس الاقطاعي . وتكوّن وحدة الأساس والبناء الفوقي الجدلية محتوي المفهوم الماركسي للتكوين الاجتماعي .

وهكذا يكون البناء الفوقي كلا . وليس هذا الكل ابدياً ولكنه كل حي ، يولد مع اساسه وينمو معه ويزول اثره .

يطبع وجود الدولة ، في المجتمعات الطبقية ، جميع حياة البناء الفوقي بطابع خاص . فهو عنصرها المنظِم ، فهو ، مثلا ، الذي ينظم التعليم الطبقي .

ويزول البناء الفوقي ، ككل عضوي، بعد زوال نظام اقتصادي معين. لا يجب إذن ان نخلط بين البناء الفوقي ، كفكرة اساسية للمادية التاريخية، وبين اية فكرة او مؤسسة في نفسها مفصولة عن بناء فوقي معين . لأن كل فكرة ، حين تدخل في

---

(١) راجع بصدد دراسة عميقة للدولة كتاب لينين الكلاسيكي : الدولة والثورة. المطبوعات الاجتماعية . باريس ١٩٤٧

نطاق بناء فوقي جديد، تتحول بعمق، ويصبح لها معنى جديد من الكل الذي اصبحت جزءاً منه . ونسيان ذلك يؤدي بنا إلى النزعة الشكلية (formalisme).

نجد مثالا ذا مغزى على ذلك في المدرسة الطائفية . زالت عن مسرح التاريخ مدرسة القرون الوسطى، في الوقت الذي زال فيه البناء الفوقي الاقطاعي، على يـد البورجوازية الثورية ، بعد زوال الأساس الاقتصادي الاقطاعي .

ومن ثم شجعت البورجوازيــة الفرنسية ، في القرن التاسع عشر ، المدرسة الطائفية ، خوفاً من تقدم البروليتاريا الثوري، ولانها لم تعد تخشى عودة الاقطاعية ، وذلك كي تستخدم هذه المدرسة في اغراضها المناوئة للديمقراطية . غير انها اعادت اليها الحياة ، كعنصر من البناء الفوقي البورجوازي ، ولهذا حولتها لتجعلها ملائمة لظروف المجتمع البورجوازي[1] .

لا يعني هذا قط ان البناء الفوقي الاقطاعي قد استمر بعد زوال اساسه ، بل ان البناء الفوقي الاقطاعي البورجوازي قـد تحول باتجاه رجعي ، في زمن كانت فيـه علاقات الانتاج الرأسمالية تقدمية فأصبحت رجعية . ولهذا كانت المدرسة العلمانية، التي ورثت السنة الديمقراطية البورجوازية ، في مثل هذه الظروف ، احد العناصر التي يمكنها ان تناضل الاتجاه الجديد لهذا البناء الفوقي. وعلى البروليتاريا ان تساندها في هذا النضال[2] .

---

(١) هذا هو مغزى قانون جيزو (Gnizot) في عام ١٨٣٣ الذي ظهر بعد عصيان ١٨٣١ وقانون فلو (Falloux) عـام ١٨٥٠ الذي ظهر بعد القضاء وعلى العصيان العمالي في حزيران ١٨٤٨

(٢) لا يعني هذا قط ان تستنكف البروليتاريا عن نقد محتوى تعليم هذه المدرسة : فهي تنقد هذا المحتوي بقدر ما يعبر عن الافكار البورجوازية في الاستغلال .

وهكذا لا يبدو الترابط بين البناء الفوقي وأساسه، في عصور انقلاب طريقة الانتاج فقط، بل خلال مختلف مراحل النمو ودرجاته في فئة اجتماعية واحدة .

ترتبط الافكار « التحررية » في السياسة والديمقراطية البرلمانية البورجوازية (liberales) في النظام الرأسمالي ، بمرحلة التنافس الحر ، بينما ترتبط الرجعية ، على طول الخط ، بمرحلة الاحتكار : فتعلن البورجوازية المحتكرة ضرورة « الدولة القوية » كما تعتدي على شرعيتها الخاصة ، وتلقي بالحريات الديمقراطية البورجوازية جانباً .

ويلاحظ، في الميدان الثقافي ، حركة مزدوجة تتعلق جوانبها المتناقضة بمرحلتي الازدهار والانحطاط في الرأسمالية . إذ نرى في المرحلة الاولى – منذ عصر النهضة حتى أواسط القرن التاسع عشر – الثقافة البرجوازية تنمو وتزداد غنى ، بواسطة تمثل نقدي لكل تراث الفكر الانساني ولا سيما الثقافة القديمة .

كما انها تصبو لاتخاذ طابع الثقافة الشاملة النهائية . ونرى في المرحلة الثانية الثقافة البورجوازيه تلفظ ، شيئاً فشيئاً ، جميع العناصر التقدمية العقلانية الانسانية التي كانت تحتوي عليها، ثم تأخذ بالتحلل سريعاً . فلا تعود تستطيع احترام ماضيها الخاص.ويتلو إذن عملية التمثل النقدي عملية لفظ كل ما تمثله (discrimination). فتتخلى عن مطامحها في الشمول وعن تراثها الخاص . وتخرج ديدرو من بين الفلاسفة كما تخرج ميشليه من صفوف المؤرخين ، وفكتور هوجو من زمرة الشعراء « المحض » .

نخلص الى القول في هذا الصدد ، انه لا يجب ، كي نفهم بصورة صحيحة فكرة او مؤسسة ، ان نعرض لها في ذاتها مجردة عن بنائها الفوقي الذي تنتسب اليه والذي يعكس اساساً معيناً .وهذا ضروري، ولا سيما ، فيما يتعلق بالدولة ، ولهذا كانت

فكرة الاشتراكية الديمقراطية المثالية عن الدولة « الوسيط » التي « تعلو الطبقات»، وتجسد « الصالح العام » كذوبة . كما يصور الديمقراطيون المسيحيون الدولة على انها تجسيد « للخير المشترك ».. بينما تظل الدولة في الحقيقة – وهي ظاهرة ضرورية تاريخياً ، ظهرت مع تقسيم المجتمع الى طبقات متناحرة – في اصلها وطبيعتها دولة طبقة من الطبقات. ولهذا لا نستطيع التكلم عن « ديمقراطية » على العموم وبصورة مجردة، دون ان نتردى في النزعـــة الشكلية ، وهي خطأ علمي . ولهذا كان من الضروري ان نطرح هذا السؤال : ديمقراطية من اجل من ؟ من اجل الرأسماليين ام من أجل الشعب ؟

ملاحظة : الفوضويـــة (I,anarchisme) – التي لا تزال تؤثر بعض التأثير في الحركة العماليـــة الفرنسية – هي عقيدة مثالية تجهل طبيعـــة البناء الفوقي ومهمته . فهي بهذا تجهل اصل الدولة الطبقي وعلاقتها الموضوعية مع الاساس الاقتصادي . بل هي ترى في الدولة ثمرة « اغريزة » السيطرة والقوة التي تكمن في اعماق الانسان ، بينما هي في الواقع ثمرة نضال الطبقات . ولهذا تنكر الفوضوية ، في الميدان العملي، ضرورة عمل الطبقات السياسي والفكري لانها لا ترى أن قوة الدولة الحقيقية هي دعم الشعب لها . وهكذا تؤدي الفوضويـــة ، بتشجيعهـــا عمل الفرد والاقليات، الى المقامرة، وتصبح اداة للتحدي .

٣ – البـنـاء الفوقي قوة فعـالة

يتولد البناء الفوقي عن الاساس . ولا يعني هذا انه يكتفي بعكس هـــذا الاساس ، وانه سلبي ، محايد ، لا يهمه مصير الاساس ، ومصير الطبقات ، وطابع النظام الذي يوجد فيه . بل هو ، على العكس ، لا يكاد يظهر الى الوجود حتى

يصبح قوةهائلة نشيطة،تساعد اساسهاعلى التبلور والتوطد؛فتتخذ جميع الاجراءات لمساعدة النظام الجديد،للقضاء على الاساس القديم،والطبقات القديمة وتصفيتها.

ولا يمكن ان يكون الامر غير ذلك.ذلك لأن البناء الفوقي يتولد عن الاساس لكي يقوم بخدمة هذا الاساس ، ومساعدته بنشاط كي يتبلور ويتوطد ، ويناضل من أجل تصفية الاساس القديم البالي وبنائه الفوقي القديم . ويكفي ان يمتنع البناء الفوقي عن ان يقوم بدور الاداة ، كما يكفي ان ينتقل من موقف الدفاع النشيط عن أساسه ليتخذ موقف اللامبالي بازائــه ، كما يتخذ موقفاً مماثلا نحو الطبقات حتى يفقد ميزته فلا يعود بناء فوقياً[١] .

نعلم الآن ان الافكار هي قوى نشيطة عاملة . غير ان ستالين يلح هنا على القول بأن البناء الفوقي يتولد كي يخدم أساسه ويدافع عنه . حتى إذا ما كف عن خدمة اساسه فقد صفته كبناء فوقي .

البناء الفوقي هو اداة ، وثمرة مخطط ، ونشاط واع تقوم به الطبقة السائدة . لا تبدع هذه الطبقة الافكار من العدم . فالافكار هي انعكاسات .

غير ان كل طبقة تستخدم ، عن قصد ، الافكار التي تفيدها .

وصفنا البناء الفوقي ككل منسجم . فما الذي يحدد انتماء فكرة او مؤسسة الى هذا الكل ؟ فائدتها الطبقية ودورها في خدمة الاساس .

ليس هناك من صدفة في حياة البناء الفوقي،وفي نضال الافكار ، وفي تطور المؤسسات . إذ تنظم البورجوازية بناءها الفوقي حسب مخطط . وهاك مثالا : خطاب الكونت مونتلمبير (Montalembert) من على منصة المجلس اثناء مناقشة

---

(١) راجع ستالين : نفس المرجع المذكور ص ١٤ ـ ١٥

قانون فللو (Falloux) بعد مضي بضعة أشهر على حزيران ١٨٤٨ . قال :

« سأضيف كلمة واحدة كملاك يتحدث الى ملاكين بصراحة تامة، لاننا اجتمعنا ها هنا، كما اعتقد، كي يقول كل منا الحقيقة للآخر بدون تورية .

ما هي المشكلة اليوم ؟ انها مشكلة بعث احترام الملكية في نفوس الذين ليسوا ملاكين . وانا لا أعرف إلا علاجاً[1] لبعث هذا الاحترام، وجعل الذين ليسوا ملاكين يؤمنون بالملكية، الا وهو جعلهم يعتقدون بالله ! وليس هذا الايمان بإله مبهم كما تقول النزعة التلفيقية (électisme) او أي مذهب آخر، بل الايمان بإله كتاب الصلوات (catéchisme)، الاله الذي أوحى بالتوراة، والذي يعاقب السارقين الى الأبد . تلك هي العقيدة الشعبية حقاً التي يمكنها ان تحمي بشكل فعال الملكية ..[2] »

ندرك هنا، على الفور، تكوين البناء الفوقي الواعي، واضطرار البورجوازية إلى ان تضم مؤسسة قديمة إلى بنائها الفوقي الذي يزداد رجعية .

لم تحرم الكنيسة الكاثوليكية الرق : ولذلك وجد رقيق في اوروبا في القرن الوسيط، في المستعمرات حتى عام ١٨٤٨، وفي الولايات المتحدة حتى عام ١٨٦٤.

ولقد علمت الكنيسة الارقاء ان يطيعوا سيدهم . واضطرت الأسياد المحاربين، حقاً، الى احترام « هدنة الله » وهددتهم بالنار الابدية . ولكنها باتخاذها هذا

---

(١) لاحظ هذه الكلمة التي تبرر تماماً نص ستالين .

(٢) خطاب القاه في المجلس الوطني، في كانون الثاني ١٨٥٠.

الأجراء قد انقذت، قبل كل شيء، المزروعات الضرورية لحياة المجتمع، كما حفظت الانتاج وأمنت تفشي المجاعة، واندلاع نار الثورة. وهكذا تحمي، في النهايــة، الاقطاعية ضد تصرفات الاقطاعيين «المغالية»، غير ان مطران ريمس كان ينادي قائلا :

«ايها الارقاء! اطيعوا، في كل وقت، اسيادكم. ولا تحتجوا بقسوتهم أو بخلهم. اطيعوا، ليس فقط الصالحين المعتدلين، بــل الذين لا يعرفون الصلاح او الاعتدال».

تقول تعاليم الكنيسة بلغة اولئك الذين يدفعون الرقيق الى العصيان، ولا سيما اولئك الذين يعلمونهم المقاومة الصريحة[1].

يضاف الى ذلك ان الكنيسة حاولت، بواسطة النشرات(Eneyclique) التي اصدرتها في نهاية القرن التاسع عشر، ان تحمي الرأسمالية من «مغالاة» الرأسماليين. كانت في الماضي تدعو الى ضرورة وجود الاسياد والارقاء في المجتمع، فأصبحت اليوم تنادي بضرورة وجود الرأسماليين والبروليتاريا.

وهكذا لا يكون وجود الكنيسة، في عهد الرأسمالية، أثراً باقياً، بل يعني ذلك ان النظام البورجوازي المستغِل المضطهــد يستفيد من افكار ومن مؤسسة تتعلق بتكوين اجتماعي أقدم منها كان يسوده الاستغلال والاضطهاد.

ولهذا رأينا البورجوازية، حينما شعرت بالتهديــد، اعادت الدين عن قصد وتبنته، بعد أن سخرته لخدمة حاجاتها، فقوته ودعمته وجعلته جزءاً لا يتجزء من

---

(١) ذكره ج. بروها في. تاريخ الحركة العمالية الفرنسية، ص ٤٣ المطبوعات الاجتماعية، باريس ١٩٥٠

البناء الفوقي الرأسمالي. ثم اعلنت ان التعليم الديني والتعليم العلماني يتم كل منهما الآخر. إذ تنص التعليمات الرسمية عام ١٨٨٧ ، فيما يتعلق بالمدرسة الابتدائية، على ما يلي :

يتميز التعليم العلماني عن الدين دون ان يناقضة فلا يحل المدرس محل الراهب، بل يضيف جهوده الى جهوده ليجعل من كل طفل انساناً شريفاً .

فإذا كانت البورجوازية لا تضع جميع بيوضها في نفس السلة فإنها ، مع ذلك ، تعرف كيف توفق بين كاناتها !

يجب الاشارة هنا الى ملاحظة ابداها ستالين : في الوقت الذي يستنكف فيه البناء الفوقي عن القيام بدور الاداة يفقد صفته فـلا يعود بناء فوقياً . ولهذا حينما يستنكف اساتذه التعليم العام عن مقاومة اهداف البورجوازية الاستعمارية ، تطرد هذه البورجوازية المدرسين الديمقراطيين . وحين لا تعود الشرعية البورجوازية تنطبق على متطلبات الاحتكارات السياسية ولا تعود اداة صالحة بين أيديها لتحقيق مصالحها ، تسعى البورجوازية الى التخلي عن الحريات الديمقراطية البورجوازية ، ولهذا كان على البروليتاري، عندئذ ، ان يحمل لواء الحريات البورجوازية، وان يتقدم به، لانه يجد في الديمقراطية البورجوازية أفضل الظروف الممكنة ، في النظام الرأسمالي، لنشر ارائه السياسية في الأمة .

لا يجب إذن ان نقدر المؤسسات والافكار بصورة ميتافيزيقية، وإذا كان حقاً ان اصل هذه الافكار والمؤسسات يحدد طابعها، فإن تغير الظروف التاريخية يحول دورها : بل يجب البحث دائماً ، بصورة جدلية: في خدمة أية طبقة يمكن لهذه الافكار والمؤسسات ان تستخدم في وقت معين بسبب تغير الظروف الموضوعية .

تبدو قوة البناء الفوقي الفعالة ، ولا سيما قوة الدولة، في مرحلة الرمق الاخير

للرأسمالية . إذ لا تعود علاقات الانتاج ، في هذه المرحلة ، تتفق وطابع قوى الانتاج . فتقوم الدولة الرأسمالية باتخاذ جميع الاجراءات المفيدة لتثبيتها والوقوف في وجه تطبيق قانون الترابط الضروري بين علاقات الانتاج وقوى الانتاج ، ولمحاولة اطالة أمد وجود الرأسمالية إلى ما لا نهاية ، تصبح الدولة البورجوازية ، تساندها الافكار المناسبة ، العثرة الرئيسية لتقدم المجتمع .

ولا يمكن إزالة هذه العثرة من الطريق إلا بنشاط القوى الجديدة الواعي . نعلم من الدرس السابق (الدرس الثاني عشر . المسألة ٣) ان هذه القوى الاجتماعية والسياسية تتكون بتحالف البروليتاريا مع الطبقات الكادحة في القرية والمدينة. ونرى الآن ان مثل هذا النضال يهدف إلى تحطيم هذه العثرة، وهي الدولة البورجوازية وإقامة سلطة جديدة سياسية، هي سلطة البروليتاريا التي ستعمل دورها الفعال على تصفية الاساس القديم ، والبناء الفوقي القديم ، وإيجاد أساس جديد ، وبناء فوقي جديد .

وهكذا تقوم الافكار والمؤسسات ، في بعض الظروف التاريخية ، بدور فعال . تؤدي المادية الساذجة إلى « النظرية » الخاطئة القائلة بنمو المجتمع الآلي ، « التلقائي » .

وهي بذلك تبرر ، عملياً ، السلبية أمام العمل الذي تقوم به الدولة الرأسمالية لتمديد أجل اساسها . بينما الماركسية ، على العكس ، لا تهمل قط الدور الرئيسي الذي تقوم به مبادرة الجماهير الثورية ، والوعي الاشتراكي . كما انها لا تهمل قط النضال لتنمية النشاط السياسي ورفع مستوى الجماهير الفكري .

٤ - ليسَ البِنَاء الفَوقي مرتبطاً مبَاشَرة بالانتاج

ليس البناء الفوقي مرتبطاً مباشرة بالانتاج ونشاط الانسان الانتاجي . فهو لا يرتبط بالانتاج إلا بصورة غير مباشرة بواسطة الأساس. ولهذا لا يعكس البناء الفوقي التغيرات التي تحدث على مستوى نمو قوى الانتاج بصورة مباشرة ، بل إثر تغيرات الاساس ، وبعد انعكاس تغيرات الانتاج في تغيرات الأساس . يعني ذلك ان دائرة عمل البناء الفوقي ضيقة محدودة[1] .

تحذرنا هذه الفرضية الماركسية من جميع الذين يهملون علاقات الانتاج ونضال الطبقات ، ويدعون ان « تطور التقنيات » يؤدي رأساً الى تقدم الافكار والمؤسسات .

ولقد اعتاد الفكر البورجولزي على ترديد القول بأن تقدم « المدنية الحديثة » المادي يجب ان يتبعه تقدم في الميـــدان الثقافي والفكري والاخلاقي . ويتيح التكذيب المستمر ، الذي يقدمه الاستعمار ، لهذا القول ، الفرصة لشكوى المثاليين الذين ينتهزون الفرصة لمهاجمة تقــدم التقنيات والعلوم .

ان ما يحدد المستوى الثقافي والفكري و « الأخلاقي » لمجتمع مـــا هو أساسه الاقتصادي . ولا يستطيع تقدم المعارف التقنية والعلمية ان يغير شيئاً في هـــذا الأمر . فهو لا ينعكس في البناء الفوقي إلا بواسطة الأساس . وكما أن قوى الانتاج تنمو في حدود علاقات الانتاج الكائنة فكذلك يقدّر التقدم التقني والعلمي حسب معايير النظرية الفكرية التي تعكس هذا الأساس ، فتقدره كل طبقـــة حسب

(١) ستالين : المرجع المذكور ص ٢٨

مصلحتها الطبقية .

مر زمن أعلنت فيه البورجوازية الصناعية أن تقدم العلوم يفضي الى التقدم المادي والثقافي للانسانية ؛ وهي في هذا الاعلان إنما تعبر عن امكانيات نمو الرأسمالية الصناعية في هذه الفترة. غير ان هذه الفرضية – التي كانت فرضية النزعة الموضوعية – في ذاتها خاطئة .

ليس العلم والتقدم التقني ، في عهد الرأسمالية المنحطة ، في خدمة الحاجات الاجتماعية قط ، لأنهما في خدمة الربح الرأسمالي ، بل أن الافكار العلمية لا يمكنها أيضاً أن تتسرب كفاية إلى الجماهير فتعمل على رفع مستواها الثقافي ، فتسيطر الأفكار البورجوازية الرجعية على الجماهير ؛ كما يحدد البناء الفوقي مستواها الثقافي، فيظل هذا المستوى، حتما، متأخراً عن تقدم المعرفة العلمية . ولهذا كانت نظرية « أ . كومت » التي تعتقد بأن تقدم المجتمع والمؤسسات يتعلق فقط بنشر المعرفة بين الجماهير ، نظرية خيالية جاءت بها البورجوازية التقدمية : ولقد دلل تطور الرأسمالية فيما بعد على هلهلتها .

تدلل الماركسية ، على عكس النزعة الموضوعية ، على ان نضال الطبقات وتغير الأساس الاقتصادي هما اللذان يتيحان للبناء الفوقي الجديد عكس التقدم التقني والعلمي . والطريق الوحيد لرفع مستوى المجتمع الثقافي والفكري والسير نحو تقدم الأفكار والمؤسسات هو نضال الطبقات والثورة الاشتراكية . إذ ليس للآلة ولا للعلم، في ذاتها ، القدرة على الانحطاط بالانسان؛ كما أنهما لا يستطيعان الارتفاع به . وهما لا يكفيان لتحديد « المدنية » . ولهذا فإن التقدم التقني في الولايات المتحدة لا يمنع من أن تكون الافكار السائدة، في هذه البلاد، بدلا من أن تعبر عن درجة عالية من المدنية فإنها تقدم كل الدلائل على البربرية الرأسمالية .

أما الاشتراكية ؛ فهي ليست « مدنية تقنية » ، ولا هي انتصار النزعة العلمية المغالية . وما سموها الاخلاقي الا انعكاس للاساس الاشتراكي الذي يولد نزعة انسانية سامية . ولا يحرم الانساني الحق النضال الطبقي ، بل هو يشارك فيه لأنه يعلم ان هذا النضال هو الوحيد الذي يؤدي الى نظام اقتصادي واجتماعي يمكن ان تطبق فيه الانتصارات الجريئة التي فاز بها العمل والذهن الانساني.

٥ـ الخلاصة

لا يمكن لمجتمع يمزقه تناحر الطبقات ان يعرف حقاً الوحدة الاخلاقية والثقافية. يمكن للطبقة السائدة ، ولا شك ، ان تفرض افكارها ، وان تتوصل إلى كتم اصوات المضطهدين . وتنعم « بالسلام » ولكنه سلام القبور الذي يضع حداً للحرب بعد ان يكون أحد الفريقين المتحاربين قد فني وزال ! فالمجتمع الوحيد الخالي من تناحر الطبقات هو الذي يعرف حقاً الوحدة الأخلاقية والروحية ، فهو لا ينكر قط نضال الأفكار الضروري لتقدم المعرفة .

يوجد في مجتمع كمجتمعنا نوعان فقط من الأفكار متناحران : الأفكار التي تخدم مصالح البورجوازية ، وهي جزء لا يتجزأ من البناء الفوقي ، ومن جهة ثانية أفكار البروليتاريا التي لا تجد التعبير العلمي عنها إلا في الماركسية .

لا يمكن ان يضاف إلى هذين الضربين ضرب من « الافكار المحايدة » .

غير أن هناك أفكاراً بورجوازية متأخرة عن متطلبات الاستعمار الأثيم الفكرية ، ذلك الاستعمار ، عدو الشعب ، والأمم ، والانسان . تلك هي الأفكار البورجوازية العقلانية ، المعادية للفاشية ، ذات النزعة الانسانية . حتى إذا ما تناقضت هذه

الأفكار مع متطلبات الاستعمار ، اعلنت البورجوازية الحرب عليها . فيتضح عندئذ انه على الطبقة العاملة والقوى التقدمية ، ان تحتضنها ، وان تبعث فيهـا القوة والنشاط ، وأن تدفع بها الى الأمام بتنمية محتواها الديمقراطي .

وهكذا ليس هذان النوعان من الأفكار جامدين ثابتين . بل أحدهما في طريق الانحطاط ، يزداد رجعية يوماً بعد يوم وهو أقل شمولا . بينما يقوى الآخر في نضاله من أجل نزعة انسانية جديدة .

تقتبس البروليتاريا من الثقافة القومية في الماضي ، حسب مصلحتها الطبقية التي لا تنفصل من المصلحة القومية ، العناصر التقدمية التي تعكس بصدق الحياة وتكوّن تراثاً من الفن لا يفنى . كما تصد البورجوازية ، حسب مصلحتها الطبقية التي تعارض مصلحة الأمة ، عن التراث القومي ، وعن تراثها الديمقراطي وعن الانسان نفسه . وليس هناك ، ولا يمكن أن يكون ، نظرية فكرية محايدة ، بل هناك أفكار صنعتها البورجوازية خلال تاريخها الطويل ، والأفكار التى تنتج عن النقد العلمي للافكار الأولى والتي تدفع بها الماركسية الى الأمام وتتبناها البروليتاريا . أما ان تستطيع هذه الفكرة أو تلك الانتقال من معسكر إلى آخر حسب تطورات نضال الطبقات التاريخي ، فإن هذا يدل على أنهـا ليست محايدة ، بل لها محتوى معين ، ولهذا ترفضها البورجوازيـة حين تتحول مصلحتها .

أما المهمة التي تقع عـلى عاتق قوى الطليعة ، في المجتمع ، فهي إعادة تقييم كل التراث الفكري والثقافي . لأن الماركسية هي ، في الأساس ، نقد لا يترك حجراً على حجر في بناء الماركسية الفكري . ولهذا لا يمكن أن يكون ماركسياً حقاً من لم يتمثل ، بصورة نقدية ، حضارة الماضي .

الدرس العشرون ٣

الاشتراكية

١ - التوزيع والانتاج

ما فتيء الناس ، منذ ظهور الطبقات ، يحلمون بنظام اجتماعي مثالي يخلو من استغلال الانسان للانسان ومن نضال الطبقات.

وهكذا نجد تاريخ الطبقات المضطهدة تجتاحه المطامح الشعبية ، منذ الاعتقاد بعودة العصر الذهبي . ولم يتسرب اليأس قط إلى الشعب من

مستقبل الانسانية ، فلقد قـام الشعراء والمفكرون ، في جميع العصور ، بترقب فجر العصور الحديثة والاحتفال به . كما فعل توماس كمبانيلا، الذي كتب في نهاية القرن السادس عشر « مدينـة الشمس » وأمضى سبعاً وعشرين سنة في السجن . ولقد عملت الديانة المسيحية ، خلال الفي سنة ، عـلى ترديد القول الى المضطهدين « ليس هذا الملكوت في هذا العالم » . ولكن هذا لم يقض على أمل جماهير الشعب بالسعادة الارضية ، ولهذا جعل بتهوفن من « سمفونيته التاسعة » نشيد العصور المقبلة .

ومع ذلك لم تخرج الافـكار حول «المدينة المثالية» قبل الماركسية، عن نطاق « الايتوبيا » الخيالية . فلقد رأى الفلاسفة الاجتماعيون ان الشر الأساسي يكمن في عدم المساواة في توزيع الخيرات بـين الأفراد ، لحرمانهم من معرفـة القوانين الاقتصادية ؛ فدعوا إلى المساواة في توزيع الخيرات، أو إلى الاشتراكية فيها ، غير أنهم كانوا يجهلون تحليل الانتاج ، بسبب جهلهم لقانون المجتمعات ، واظهار عمليـة الاستغلال الطبقي، ولهذا نُظر اليهم كفلاسفة حالمين، واستقر في ذهن البورجوازية الصغيرة والكبيرة رأي خاطيء يقول بأن الاشتراكية والشيوعية يستحيل تحقيقها .

ولقد أدرك الاشتراكيون الخياليون ، في القرن التاسع عشر ، أنه يجب معالجة المشكلة من الطرف الآخر، أي ليس عن طريق الاستهلاك وإنما عن طريق الانتاج، وانه لا يمكن أن نطلب ازدياد السلع قبل أن نزيد الانتاج . وهذا ما تساعد عليه الصناعة الآلية الحديثة . غير أنهم لم يروا بوضوح ، وذلك بسبب افتقارهم إلى تحليل علمي لقوانين الانتاج والاقتصاد ، ان المسألة الفاصلة التي يجب حلها ، إذا أردنا حقاً زيادة الانتاج ، هي مسألة القضاء على ملكية وسائل الانتاج الخاصة الرأسمالية .

وليس هناك من مسألة غيرها لأن هذه الملكيــة هي التي تؤدي إلى جعل « زيادة الانتاج » مصيبة اقتصادية . ولما كانوا يجهلون قوانين الرأسمالية ، فقد خيل اليهم أن الارادة الطيبة تكفي لوضع جهاز الصناعة الرأسمالية في خدمة حاجات المجتمع . ولقد رأينا أن الأمر لا يمكن أن يكون كذلك ، لأن ملكية وسائــل الانتاج الخاصة تقف في وجه ما يمكن أن تحققه الصناعة والعلم الحديثين .

ومع ذلك فقد استطاع الاشتراكيون الخياليون أن يوضحوا هــذه الفكرة الثورية القائلة بأنه يجب أستخدام قوى الانتاج الهائلة التي حررها العلم والصناعــة الحديثان لخدمة حاجات المجتمع المادية ، وليس لتوفير الربح لفئــة صغيرة من المستغلين . وذلك « بالاستعاضة عن استغلال الانسان لأخيه الانسان باستغلال العالم على يد اناس متحدين ، والاستعاضة عن حكم الناس بادارة الأشياء » . تلك كانت أهداف الاشتراكية حسب رأي سان سيمون .

ولقد أجابت الماركسية وحدها بصورة علمية على المشاكل التي أثارها تحقيق هذه الأهداف فاظهرت :

١ ـ ان العنصر الأساسي في علاقات الانتاج هو ملكية وسائل الانتاج .

٢ ـ أنه لا يمكن القيام بتغيير وسائل الانتاج إذا لم نعتمد على الجدلية الداخلية لنمو طريقة الانتاج.

٣ ـ ان القوة الوحيدة التي يمكنها التغلب على مقاومة الطبقات التي يضرها هذا التغيير هي نضال البروليتاريا وحلفائها نضالا طبقياً .

وهكذا تتيح لنا الماركسية تحديد :

(١) أساس الاشتراكية .

(٢) الشروط الموضوعية التي ينطلبها حدوثها .
(٣) « الذاتية لبنائها بصورة علمية .

٢ - أساسُ الاشتراكيّة الاقتِصَادي

دلت الماركسية ، باظهارها أن العنصر الاساسي في علاقات الانتاج ، في أي مجتمع ، هو صورة ملكية وسائل الانتاج ، ان الاشتراكية لا يمكن أن تقوم على اشتراكية « الخيرات » (Liens) عامة ولا على تقسيم هذه « الخيرات » ، ولا على اشتراك رؤوس الأموال الخاصة ، ولا على تركيز الرأسمالية وتنظيمها . لان أساس الاشتراكية هو ملكية وسائل الانتاج الاجتماعية ، وهذا يعني حرمان الملاّك الخصوصيين ، ولا سيما ملاك وسائل الانتاج الكبرى الحديثة التي يمكن أن تستعمل لخدمة الحاجات الاجتماعية : ولقد برهنت الماركسية انه يمكن تحقيق هذا الهدف ؛ كما أنها دلّت على الطرق المؤدية اليه . والبروليتاريا هي التي تستطيع موضوعياً تحقيق هذا التحويل التاريخي لطريقة الانتاج ، لأنها الضحية المباشرة للملكية الخاصة ؛ كما أن ملكية وسائل الانتاج الاجتماعية تتفق ومصالحها كطبقة مستغَلة . ولما كان الرأسماليون ، خلال قرون طويلة ، قد استولوا على ثمرة عمل الجماهير المعدمة ، فإنهم بذلك قد سلبوها ما تملك ، ولهذا تعمل الاشتراكية على استعادة ما سلبوا .

تؤدي ملكية وسائل الانتاج الاجتماعية إلى القضاء على الأجور ، وذلك لأن فائض القيمة الذي تتمكن قوى الانتاج الحديثة من انتاجه ، في يوم ، بالنسبة إلى القيمة الضرورية للقيام بحاجات قوة العامل على العمل ، لايعود الآن ، إلى الرأسمالي ، بل إلى الجماهير عامة ، ثم يوزع بين أعضائها حسب عمل كل عضو ، كما يوزع في

صورة فوائد اجتماعية متعددة . وهكذا تفقد أفكار فائض القيمة ، والأجر ، كثمن لقوة العمل ، والربح ، والرأسمال ، والعمل الضروري ، والعمل المجاني ، معانيها .

ولهذا كتب ستالين يقول : « ان الحديث عن قوة العمل كسلعة ، وعن « اجور » العمال عبث في نظامنا . وذلك كما لو أن الطبقة العاملة ، التي تملك وسائل الانتاج ، تدفع الأجور لنفسها وتبيع إلى نفسها قوتها على العمل . وكذلك لا يقل غرابة الحديث عن العمل « الضروري » و «فائض العمل » كما لو أن عمل العمال الذي يؤدونه للمجتمع ، من أجل توسيع الانتاج ، وتنمية التعليم ، والمحافظة على الصحة العامة ، وتنظيم الدفاع القومي ، الخ . . ليس ضرورياً للطبقة العاملة ، وقد أصبحت اليوم في الحكم ، ضرورة العمل الذي يُؤدّى لتأمين حاجات العامل وحاجات عائلته الشخصية[1] .

الاشتراكية ، كما تحددها الماركسية علمياً ، هي القضاء على استغلال الانسان لأخيه الانسان ، والقضاء ، في نفس الوقت ، على طبقات المجتمع المتناحرة . وهكذا ينتهي أيضاً تناحر الطبقات على المستوى الاقتصادي بين المستغِلين والمستغَلين .

كما تؤدي ملكية وسائل الانتاج الاجتماعية إلى القضاء على كل امكانية في نشوء الازمة الاقتصادية . وذلك لأن المضاربة بين المنتجين ، من أجل الربح ، تزول ، ويزول معها استبداد الانتاج الراسمالي . كما أن قانون التراكم الرأسمالي ، الذي يقوم

---

(١) راجع ستالين : « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » آخر مؤلفات ص ١٥١ .

على أن نمو قوى الانتاج الهائلة يعتمد على شقاء جماهير العمال بسبب استملاك ثمرة العمل الاجتماعية بصورة فردية ، يصبح بالياً . ينتج عن ذلك :

١) يمكن التوفيق بين نمو انتاج وسائل الانتاج وبين نمو انتاج وسائـل الاستهلاك حسب قواعد الانتاج التي وضعها العلم الاقتصادي الماركسي ، وهكذا يحل محل استبداد الانتاج قانون النمو الاقتصادي بصورة منسجمة .

٢) لا يمكن أن يؤدي ازدياد الانتاج المتواصل إلى « ازمـة فائض الانتاج » لأن ذلك يصحبه بالضرورة ارتفاع قوة الشراء عند جميع العمال الذين يزيدون من استهلاكهم، إذ يأخذ كل منهم اجراً يناسب عمله . وهكذا لا يقع التنافر بـين الانتاج والاستهلاك، وما يصحبه من بطالة ، وتدمير لقوى الانتاج.

تعني الاشتراكية إذن انعدام الازمات الاقتصادية ، والقضاء على الاستعمار ، وزوال أسباب الحرب .

ولقد كتب ستالين يقول مختصراً ميزات الاشتراكية الأساسية :

تكوّن ملكية وسائل الانتاج الاجتماعية أساس عـلاقات الانتاج، في النظام الاشتراكي الذي لم يتحقق حتى الآن إلا في الاتحاد السوفياتي، إذ لم يعد يوجد في هذا النظام، مستغِلون ومستغَلون . بل توزع المنتوجات حسب عمل كل شخص، وحسب المبدأ القائل : « من لا يعمل لا يأكل » . اما علاقات الناس في عملية الانتاج فهي علاقات تعاون أخوي وتعاضد اشتراكي يقوم به عمأل تحرروا من نـير الاستغلال[1] .

---

(١) راجع ستالين : المادية الجدلية والمادية التاريخية ، الفصل الثالث : ص ٢٥

فكيف يمكن تحقيق ملكية وسائل الانتاج الاجتماعية ؟ إذ اتخذنا مثال الاتحاد السوفياتي فإننا نرى :

١) انتُزعت ملكية وسائل الانتاج في الصناعة وأعيدت إلى الشعب بأجمعه.

٢) ضُمَّ صغار المنتجين الفرديين ومتوسطيهم بصورة تدريجية في تعاونيات للانتاج ، أي في مؤسسات زراعية كبرى هي الكولخوزات .

٣) ظل الانتاج التجاري (التبادل بواسطة الشراء والبيع) لفترة ، محافظة على التحالف الاقتصادي بين المدينة والقرية وبين الصناعة والزراعة ، على أنه الصورة الوحيدة المقبولة من الفلاحين للعلاقات الاقتصادية مع المدينة ، كما نمت تجارة الدولة والتجارة التعاونية الكولخوزية بالقضاء على جميع أنواع الرأسماليين في السوق التجاري[1] .

ينتج عن ذلك أنه يوجد في الاتحاد السوفياتي صورتان لملكية وسائل الانتاج الاجتماعيـــة :

ترتدي الملكية الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي إما صورة ملكيـــة الدولة ، وإما صورة ملكية تعاونية كولخوزية (وهي ملكية كل كولخوز ، وملكيـــة الاتحادات التعاونية) . (المادة ٥ من دستور الاتحاد السوفياتي) .

فالأرض ، وباطن الأرض ، والغابات ، والمصانع ، والفبارك ، ومناجم الفحم والحديد ، وطرق السكك الحديدية ، ووسائل النقل المائية والجوية ، والمصارف ، والبرق والبريد ، والمنشآت الكبرى الزراعية التي تنظمها الدولة (كالكولخوز ،

(١) راجع ستالين : « مشاكل الاشتراكيـــة الاقتصادية في الاتحاد السوفيـــاتي » ص ١٠٦ .

ومحطات الآلات والتراكتورات ، الخ .) وكذلك المنشآت البلديـــة ، وبيوت السكن في المدن والمناطق الصناعية كل هذا ملك للدولة، أي هو ملك الشعب بأجمعه (المادة ٦) .

والمؤسسات المشتركة في الكولخوز وفي التنظيمات التعاونيـــة وما تملك من حيوان (cheptel) حياً أو ميتاً ، وكذلك انتاج الكولخوز والتنظيمات التعاونية ومبانيها المشتركة تكوّن ملكية مشتركة اشتراكية للكولخوزات والتنظيمات التعاونية (المادة ٧) .

وهكذا نجد أن التعاونيات الزراعية ، في (الاتحاد السوفياتي) تعمل في أرض أعطيت لها، وهي تتمتع بخيراتها مجاناً الى الأبد ، وهي ملك للشعب بأجمعه . كما ان الدولة تمد هذه التعاونيات بالتركتورات والآلات الأخرى التي هي ملك للدولة ، أما ما يملكه الكولخوز ، عدا مؤسساته وابنيته ، فهو ثمرة الانتاج الكولخوزي الذي هو مصدر دخـــله .

لكل عائلة كولخوزية ، عدا دخل الاقتصاد الكولخوزي المشترك الأساسي ، الحق بالتمتع بقطعة أرض صغيرة تملك عليها اقتصاداً خاصا بهـــا كبيت السكن والاغنام المنتجة والطيور ووسائل الزراعة البسيطة .

يسمح القانون ، إذن ، باقتصاديات صغيره للفلاحين والصناع اليدويين ويمنع استغلال عمل الآخرين .

أما فيما يتعلق بوسائل الاستهلاك فللمواطنين الحق بالملكية الشخصية لما كسبوه وادخروه بعملهم ، وملكية بيت سكنهم واقتصادهم العائـــلي المساعد ، واغراض البيت للاستعمال اليومي، أو الاستعمال الشخصي (كالسيارة مثلًا)، كما لهم الحق في وراثة الملكية الشخصية .

يحتوي المجتمع الاشتراكي ، إذن ، على طبقتين : طبقة العمال[1] ، وطبقة الفلاحين العمال الكولخوزيين ؛ وهؤلاء لا يوجد بينهم أي تعارض لأن مصالحهم واحدة .

ويوجد أيضاً طبقة اجتماعية من رجال الفكر وهم رجال التقنية والمهندسون ، ورجال التنظيم الاقتصادي، والعمال المفكرون ، ورجال التعليم والفنانون، والكتاب. وهم يمتازون بميزة لا يعرفها المجتمع البورجوازي وهي انهم ينتمون لجميع أصناف العمال. وقد لاحظ ستالين عام ١٩٣٦ ، ان تكوين رجال الفكر قد تغير عما كان عليه في النظام القديم ، وأن ٨٠٪ — ٩٠٪ منهم ينتمون لطبقة العمال والفلاحين الكادحة . ويقوم هؤلاء المفكرون بخدمة الشعب بأجمعه وليس بخدمة الطبقة المختارة .

ولهذا كان طابع التكوين الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي الأساسي هو أنه ، بفضل القضاء على الاستغلال، أصبحت الفئات الاجتماعية المختلفه متحالفة متحابة تعمل لبناء مجتمع لا يعرف الطبقات ، وجميعهم من العمال .

وتوطد هذا الحلف في النضال : مثال ذلك أن العمال ساعدوا الفلاحين في نضالهم ضد طبقة الفلاحين الملاكين المستغلين (الكولاك)؛ فأرسلوا اليهم الآلات، بينما قام الفلاحون العمال بتأمين تموين مراكز العمال الذين اراد الكولاك تجويعهم .

وكذلك تغيرت العلاقات بين رجال الفكر والعمال في الانتاج.

ولم يعد الآن العمال اليدويون ورجال الادارة اعداء بل أصبحوا رفاقاً وأصدقاء واعضاء في جماعة واحدة من المنتجين الذين يهمهم جداً تقدم الانتاج وتحسينه . ولم يبق شيء

(١) ان زوال الاستغلال يمنعنا من استعمال كلمة « البروليتاريا » .

من العداء القديم[1] .

ومع زوال استغلال الانسان لأخيه الانسان زال أيضاً التناحر بين القرية والمدينة ــ تلك القرية التي خربها بورجوازيو المدينة الرأسماليون واستولوا عليها . وكان هذا التناحر سبب عداء الفلاحين لأهل المدن واحتقار أهل المدن للفلاحين ، كما زال التناحر بين العمال اليدويين وبين العمال المفكرين ، صنائع البورجوازية المستغلة ــ وكان هذا التناحر سبب كره العمال اليدويين للعمال المفكرين واحتقار هؤلاء لأولئك .

بضاف الى ذلك أن الانتاج ، في المجتمع الاشتراكي ، يشرف عليه العمال ومنظماتهم ، اشرافاً ديمقراطياً، وهكذا نجد عمل المدير (الذي تسميه الدولة) يخضع لنقد جميع العمال . وكذلك تنتخب الادارة ، في الكولخوزات التي يشرف عليها جمعية أعضاء الكولخوزات ، بصورة ديمقراطية .

وأخيراً زال، بزوال استغلال الانسان لاخيه الانسان، استعباد المرأة ،ووضعت أسس المساواة بين الرجل والمرأة .

كما توفرت ، بفضل الاشتراكية في وسائل الانتاج وزوال استغلال الانسان لأخيه الانسان ، الظروف المواتية ، لظهور ، قانون اقتصادي أساسي جديد خاص بعلاقات الانتاج الاشتراكية غير المتناحرة ، ويعكس هذا القانون عملية نمو الاقتصاد الاشتراكي ، كما يعكس هدف اقتصاد لا يعرف الاستغلال والازمات ووسائله ــ ولن يكون لمثل هذا الاقتصاد سوى تأمين ارضاء حاجات الجماهير المادية

---

(١) راجع ستالين : مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي ، آخر مؤلفات ص ١١٧ .

والثقافية إلى اقصى حد. ولنشر، قبل دراسة هذا القانون الخاص بالاشتراكية، إلى ان الانتقال الى الاشتراكية يتطلب شروطاً موضوعية معينة تطابق قانون المجتمعات الأسامي وهو قانون الترابط بين علاقات الانتاج وطابع قوى الانتاج .

٣ - الشروط الموضوعية للانتقال الى الاشتراكية

تحدد الاشتراكية ، بتحديدها للاشتراكية بصورة علمية ، الشروط المواتية لظهور المجتمع الاشتراكي وبنائه . ولايمكن تغير طريقة الانتاج إلا في ظروف موضوعية معينة . فما هو أساس تغيير علاقات الانتاج ؟ الأساس هو الخلاف بين هذه العلاقات وبين طابع قوى الانتاج ، وقد حدث هذا الخلاف في وقت معين .

ليس هدف الثورة الاشتراكية ، إذن ، هدفاً ذاتياً . فهي لا تصدر عن الحسد والطمع كما تذيع البورجوازية التي تنسب هذه العيوب للطبقة العاملة - كما أنها لا تصدر عن طموح بعض المشاغبين الذين قرروا القيام بهذه الكارثة ذات مساء ! لان مهمة الثورة الاشتراكية هي ايجاد الشروط المواتية لنمو قوى الانتاج نمواً غير محدود ، وذلك بإزالة العقبة الوحيدة التي تعترض ذلك الا وهي علاقات الانتاج الرأسمالية ، في الوقت الذي أصبح فيه هذا ممكناً ؛ وذلك لأن الرأسمالية هي التي هيأت الاساس الموضوعي للثورة الاشتراكية ، بتنميتها لقوى الانتاج حتى الحد الذي ناقضت فيه الرأسمالية نفسها. فالقضاء الثوري على الملكية الفردية لوسائل الانتاج الجديدة والاستغلال الرأسمالي يسمح بإقامة الترابط بين علاقات الانتاج الجديدة وبين طابع قوى الانتاج ، في الوقت الذي أصبح فيه ذلك ممكناً وضرورياً

إذن تستحيل الاشتراكية بدون شروط موضوعية مرتبطة بمرحلة تاريخية

معينة،ففي بلد،لم تنم فيه الصناعة نمواً كبيراً كالصين ، مثلاً، لا تستطيع البروليتاريا، وقد أصبحت في الحكم ، ان تفكر باقامة الاشتراكية قبل ايجاد الاسس التي تقوم عليها ، أي ايجاد صناعة قومية كبرى ، ولهذا تظل طريقة الانتاج الرأسماليـة ، لفترة معينة ، جانباً من الاقتصاد .

يعني هذا انه ليس بمقدور أي شخص أن يزيل قوانين الاقتصاد؛ إذ لا تنفع ارادة الناس ، الذين تقودهم مصلحتهم الطبقية ، إلا إذا اعتمدت على القوانين الموضوعية . ولهذا كانت « النزعة الارادية » فلسفة خاطئة لانها تعتقد بان ارادة الانسان ، التي تعمل خارج نطاق معرفة قوانين الطبيعة والاقتصاد ، مطلقة .

ويذكر ستالين ، في حديثه عن بناء الاشتراكية ، ان هذا الامر كان صعباً معقداً، بالنسبة لسلطة السوفيات، ولكنهم مع ذلك قاموا به خير القيام.

وليس ذلك لانهم ازالوا القوانين الاقتصادية الموجودة و « كوّنوا » قوانـين جديدة ؛ بل لانهم اعتمدوا على قانون اقتصادي،هو قانون الترابط الضروري بين علاقات الانتاج وبين طابع قوى الانتاج ، وإلا لما استطاع السوفيات تحقيق هذه المهمة بدون هذا القانون والاعتماد عليه[١] .

ثم يشير ، فيما بعد ، إلى ان المصلحة الطبقية هي التي كانت تشرف على استخدام هذا القانون .

استخدمت الطبقة العاملة قانون الترابط الضروري بين علاقات الانتاج وبـين طابع قوى الانتاج فقلبت أوضاع علاقات الانتاج البورجوازيـة ؛ وأوجدت

---

(١) راجع ستالين : « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » في مؤلفات أخيرة ص ١٥١

علاقات انتاج جديدة ، اشتراكية ، وعملت على التوفيق بينها وبين طابع قوى الانتاج . ولم تستطع القيام بهذا، بفضل مواهبها الخاصة، بل لان ذلك كان مهاجداً، بالنسبة اليها[1].

٤ ـ قانون الاشتراكية الاساسي

لا تستطيع الثورة الاشتراكية ، مع ذلك ، الاكتفاء باستخدام قوى الانتاج التي تركتها الرأسمالية أستخداماً حقاً. إذ يجب أن تقدر أنه مهما كانت قوى الانتاج التي نمتها الرأسمالية ، فهي لا تكفي لسد حاجات المجتمع الاشتراكي ، وذلك لان الرأسمالية ، في مرحلتها النهائية ، مهما كانت متقدمة تقنياً ، تهدم قوى الانتاج ، كما أن نمو قوى الانتاج في النظام الرأسمالي إستبدادي تماماً؛ واخيراً فإن استهلاك جماهير الشعب ضعيف جداً في النظام الرأسمالي ، فلا تستطيع سوى طائفة ضئيلة من المستغلين التمتع برغد العيش ، وهكذا لا يمكن المقارنة بين كمية المنتوجات التي يستهلكها المجتمع الرأسمالي وبين حاجات الجماهير الحقيقية التي يسعى المجتمع الاشتراكي لسدها الى أقصى حد ، وذلك لان الاشتراكية ليست تعميم البؤس بل هي تعميم الرخاء .

لا اشتراكية ، إذن ، بدون زيادة الانتاج بصورة هائلة لا يمكن تخيلها في النظام الرأسمالي ، وهذه ضرورة موضوعية ، بيد أنه كي نستطيع انتاج سلع للاستهلاك ، بكميات كبيرة ، وزيادة حجمها باستمرار ، لا بد من البدء بانتاج

---

(١) راجع ستالين: نفس المرجع ، ٣ آ ص ٢٠

وسائل الانتاج بكميات كافية . والعمل علي تبديلها وازديادها ، ولهذا وجب أن يبدأ ارتفاع الانتاج بازدياد انتاج وسائل الانتاج . وهـــذا يعني ان احد شروط الاشتراكية الموضوعية هو ايجاد صناعة ثقيلة قوية تستطيع ، مثلا ، ان تمـــد الزراعة بكميات كبيرة من التركتورات . ونمو هذه الصناعة . إذ ليس ازدهار قوى الانتاج القوى ظاهرة امكنت بزوال الملكية الخاصة فقط ، بل هي أيضاً ، كما رأينا ، ضرورة موضوعية تتطلبها قوى الانتاج الاشتراكية الجديدة .

يعني هذا ان علاقات الانتاج الجديدة قد أصبحت القوة الرئيسية التي تعمل على تنشيط نمو قوى الانتاج الى أقصى حد . وكانت قوى الانتاج ، تتطلب ، قبل الثورة الاشتراكية ، تغيير علاقات الانتاج ، فأصبحت علاقات الانتاج الجديدة تتطلب ، بعد الثورة الاشتراكية ، نمو قوى الانتاج :

غير أن نمو قوى الانتاج لا يمكن أن ينحصر في زيادة معدات الطبقة العامـــلة أو زيادة كميات الانتاج وآلاته . لأن ازدياد حاجات السكان ، الذين لا يكفون عن التضخم ، يتطلب ارتفاع انتاجية العمل ، بيد أن هذه الانتاجية تتعارض مع أهداف الاشتراكية إذا كانت نتيجة لارهاق العامل ، « فيعمل كالعبد » كما لمح الى ذلك ليون بلوم . ولا يمكن زيادة انتاجية العمل وتخفيض وقت العمل وتعب العمال إلا بتقدم آلات الانتاج نوعياً ، وذلك باستخدام تقنيه الطليعة ، واستعمال الآلة في الاعمال الشاقة ، الخ.. ومن ثمّ تعمل الاشتراكية ، نتيجة لهذه القوانين الموضوعية ، على تنمية العلم لا محالة ، من علم الآلة (mécanique) حتى علم المحضيات (agronomie) بمقادير لم تعرفها البلاد الرأسمالية ، وكذلك تتطلب الاشتراكية ارتفاع صفة العامل بحيث يتسرب الفكر ، شيئاً فشيئاً ، الى العمل اليدوي في اتصاله بتقنية عليا.

تلك هي العناصر الضرورية لنمو المجتمع الاشتراكي . وينتج عن ذلك وجود

قانون اقتصادي أساسي للاشتراكية ، وهو قانون موضوعي مستقـــل عن ارادة الناس .

يمكن صياغة صفات القانون الاقتصادي الأساسي للاشتراكية ومتطلباتـــه بما يلي تقريباً .

تأمين سد حاجات المجتمع المادية والثقافية ، المتزايدة باستمرار ، الى أقصى حد ، وذلك بتنمية الانتاج الاشتراكي ، وتحسينه باستمرار عـــلى أساس تقنية عليا .

ولهذا ، فبدلا من تأمين أقصى الارباح ، نؤمن سد حاجات المجتمع الماديـــة والثقافية الى أقصى حد؛ وبدلا من تنمية الانتاج مع فترات توقف ــ من الازدهار الى الأزمة ومن الأزمة الى الازدهار ــ نزيد ، بدون توقف ، الانتاج ؛ وبدلا من توقف التقدم التقني في فترات معينة ، مع ما يصحب ذلك من تخريب قوى المجتمع الانتاجية ، يستمر تحسين الانتاج على أساس تقنية عليا[1] .

من المهم ان ندرك جيداً ان التقدم الرائع في الصناعة والزراعة، الذي نشهده في المجتمع الاشتراكي، ليس هدفاً في ذاته ، فالتقدم التقني هو أساس نمو الانتاج ؛ كما أن هذا النمو مرتبط بضرورة موضوعية أساسية في الاشتراكيـــة ، الا وهي سد حاجات جميع أفراد المجتمع المتزايدة باستمرار الى أقصى حد . وهـــذه ضرورة موضوعية ، لأن زوال استغلال الانسان لاخيه الانسان يعني ان العمال يعملون من أجل أنفسهم. فهدف الانتاج إذن، بالضرورة، هو سد حاجات المجتمع الى أقصى حد،

---

(١) راجع ستالـــين : « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » آخر مؤلفات ص ٢٣٠.

وذلك في أفضل ظروف العمل . فما هي هذه الحاجات ؟ الحاجات المادية ، والحاجات الثقافية. هدف الانتاج الاشتراكي ، إذن ، هو « الانسان وسد جميع حاجاته[1] » . وهكذا ليست الاشتراكية « مدنية تقنية » تتلهف للقيام بأعمال مادية رائعة ، دون أن تعبأ بالانسان ، كما يدعي المفكرون البورجوازيون . ذلك لان الانسان في تمام تفتحه هو مركز الاشتراكية، وليس لجميع الاعمال المادية من هدف سوى سد حاجاته على أفضل وجه : كحاجته الى المعرفة والثقافة ، وحاجته الى العيش الكريم ، أي العناصر المختلفة لحياة سعيدة . فالاشتراكية هي تحقيق النزعة الانسانية .

٥ - الشروط الذاتية للانتقال الى الاشتراكية ولنموها

لا تجعلنا الماركسية نعرف علميا فقط الشروط الموضوعية الاشتراكية ونموها بل هي تعرفنا أيضاً على الشروط الذاتية التي تتعلق بتأثير الناس في التاريخ تأثيراً واعياً .

فنحن نعلم أن الطبقة الرأسمالية تعترض بكل الوسائل فعل قانون الترابط الضروري ، وانها تحاول انقاذ طريقتها في الانتاج بفضل عمل الدولة ، وانه لا يمكن ازالة هذا السد، الذي تقيمه أمام التقدم، إلا بعمل البرو ليتاريا الواعي وحلفائها الذين يؤلفون القوة الاجتماعية الضرورية للتغلب على مقاومة الرأسماليين (راجع الدرس التاسع عشر ، المسألة ٣) .

---

(١) م . توريز : تحية الى المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي .

أول شرط ذاتي لبناء الاشتراكية هو أن تكوّن البروليتاريا لنفسها حزباً ثورياً حقاً بعد أن اتحدت مصالحها مع مصلحة الامة .

فإلام يجب أن يؤدي هذا العمل الجماهيري الثوري ؟ الى تحطيم الحاجز الوحيد الذي يختبيء وراءه الرأسماليون ، الذين حكم عليهم التاريخ بالموت ، الا وهو الدولة البورجوازية ، وتنظيم سلطة جديدة للدولة تستطيع القضاء على ملكية وسائل الانتاج الخاصة . هذه السلطة الجديدة للدولة هي ديكتاتورية البروليتاريا .

وديكتاتورية البروليتاريا هي الوسيلة التي لا يتم تغيير علاقات الانتاج بدونها. فكل منا يدرك أنه يستحيل أن تقوم نقابات العمال فجأة بالاستيلاء على ممتلكات الرأسماليين ، وتنظيم الانتاج الاشتراكي ، انتاج العمال الذين اتحدوا في المنظمات وتقاسموا ثمرة عملهم ! لانها لو فعلت ذلك لاخطأت في تقدير عمل الدولة البورجوازية السياسي العنيف ، حامية الرأسمالية[1] .

ولقد عبر ماركس عن مهمة دكتاتورية البروليتاريا الأساسية بوضوح فقال :

تستخدم البروليتاريا تفوقها السياسي لتنتزع ، شيئاً فشيئاً ، كل الرأسمال من البورجوازيــة ، ولجعل جميع وسائل الانتاج بين يدى الدولة ، أي بين يدي البروليتاريا، وقد تنظمت في طبقة مسيطرة ، وزيادة كمية قوى الانتاج بأسرع ما يمكن[2] .

---

(١) يضاف الى ذلك انه لما كانت قوى الانتاج الرأسمالية قد بلغت هذا المستوى من التقدم فان ملكية وسائل الانتاج الاجتماعية يجب ان تتحقق ضمن النطاق القومي،اي على يد سلطة الطبقة العاملة السياسية القومية لانها الوحيدة التي تستطيع تحقيق ذلك .

(٢) ماركس وانجلز : بيان الحزب الشيوعي ، ص ٤٨ .

والمرحلة التاريخية التي تقوم فيها دكتاتورية البروليتاريا هي مرحلة يبلغ فيها النضال الطبقي أقصاه . إذ يستمر النضال ضد بقايا الطبقات الزائلة وضد محاولات البورجوازية لاعادة الرأسمالية بعد مضي زمن طويل على قضاء الاشتراكية على التناقضات الاقتصادية ، حتى تنتصر الشيوعية في معظم أجزاء الكرة الارضية .

وليست دكتاتورية البروليتاريا غاية نضال الطبقات ، بل هي استمرار له في صور جديدة . لأن دكتاتورية البروليتاريا هي نضال البروليتاريا المنتصرة الطبقي بعد أن استولت على الحكم السياسي ، ضد البورجوازية المغلوبة على أمرها وان لم تفن وتختف ولم تكف عن المقاومة بل زادت من هذه المقاومة[1] .

وقد كتب لينين يقول :

من يعترف فقط بنضال الطبقات لم يصبح بعد ماركسيا ، إذ يمكن ان يكون لم يخرج بعد من نطاق التفكير البورجوازي والسياسة البورجوازية . ولهذا فان قصر الماركسية على عقيدة نضال الطبقات تشويه لها وجعلها مقبولة من البورجوازية ، والماركسي هو الذي يعترف بنضال الطبقات كما يعترف بدكتاتورية البروليتاريا[2] .

كما كتب يقول :

ان السبب الأساسي لعدم فهم الاشتراكيين لدكتاتورية البروليتاريا هو أنهم يذهبون حتى النهاية مع فكرة النضال الطبقي[3] .

---

(١) لينين : ذكره ستالين : مسائل اللينينية ، ج ٢ ، ص ٢٢٤

(٢) لينين الدولة والثورة ، ص ٣٥ .

(٣) لينين : « حول دكتاتورية البروليتاريا » ، في « الدولة والثوره » ص ١٤٥

دكتاتورية البروليتاريا هي سيطرة طبقية . سيطرة على من ؟ على الرأسماليين ومختلف فئات المستغِلين ، والمهربين والمقامرين الذين يعيشون على فساد الرأسمالية ويدعمون سلطتها كدولة .

وهكذا تكوّن دكتاتورية البروليتاريا سلطة دولة من نوع جديد تماماً . فلقد كانت جميع السلطات السياسية التي عرفها التاريخ سابقاً تمثل سيطرة طبقات مستغِلة وسيطرة الاقلية على الاكثرية . أما دكتاتورية البروليتاريا فهي تمثل ، لأول مرة ، سيطرة المستغَلين على المستغِلين . ولهذا تحظى بعطف سائر الطبقات الاجتماعية الكادحة ، المستغَلة ، المضطهدة ، وتأييدها . فهي إذن تمثل سيطرة الاكثرية على الاقلية ، وحكمَ العمال .

ولا يمكن لهذه السيطرة ان تقوم وتستمر وتتوطد الا بفضل عمل الجماهير الكادحة الواعي المنظم ، وبفضل نشاطها السياسي ومبادرتها المبدعة .

ولا تشعر هذه السيطرة بالقلق والحيرة بصدد « الشرعية » البورجوازية التي هي التعلة الفكرية للعهد السياسي والنظام الاقتصادي اللذين يجب القضاء عليهما وازالتهما . ولهذا توجد الجماهير المتحركة شرعية جديدة تتفق ومصالح الأمة فتنمو بذلك الحريات الديمقراطية بشكل واسع .

ولا يمكن لهذه السيطرة أن تستخدم آلة الدولة البيروقراطية البورجوازية التي اقيمت بكل تفاصيلها لاضطهاد الاكثرية . ولهذا تحطم الجماهير المتحركة النزعة البيروقراطية التي فرضت عليها من عل وتقيم مكانها ادارة من نوع جديد تشرف عليها بنفسها وتعمل تحت انظار الشعب .

ليست دكتاتورية البروليتاريا وسيلة فقط للسيطرة ، بل هي أيضاً وسيلة للتحالف بين البروليتاريا والفلاحين العمال والطبقات الوسطى . فهي ضرورية

لتوجيه حلفائها في الطريق الذي يتفق والمصلحة القومية . ولما كانت دكتاتورية البروليتاريا هي سيطرة الاكثرية على الأقلية، فهي الديمقراطية بالنسبة للعمال والجماهير، لانها نهاية النير السياسي الذي تفرضه البورجوازية على الجماهير، ولهذا فإن دكتاتورية البروليتاريا هي تحرير سياسي يقوم على الضغط السياسي للقضاء على الاعيب البورجوازية. وهكذا يتمتع الشعب، لأول مرة، بديمقراطية هي ديمقراطيته، وتقبل ملايين الناس، لأول مرة، على حياة انسانية، فيرفع الفلاحون، في الصين، مثلا، رؤوسهم، في أقصى الدساكر، بعد أن كانوا يعاملون كالبهائم، ويشعرون بأنهم مواطنون، وأنهم مسؤولون عن الممتلكات العامة . ذلك هو فضل دكتاتورية البروليتاريا العميم. فهي تهب حياة واعية نشيطة لهذه الجماهير الشعبية التي سدت في وجهها جميع السُبُل، ولما كانت دكتاتورية البروليتاريا، لأول مرة، ديمقراطية من أجل الشعب، فهي بذلك أسمى صورة للديمقراطية، وهي تمثل مرحلة انتقال، انتقال من الديمقراطية البورجوازية، ودكتاتورية رأس المال، الى ديمقراطية بروليتارية أو شعبية، من ديمقراطية المضطهِدين الى ديمقراطية الطبقات المضطهَدة. وأصبحت الدولة، التي كانت حتى ذلك الحين القوة المخصصة لاضطهاد الاكثرية، التعبير عن قوة أغلبية الشعب العامة، وقوة العمال والفلاحين حلفائهم ضد المضطهدين .

إذ لا يمكن أن تتوفر «الحريات» الحقه للمستغلين ومشاركة البروليتاريين والفلاحين في ادارة البلاد مشاركة حقيقية، الا في ظل دكتاتورية البروليتاريا[1] .

ولما كانت الدولة، التي تقوم بوظيفة دكتاتورية البروليتاريا، لا تعتمد فقط على

---

(١) راجع ستالين : حول مبادىء الفلسفة اللينينية ص ٣٧ .

قوة خاصة للضغط ، بل على قوة غالبية الشعب العامة ، فقد تغير بهذا طابعها . فهي دولة من نوع جديد . ولهذا فإن تقوية هذه الدولة المستمر ، الذي لا مفر منه طالما ان البورجوازية تقهر ولم يُقض عليها كطبقة في العالم اجمع، يعني، قبل كل شيء ، تقوية نشاط الشعب السياسي الواعي . أما « تقوية » الدول البورجوازية ، فهي ، على العكس ، لا تعني سوى زيادة قوتها البوليسية ، ومحاولة كتم نشاط الشعب السياسي . وهكذا نرى أن تقوية دكتاتورية البروليتاريا هي نقيض «تقوية» دول الطبقات المستغِلة ؛ ولهذا كانت تقوية دكتاتورية البروليتارية هي ، في نفس الوقت ، اضمحلال حقيقي لمعالم « الدولة » التقليدية ، لأن مسلك الشرطة الشعبية ، وعلاقاتها مع جماهير الشعب، لا تقارن بمسلك وعلاقات شرطة الدولة البورجوازية إذا كان لنا أن نتحدث ، في هذه الحالة الأخيرة ، عن علاقات مع جماهير الشعب! كما لا يشبه مَسلك جيش شعبي مسلك جيش استعماري : ولقد لاحظ ذلك العالم بأجمعه عند تحرير الصين . ولا توضع سياسة الدولة الجديدة في أوساط « المختصين » الضيقة المغلقة . بل هي تتكون وسط جماهير الشعب وطليعتها : فيظل النائب الكولخوزي عاملا في كولخوزه .

وتتنوع الصور التاريخية التي تتخذها ممارسة دكتاتورية البروليتاريا . وكانت أول صورة هي صورة كومون باريس(La Communé de Paris).والديمقراطية الشعبية صورة أخرى لها . وأما الصورة التقليدية فهي سلطة السوفيات .

ظهرت سوفيات (أو مجالس) نواب العمال ، في روسيا، أثناء ثورة ١٩٠٥ . ولقد أوجدت جماهير الشعب المتحركة هذه الصورة للسلطة السياسية ، جعلت ثورة تشرين الاول سنة ١٩١٧ « كل السلطة للسوفيات ». والسوفيات هي أوسع منظمة شعبية للبروليتاريا وجميع المستغَلين ، وهي المنظمة المباشرة لجماهير

الشعب نفسها ، فهي تقرر ، وتنفذ ، وتراقب بنفسها تنفيذ قراراتها . وهي تملك ، على عكس المجالس النيابية البورجوازية (القومية والمحلية) كل السلطة التنفيذية والتشريعية ، فهي منظمات سلطة الدولة ، المحلية والمركزيـة ، ولما كانت اكثر انواع الديمقراطية تقدماً في العالم فإنه يمكن للناخبين تنحية أعضائها في كل لحظة .

ولقد كرس دستور ستالين ، وهو انعـكاس للأساس الاقتصادي الجديـد ، هذا الوضع ، بقوله :

تنتمي كل السلطة في الاتحاد السوفياتي الى عمال المدينة أو القرية ، وذلك في شخص سوفيات نواب العمال (المادة ٣).

ولهذا فليس في الاتحاد السوفياتي شخص يُسمح له بالخروج على القانون . وان كان هذا لا يسر المفكرين البورجوازيين الذين يجعلون من الاشتراكية مثيلا للفاشية . ذلك لأن الدكتاتورية الفاشية ، التي اقامتهـا اكثر عناصر رأس المال الكبير رجعية ، لا سلاح بين يديها سوى سلاح الاضطهاد والارهاب ؛ فهي تدوس بأرجلها الشرعية البورجوازية نفسها . بينما تستمد الديمقراطية الاشتراكية ، على العكس ، قوتها من تأييد العمال؛ فهي لا توجد إذن إلا إذاضمنت لهم ممارسة حقوقهم الخاصة والعامة . وعلى الحكومة السوفياتية ، كأي مواطن ، أن تحترم الدستور وان تلتزم بنصوص القوانين. وهي لا يمكنها أن تتصرف بصورة أخرى دون أن تفقد كل سلطتها :

وهكذا يكون مثل روسو الأعلى ـ الديمقراطية كتعبير عن الارادة العامة ـ قد تحقق تماماً بواسطة دكتاتورية البروليتاريا ، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بالغاء تعارض الطبقات الاقتصادي .

مهمة الدولة السوفياتية ، التي تعتمد على نشاط جماهير الشعب الواعي ، ضخمة في بناء الاشتراكية . والسلطة الجديدة شرط ذاتي ضروري لظهور علاقات انتاج جديدة ، وذلك لأنسلطة البروليتاريا لها ميزة خاصة بها،وهي أنها تسبق، تاريخياً أساسها الاقتصادي؛ولهذا كان عليها أنتوجد أساسها الخاص بها. بينما كان علىالسلطة البورجوازية ، على العكس ، أثناء الثورة البورجوازية ، ان توفق بين سيطرة البورجوازية السياسية والاقتصاد البورجوازي الموجود سابقاً . يضاف الى ذلك انه كان على الثورات السابقة على الثورة البروليتارية ان تحل صورة من الاستغلال (البورجوازي) محل صورة أخرى من الاستغلال (الاقطاعي) ؛ بينما تقضي الثورة البروليتارية على كل استغلال ، وهذا يزيد في أهمية الدولة .

حتى إذا ما وجد الأساس الاقتصادي الاشتراكي ، كانت الدولة السوفياتية انعكاساً لأساسها الاقتصادي ، وامكن التعبير عن حقيقة الوقائع في صورة جديدة ألا وهي الدستور الستاليني لعام ١٩٣٦ .

ويمتاز الدستور السوفياتي بميزة خاصة به وهي أنه بدلا من اعلان حقوق مجردة مرجئاً الى ما بعد ايجاد الظروف المادية التي تسمح بممارسة هذه الحقوق ـ كما تفعل الدساتير البورجوازيـــة ـ فقد كرس وجود حقوق واقعية وجدت أسسها المادية ، مثال :

للمواطنين في الاتحاد السوفياتي حق العمل ، أي حق الفوز بعمل مضمون مأجور حسب كميته ونوعه .

وحق العمل مضمون بتنظيم الاقتصاد القومي الاشتراكي ، ونمو قوى الانتاج المستمر في المجتمع السوفياتي،وإزالة امكانية الأزمات الاقتصادية والقضاءعلى البطالة (المادة ١١٨).

فهل يعني هذا ان الدولة السوفياتية تكتفي بعكس أساسها الاقتصادي بصورة سلبية ؟ كلا ! فهي لا تكف ، في أي وقت ، عن ان تكون قوة فعالة تسرع في تنمية الاقتصاد الاشتراكي وتخطيطه بصورة مناسبة ، معتمدة في ذلك على معرفتها بقوانين الاقتصاد الموضوعية .

هناك شيئان ضروريان للدولة السوفياتية للقيام بمهمتها وهما :

١) معرفة قوانين الطبيعة والمجتمع ، أي العلم .

٢) تأييد الجماهير الواعي بعد أن تمثلت الافكار الجديدة . فيزداد من جراء ذلك الدور الضخم الذي تقوم به الاشتراكية العلمية أثناء قيام سلطة البروليتاريا السياسية . ولهذا فإن النضال الواعي ضد الأفكار البورجوازية، ونشر الماركسية اللينينية بين جماهير الشعب ، وايجاد ثقافة جديدة ، قومية في صورتها ، اشتراكية في محتواها ، كل ذلك شروط ذاتية ضرورية لبناء الاشتراكيـــة .

كلما تقدم بناء الاشتراكية كلما ازداد الدور التربوي والثقافي الذي تقوم بـه الدولة السوفياتة ، وهي دولة من نوع جديد . ولا يعني ازدياد دور الدولة ازدياد « الضغط الاستبدادي » الذي يتحدث عنه أعداء الماركسية . هذا الدور الجديـد للدولة لا تجهله تقريباً الدول البورجوازية أو الرأسماليـــة ، التي لا تستطيع رفع مستوى الجماهير الثقافي والفكري بدون المخاطرة بمصير الطبقة المسيطرة ! ولهذا تهتم الدولة الرأسمالية، بصورة رئيسية، بمتطلبات الاضطهاد. بينما تصبح دولة العمال، على العكس ، مع معرفتها كيفية الدفاع عن وجودها، المركز الموجّه ، شيئاً فشيئاً، لعمل الجماهير الخلاق ، سواء في الميدان الاقتصادي أم الميدان الثقافي : فهي منظم الجماهير ومربيها ، وليست عدواً لها ، ولهذا يعني ازدياد دور الدولة السوفياتية ،

هنا أيضاً ، اضمحلال صفات الدولة « التقليدية » !

ولهذا تهتم الدولة نفسها بالثورة الثقافية ، وإذاعة الأفكار والعلم التقدمي بين الشعب ، رانتصار الافكار الاشتراكية على الافكار البورجوازية، وذلك حسب تعاليم المادية الجدلية حول مهمة الافكار في الحياة الاجتماعية . بينما أوجد تحول علاقات الانتاج الظروف لظهور وعي جديد في الجماهير،وذلك بازالة الأسس الموضوعية للأفكار البورجوازية : وهي ملكية وسائل الانتاج الخاصة . ولهذا لم يوجد الوعي الجديد الاشتراكي من العدم : ومهمة الدولة هي التوفيق ، بقدر الامكان ، بين وعي الجماهير وبين الظروف الجديدة الموضوعية ، الاشتراكية ، وان تسرع في العملية التي تعمل على ظهور صورة جديدة من الوعي تتفق والمحتوى الجديد . وكذلك يجب دفع الوعي الاشتراكي ، الى الأمام ، في نفس الوقت ، وذلك بفضل معرفة قوانين المجتمع. حتى تستطيع معرفة سير النمو والتعجيل في النمو الاقتصادي وذلك بتأثيرها بدورها في الشروط الموضوعية . وهكذا نرى ان الشروط الموضوعية والشروط الذاتية ، في المجتمع الاشتراكي ، لا تتناقض بل تؤثر تأثيراً متبادلاً وتدعم كل منها الأخرى . ولهذا يمكن للمجتمع الاشتراكي ان ينمو مادياً وثقافياً بشكل لا يعرفه المجتمع البورجوازي . كما كان التنافس الاشتراكي مثالا على أهمية وعي الجماهير الجديد بالنسبة لنمو الانتاج الاشتراكي. وعلى الأدب والفن ان يقوما بدور مهم في هذا التحويل للوعي : فيصبح الفنانون ، حسب قول ستالين « مهندسي النفوس » .

يتضح أخيراً ان جميع المهمات الملقاة على عاتق الدولة الاشتراكية لم يمكن تحقيقها ــ منذ الفوز بدكتاتورية البروليتاريا حتى الثورة الثقافية ــ لو ان الطبقة العاملة وحلفاءها لم يكن على رأسها جماعة واعية منظمة، أي حزب سياسي ، مرتبط بالجماهير ، ومسلح بالنظرية الماركسية اللينينية عن المجتمعات الا وهو الحزب

الشيوعي . ويزداد دور هذه الطليعة، التي تضيء طريق المجتمع الاشتراكي وتوحد النظرية مع التطبيق، كلما ظهرت متطلبات جديدة، مادية او ثقافية، وكلما ازداد دور الدولة السوفياتية .

٦ - الخـلاصـة

القانون الاقتصادي الاساسي للاشتراكية هو قانون موضوعي ، وذلك لأن سدّ رغبات الجماهير المادية والثقافية الى أقصى حد ليس ثمرة « الاختيار الحر » للحكومة، ولا يمكن ان يكون كذلك ، بل هو النتيجة الضرورية لاشتراكية وسائل الانتاج.ولا تستطيع سوى سلطة الطبقة العاملة ان تعطي للجماهير ما تعدهم به لأنها جعلت وسائل الانتاج اشتراكية ، ولأنها تعتمد على القانون الموضوعي الذي يميز علاقات الانتاج الجديدة . ومما يميز النظرة الماركسية للاشتراكية عن النظرات الخيالية (الأوتوبية) (utopiques) هو انها تجعل مطلب الجماهير الذاتي منذ آلاف السنين يتفق ومتطلبات القانون الاقتصادي الأساسي لنوع من الانتاج قد حدد بصورة علمية . وهذا ما يفسر نجاح بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي بقيادة الحزب الشيوعي ، وليس بسبب « اختيار حر » او حظ سعيد بل لانه كان ملماً بعلم المجتمعات » .

ويرد اعداء الاشتراكية ، وهي البورجوازية الرأسمالية ، بأن نجاح بناء الاشتراكية لا يمكن تحقيقه إلا باستعباد الفرد . فيزعمون ان الاشتراكية تقضي على الشخصية الانسانية كما تقضي على الطاقة الشخصية والمبادرة الشخصية، وكذلك تقضي على طاقات الافراد ومواهبها وحقوقها وحرياتها ؛ وانها تسوى بين الحاجات والاذواق.والحقيقة هي أن الرأسمالية، باستغلالها وتشويهها للعمال جسدياً وفكرياً

تقضي على عالم من المصالح الروحية والمطامح والطاقات الانسانية وتجعل من العامل تبعاً للآلة ، وتشوهه في فرديته الجسدية والاخلاقية ، وتستعبده في العمل ، تحت ظل نظام يقوم على الاضطهاد والمجاعة والبطالة ، يبعث القلق في حياته ويجعل من الناس آلات متحركة (Robots) .يقف الانسان وحيداً أعزل أمام الرأسمالية ، وليس هناك من وسيلة لتحريره سوى اتحاد المستغلين المضطهدين ، والنضال الثوري . ولقد قال ستالين عام ١٩٠٦ : « الشعب هو حجر الزاوية في الماركسية » لانه بدون تحرير جماهير الشعب لا يمكن تحرير الفرد : فهو الشرط الاساسي لتحرير الفرد .

ويؤكد أنصار الرأسمالية ان كل انسان ، في ظل الرأسمالية ، ذي عزيمة وجرأة ، يستطيع ولو كان معدماً ، ان « يخط طريقه » ويحتل مكانة تناسب كفاءاته . ويذكرون ، بهذا الصدد ، « أمثلة موفقه » عن ماسحي احذية أصبحوا من أصحاب الملايين : ولكنهم لا يكشفون عن ان « نجاح » البعض انما يدفع ثمنه آلاف العمال المستغلين . وتدل ضرورة « خط الطريق » في النظام الرأسمالي ان وضع الناس في المجتمع البورجوازي يحدده مدى الملكية الخاصة . ولا يحتل مراكز الادارة إلاّ ممثلو الطبقات « العليا » . وهكذا يتحدد وضع الناس حسب ثروتهم أو طبقتهم أو ملتهم أو أصلهم القومي ، أو جنسهم ، أو طائفتهم ، أو محالفاتهم أو من يلوذون بهم ، الخ . ذلك هو « الوضع » الذي يعتبره « مفكرو » الرأسمالية و « اخلاقيوها » « خالداً » و « منطقياً » معقولا يمكن تصوره . فيمتدحون « الطاقات الخلاقة » عند آل كروب ، وستين ، ومورجان ، وروتشيلد ، وروكفلر ، وفورد ، وبوساك للتدليل على أن لهم الحق في احتلال مركز رئيسي ، غير ان كل واحد منا يعلم ان « الطاقات الخلاقة » عند الرأسماليين إنما ترجع لبراعتهم في سلب فائض القيمة من

العمال المأجورين ، وان مقـــدار رأسمالهم فقط هو الذي يحدد وضعهم المسيطر . وهذا ما يحدد « قيمة » الانسان في النظام الرأسمالي .

أما في الاشتراكية فإن ارتفاع الفرد ، ونمو طاقاته ومواهبه الخلاقة يشترط ارتفاع طاقات جماهير الشعب الخلاقة ، نفسها . ولقد برهن لنا قانون الاشتراكية الاقتصادي الأساسي على مهمة التقنية التقدميـــة ؛ كما أشارت دراسة شروط الاشتراكية الذاتية الى أهمية الوعي الاشتراكي الذي هو قوة هائلة نشيطة للمجتمع الجديد .

ويجب أن ندرك من هذه الدارسة المزدوجة ان الاشتراكيـــة تنمي شخصية العامل في جميع جوانبها : فتجعل منــــه عاملا تقنياً (Technicien) مثقفاً ؛ كما تجعل منه انساناً اجتماعياً يملك معرفة واسعة عميقـــة لمشاكل المجتمع ، فهو بناء واعٍ لحياة جديدة . وبدلا من ان يبقى نمو الفردية الانسانيـــة المتعدد ، ونمو الطاقات الشخصية ، ظاهرة وحيدة ، كما هو الحال في الرأسمالية ، يصبح ذلك في الاشتراكية ظاهرة شعبية منتشرة . فالتنافس الاشتراكي دليل حي على الامكانات التي تتاح للمبادرة الشخصية والذكاء الخلاق عند الجميع . ولهـــذا يُعَد في الاتحاد السوفياتي بالملايين المجددون ، والمخترعون والعمال المختصون ، والمجربون في الزراعة ، ومنظمو الأنتاج والاقتصاد ، والمفكرون الذين انحدروا من الشعب ، والرجـــال والنساء الذين يمارسون نشاطاً اجتماعياً وسياسياً ، والعمال الذين يمكنهم الاشتراك في نقاش علمي ، أو مسابقة أدبية أو فنية ، والعديد من أبطال العمل الاشتراكي ، والفائزون بجائزة مالية ، ولا يحتل الانسان حقاً مكانة تليق بمواهبه ، بدون اعتبار للاصل او الجنس او الثروة ، إلا في المجتمع الاشتراكي .

الاشتراكية هي حقاً حكم الجماهير الشعبية ، وملايـين الناس الذين كانوا ضحايا الاضطهاد وحرموا ، بواسطة الاستغلال ، من كل نمو انساني . هذه الجماهير الشعبية هي التي تصنع التاريخ، لأنها الوحيدة التي تستطيع القضاء عـلى سلطة رأس المال . حتى إذا ما تحررت من نير الاستغلال أقامت لنفسها حياة جديدة ، وهي، بإزالتهـا لاستغلال الانسان لأخيه الانسان ، قد وفقت بين الفرد والمجتمع ووضعت في يد كل انسان الوسائل كي يتفتح تماماً .

الدرس الواحد والعشرون

من الاشتراكية الى الشيوعية

١ ــ مرحلة المجتمع الشيوعي الأولى .
٢ ــ « « « العليا .
٣ ــ قوى الإنتاج وعلاقات الانتاج في الاشتراكية .
٤ ــ شروط الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية .
٥ ــ الخلاصة .

رأينا ان هدف الاقتصاد الاشتراكي ، حسب قانون الاشتراكية الأساسي، هو سد حاجات المجتمع المادية والثقافية الى أقصى حد . ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك طالما ان الملكية الخاصة قد زالت .

ولا يعني هذا ، مع ذلك ، انه يمكن لكل عضو في المجتمع أن ينال ما يحتاجه بصورة غير محدودة . إذ أن كل فرد ، في المجتمع الاشتراكي، ينال حسب العمل الذي يؤديه ، ولهذا يجب التمييز بين مرحلتين في نمو المجتمع القائم على الملكية الاجتماعية ؛ مرحلة أولى وتسمى «الاشتراكية» ومرحلة عليا تسمى « الشيوعية». وقد أقام ماركس هذا التمييز بصورة علمية .

١ - مرحلة المجتمع الشيوعي الأولى

ليست الاشتراكية ، التي درسناها ـــ إذا نظرنا اليها بالنسبة للمجتمع الشيوعي الذي أتم نموه ، سوى مرحلة أولى ، وهي تقوم على المبدأ التالي : « على كل فرد أن يؤدي حسب طاقاته ، وأن ينال حسب عمله » . غير أن مبدأ الشيوعية هو « على كل فرد ان يؤدي حسب طاقاته ، وأن ينال حسب حاجاته » . ولا شك أن العثرة الرئيسية التي تحول دون أن ينال كل فرد حسب حاجاته ، في العالم الحديث ، هي الأستغلال الرأسمالي الذي يبذر ثروات العمل الانساني ، والنتيجة الاولى لازالة استغلال الانسان لأخيه الانسان هي ان العامل يستطيع ان ينال حسب عمله الذي يؤديه دون أن يُسلب جزءاً من الثروة التي انتجها ، اما ان ينال كل فرد حسب ارادته وحاجاته فيجب أن يصل المجتمع إلى انتاج كمية كافية من وسائل الأستهلاك. تحقيق هدف الشيوعية ، إذن ، هو السبب في الاجراءات الاولى التي تتخذها السلطة الجديدة ، وهي تسعى لزيادة الانتاج . غير أن حاجات الفرد اللامحدودة ليست هي التي يمكنها أن تمدنا ، في هذه المرحلة ، بمبدأ التوزيع . وذلك لأن كل زيادة للانتاج ، إذا أريد لها ان تعيش وتستمر ، يجب أن تبدأ بزيادة انتاج وسائل الانتاج ، إذ يجب ، قبل سد حاجات الاستهلاك الفردي ، أن نسد حاجات المجتمع المادية إلى وسائل الانتاج ، ولقد رأينا (راجع الدرس العشرين ، المسألة ٤) ان المجتمع الرأسمالي ، في الغالب ، يترك للاشتراكية وضعاً سيئاً جداً لا يتفق فيه انتاج وسائل الانتاج مع وسائل الاستهلاك . فلقد نمّت الرأسمالية في تشيكوسلوفاكيا مثلا ، صناعة خفيفة وفرت للبورجوازية في هذه البلاد التي سميت « بالمصنع » مستوى عالياً للمعيشة . غير أن هذه

الصناعة الخفيفة كانت تعتمد في مجملها على الصناعة الثقيلة في البلاد الرأسمالية الكبرى.

يتفق قول الاشتراكية إذن : « على كل فرد ان يؤدي حسب طاقاته وأن ينال حسب عمله » مع الواقع ،وهو انه ، في المرحلة الاولى. للمجتمع الشيوعي يجب ايجاد مقياس للاستهلاك .

فاين نجد هذا المقياس ؟ في العمل طبعاً . وذلك لأن كمية العمل الذي يؤديه كل فرد ونوعه هما اللذان يحددان القدر الذي يناله من الانتاج الاجتماعي ، وهذه هي الطريقة الوحيدة العادلة لتقدير حقه في الاستهلاك . يضاف إلى ذلك ان العمل هو الشرط الأساسي لازدهار قوى الانتاج، أي ظهور الشيوعية فيما بعد . وهكذا يجيء الاجر الذي يناله الفرد على عمله لمرحلة يصبح فيها هذا الاجر غير ضروري لتقدير استهلاكه الفردي !

ومع ذلك فإن مبدأ الاشتراكية « على كل فرد ان يؤدي حسب طاقاته وان ينال حسب عمله » يكوّن خطوة كبرى إلى الامام بالنسبة إلى الرأسمالية المستغِلة، حيث لا ينال العامل قط حسب عمله .

يجب على الافراد ، إذن ، في المجتمع الاشتراكي ،أن يحصلوا بواسطة الشراء على السلع الضرورية لمعيشتهم . وهذا الشراء هو الصورة الوحيدة الممكنة لتوزيع سلع الاستهلاك . وبالاضافة إلى ذلك فإن حاجات الجماهير المادية والثقافية تسد إلى الحد الأقصى بواسطة الخدمات الاجتماعية _ كمجانية العناية الطبية مثلا _ والمؤسسات الثقافية التي لا تعرفها الرأسمالية .

ويجب كذلك ان نعرف انه لا يمكن ازدياد الانتاج ، الذي يسمح بتوزيع سلع الاستهلاك حسب حاجات كل فرد ، بدون نمو التقنية الهائل . ويتطلب مثل

هذا النمو التقني ان يبلغ تخصص العمال وثقافتهم درجة اسمى من الدرجة التي بلغوها في الرأسماليه ، التي تحرم الجماهر من الثقافة والعلم . غير أنه طالما ان العمل لم يصبح بالنسبة للفرد حاجة طبيعية كحاجته الى التنفس والمشي ، فالوسيلة لتشجيع التقدم وتخصص العمال هي ان ينال كل فرد حسب نوع العمل الذي يؤديه .

ولهذا تصبح وعود الرأسمالية الخلابة ، التي تريد أن تقنع العمال بانها تستطيع رفع مستوى معيشتهم إذا حسنوا نوعية عملهم،حقيقة،في الاشتراكية ؛ بسبب زوال الاستغلال .

ولهذا يجب ، كي نفهم المرحلة الاولى للمجتمع الشيوعي ، أن الا ننسى واجب المجتمع الشيوعي في تصفية تركة الرأسمالية الثقيلة في جميع المباديء .

ولهذا يقول ماركس وانجلز : « نحن هنا أمام مجتمع شيوعي لم ينمُ حسب الأسس الخاصة به ، بل على العكس ، كما وُلِد في المجتمع الرأسمالي ؛ وهو مجتمع يحمل لذلك في الميادين الاقتصادية والاخلاقية والفكرية سمات المجتمع القديم الذي خرج من صُلبه[1] .

ونحن حين نقول بأن المجتمع الاشتراكي يعطي لكل فرد حسب عمله ، لا نعني بذلك ان كل فرد يأخذ فرديا ومباشرة نتيجة عمله كاملة — لان ذلك وهم البورجوازية الصغيرة ، وذلك لأننا إذا نظرنا الى مجموع انتاج العمل الاجتماعي يتضح لنا أنه يجب أن نحتفظ بقسم منه من أجل تنمية الانتاج وبقسم آخر لتجديد الآلات البالية ، الخ ...وإذا نظرنا لوسائل الاستهلاك رأينا انه يجب ان نحتفظ بقسم منها لتغطية مصاريف الادارة ، وبقسم آخر من أجل المدارس والمستوصفات وملاجيء

(١) ماركس انجلز : نقد برامج غوتا وارفورت ص ٢٣. المطبوعات الاجتماعية باريس ١٩٥٠

الكهول ، الخ ...

يساعدنا كل ما سبق على فهم أهمية المادة ١٢ من الدستور السوفياتي .

العمل بالنسبة لكل مواطن كفء للعمل فرض ومسألة شرف حسب المبدأ القائل : « كل من لا يعمل لا يأكل » .

ولهذا كانت المساواة ، في المجتمع الاشتراكي ، هي في أن تعطي كل فرد حسب عمله ، أي بصورة غير متساوية بين الافراد ، بعد ان يؤمن لكل فرد أسباب معيشته (بفضل ازالة الاستغلال) . ولهذا لا يجب مساواة الاشتراكية بنزعة خيالية للمساواة بين الناس .

كتب موريس توريز يقول : « أما فيما يتعلق بنزعة المساواة التي تقوم على قياس الناس بنفس المقياس فهي استحالة اجتماعية لأن هناك تفاوتاً طبيعياً بين الناس ، سببه كفاءاتهم البيولوجية والنفسية . أما التفاوت، الذي يسعى الشيوعيون لازالته ، فهو التفاوت الذي ينشأ عن وجود الطبقات ، إذ ان الافراد ، في المجتمع الرأسمالي ، لا يتمتعون بفرصة متساوية لنمو شخصياتهم، فالمليونير والعامل الذي يقاسي البطالة متساويان أمام القانون وكلاهما حر . غير ان هذه الحرية تؤدي بأحدهما الى فنادق الريفيرا الفخمة بينما تؤدي بالآخر إلى المبيت تحت الجسور . لن يكون رجل المستقبل « انساناً آلياً » (Robot) بل شخصية حرة قوية ، تتفتح طاقاتها وقواها تفتحاً واسعاً[1] .

يقوم «التفاوت» في المجتمع الاشتراكي على أن الأفراد الذين تتشابه حاجاتهم، وتتفاوت كفاءاتهم ، ينال كل منهم حسب عمله ، ما يؤديه للمجتمع ، أي بصورة

---

(١) موريس توريز : ابن الشعب ص ٢٣٤

غير متساوية ، فالعامل الستاخانوفي (Stakthanoviste) ينال اكثر من غـير الستاخانوفي ، وليس ذلك تمييزاً له عن غيره (لأنه لا يوجد تمييز في مجتمع خال من الطبقة المستغِلة) بل لانه عامل ممتاز مجدد ، يؤدي اكثر من غـيره للمجتمع أي لكل فرد من أعضاء هذا المجتمع[1] .

وأما التفاوت فهو ، على العكس ، يقوم في المجتمع الشيوعي على أن الأفراد الذين يختلفون في كفاءاتهم ويؤدون ، بسبب ذلـك ، للمجتمع عمـلا يتفاوت (في الكمية والنوعية) ينالون بصورة متساوية ، كل حسب حاجاته القصوى . لماذا ؟ لأن ارتفاع الانتاج بصورة كافية يسمح بذلك .

يوجد في المجتمع الاشتراكي ، إذن ، مراقبة شديـدة لمقدار العمل ومقـدار الاستهلاك . فالعمل واجب ، وكل فرد ينال حسب العمل الذي يؤديه . ولهذا لم يعد هناك محظوظون ولا مستغِلون ، بل العمل هو سيد الجميع .

لا يزال ، في المجتمع الاشتراكي ، شيء من التفاوت في الممتلكات، غير أنـه لا يوجـد في المجتمع الاشتراكي قط بطالة ولا استغلال ولا اضطهاد للقوميات . وعـلى كل فرد ، في المجتمع الاشتراكي ، أن يعمل ، وإن كان لا ينال بعدُ على عمله حسب حاجاته بل حسب كمية العمل الذي يؤديه ونوعه ، ولهذا لا يزال يوجد أجر متفاوت ومختلف . ولن نستطيع القول باتمام بناء المجتمع الشيوعي إلا متى

---

(٢) ليس رفع هذا الاجر للعامل الستاخانوفي تمييزا له بل هو نتيجة للقانون الاشتراكي، ولقد لاحظ لينين « ان كل قانون يقوم على تطبيق قاعدة واحدة على اناس مختلفين ، ليسوا في الواقع متماثلين او متساوين » الدولة والثورة ص ٨٤)

نجحنا في ايجاد نظام ينال فيه الناس من المجتمع على عملهم حسب حاجاتهم ، وليس حسب كمية عملهم ونوعه[1] .

٢ - مرحلة المجتمع الشيوعي العليا

حين يبلغ المجتمع الشيوعي مرحلته العليا ، وتزول تبعية الأفراد الذليلة لتقسيم العمل ، كما يزول التعارض بين العمل الفكري والعمل اليدوي ، فلا يعود العمل وسيلة للحياة فقط ، بل يصبح الحاجة الاولى الحياتية ، وتزداد قوى الانتاج مع نمو الأفراد وتفيض مصادر الثروة الجماعية ، يمكن حينئذ ، تخطي حدود القانون البورجوازي الضيقة ، ويستطيع المجتمع ان يعلن عالياً :« على كل فرد ان يؤدي حسب طاقاته وان ينال حسب حاجاته[2] .

« حجة » البورجوازية الرئيسية فيما يتعلق بما تدعيه من « استحالة تحقيق » الشيوعية ان المجتمع لن يستطيع ان يقدم لكل فرد « حسب حاجاته » أي مجاناً دون ان يحاول كل فرد ، عندئذ ، ان يعمل « أقل ما يمكن » وهكذا يأتي الفقر بسرعة ! تعتقد البورجوازية انالانسان، وهو فريسة«الخطيئة الاصلية»، كسول، بطبيعته ، لا يعمل إلا إذا أجبر على العمل وحمل عليه ، فيحاول الاستفادة الى أقصى حد من عمل غيره . تعكس البورجوازية ، بهذا الاعتقاد ، نظرتها الخاصة « للعمل » ! أما العقلية التي تكتفي « بحدود القانون البورجازي الضيقة » وتحسب

---

(١) ستالين : « تصريح الى روا هوَرْد » كراسات الشيوعية عدد ١١ (١٩٥٨)،ص١٣١٥

(٢) ماركس ، انجلز نقد لبرابح غوتا وارفورت ص ٢٥ .

كما فعل شيلوك[1] فتقول : « لا يجب أن أعمل نصف ساعة زيادة عما يعمل غيري ، ولا أنال اجراً أقل منه[2] » فهي ليست سوى نتيجة لشروط الاستغلال الرأسمالي. ولهذا يمكن فهمها تماماً .

ذلك لأن شروط استغلال الانسان لأخيه الانسان أوجدت ، منذ آلاف السنين ، كراهية العمل الشديد المرهق . ولهذا جعل نمو قوى الانتاج الضعيف ، حتى وقت متأخر في عهد الرأسمالية ، وعدم الاهتمام بتخفيف مهمة العمال بواسطة تقنيـــة خاصة ، كل ذلـــك جعل من العمل مهمة شاقـــة ــ كما كرس تقسيم العمل ، الذي كان في البدء ، شرطاً لتقدم قوى الانتاج ، كل انسان في عمل يزاوله مدى الحياة ــ ولا سيما في الصناعة الحديثة حيث أصبح كل انسان أسير عمل جزئي يقوم به ؛ يضاف إلى ذلك أن تقسيم العمل إلى فكري ويدوي قد حرم العامل اليدوي من كل نشاط خلاّق ، وجرّد العامل اليدوي من كل امتاع . لهذه الأسباب جميعاً أصبح العمل شاقاً .

غير ان هذا الوضع ليس أبدياً . فهو وليد شروط مادية معينة ولهذا يزول بواسطة شروط مادية أخرى . فقد كان هلفتيوس يعتقد ان النشاط المنتج المعتدل السليم ضروري ، بصورة حياتية ، للانسان وسعادته إذ ان الشرور ، في نظره ، لا يمكن ان تأتي إلا عن الكسل والعمل المرهق . كما حيا فورييه « العمل المغري » الذي يتفق وميول العمال وكفاءاتهم ومواهبهم على أنه من نصيب المجتمع المقبل . ويعطينا النشاط العلمي والفني ، في المجتمع المنقسم الى طبقات ، صورة عمـــا يمكن

---

(١) شخصية من شخصيات شيكسبير وهو مرابي .

(٢) لينين : الدولة والثورة .

ان يكون عليه عمل كل انسان في المجتمع الشيوعي ، فهو ليس شاقاً بــل متعة وتفتحاً . كما انه يجب ان نلاحظ أن المقارنة ناقصة لأن الفنانين والعلماء ، في المجتمع الرأسمالي ، ليسوا دائماً في منجى من العوز والفاقة ، فإذا بهم يجدون جهدهم الخلاق محدوداً بنظام الاستغلال .

تمزج التقنية التقدمية ، في المجتمع الشيوعي ، العمل اليدوي بالعمل الفكري ، كما انها تسمح بتخفيض ساعات العمل ، فتتيح للعامــل الفراغ لتحسين تخصصه إذ تمكنه من ان لا يكون طيلة حياته اسير نفس المهمة ، ولهذا فلن يشوه العمل شخصية الانسان بل سوف يكون اسمى تعبير عن هذه الشخصية . إذ بــه ينمي كل منا مواهبه ، ويصبح العمل ، بعــد تحرره من الاستغلال ، الحاجة الأساسية لكل فرد .

وسوف يعطي كل منا حسب طاقاته . وتعجز العقليـــة البورجوازية ، هنا أيضاً ، عن أن تدرك ذلك لأنها تعتقد ان الدافع لكل نشاط انساني هي المصلحة الخاصة التي تعارض المصلحة العامة . غير انه كلما تقدم المجتمع الشيوعي كلما توطد الوعي الاشتراكي الذي يعتقد أن المصلحة الشخصيـــة والمصلحة العامة صنوان . ويصبح ادراك مصلحة المجتمع باكملها عادة «طبيعيـــة» كحساب شيلوك الدقيق في الرأسمالية . وكما ان الملكية الخاصة قد تسربت الآن الى العادات، فكذلك تتسرب الاشتراكية والشيوعية . وسوف يعتاد الناس على مراقبة قواعد الحيـــاة الاجتماعية الاساسية ويعملون بارادتهم وضميرهم حسب طاقاتهم ويأخذون بحرية من وسائل الاستهلاك حسب حاجاتهم .

ليست الثورة الاشتراكيـــة ، كما نرى ، سوى بداية تحول طويـــل للمجتمع والناس .

ويهمنا ان نرى الى أي حد تكذب الفكرة البورجوازية السائدة،التي تقول بان الاشتراكية شيء ميت جامد لا يتطور ، مع أن الحقيقة هي ان الاشتراكية بداية حركة تقدم سريع حقيقية في جميع ميادين الحياة الاجتماعيـــة والخاصة ، حركة شعبية حقاً تشترك فيها الاغلبية في أول الأمر ثم تعم جميع السكان[1] .

غير ان الشيوعية تفترض زوال « بورجوازي اليوم الصغير ، القادر ... عـــلى تبذير » « الثروات العامة والمطالبة بالمستحيل بدون طائل[2] » . ولا شك أن هذا البورجوازي الصغير يعتقد انه خالد. فهو واثق بغباءٍ ان انانيته وضيق تفكيره ينحتان وجه الانسان الخالد. فإذا ما قال الماركسيون ان الانسان يتحول وسوف يتحول مع المجتمعات ، هز كتفيه ساخراً وعـــدَّ ذلك القول وهماً وخيالا . والخيال في الحقيقـــة هو الاعتقاد ان افكار البورجوازي الصغير سوف تستمر إلى ما لا نهاية بعد زوال الشروط الاجتماعية للمعيشة .

ومع ذلك فإن «نظام المصنع» الذي سوف يُخضع له البروليتار الظافرة المجتمع بأكمله ليس المثل الأعلى ولا هو الغاية النهائية بل هو « خطوة ضروريـــة لتخليص المجتمع من اوزار الاستغـــلال الرأسمالي ، وضمان السير الى الامام في المستقبل[3] » .

---

(١) لينين : الدولة والثورة ، ص ٩٠

(٢) نفس المرجع ص ٩٢.

نشير على القاريء للاطلاع على نقد عقلية البورجوازي الصغير بقراءة قصة غوركي : البورجوازيون الصغار (مطبوعات النقد الجديد) وكذلك مؤلفات مايا كوفسكي الشعرية .

(٣) لينين : الدولة والثورة ص ٩٢

ولقد عدد ستالين ، مستخلصا تعاليم كتب ماركس وانجلز ولينين ، ميزات المجتمع الشيوعي كما يلي :

أ) لن يكون هناك ملكية خاصة لآلات الانتاج ووسائله بل ستكون ملكية اجتماعية جماعية.

ب) لن يكون هناك طبقات ولا سلطة دولة[١] ، بل سيكون هناك عمال في الصناعة والزراعة يديرون انفسهم بأنفسهم اقتصاديا كجمعية حرة للعمال .

ج) سيعتمد الاقتصاد القومي ، المنظم حسب مخطط موضوع ، على تقنية عليا سواء في ميدان الصناعة أو ميدان الزراعة .

د) لن يوجد فرق بين المدينة والقرية ، بين الصناعة والزراعة .

هـ) ستوزع المنتوجات حسب مبدأ الشيوعيين الفرنسيين القدماء ، وعلى كل فرد ان يؤدي حسب طاقاته وان ينال حسب حاجاته » .

و) سيستفيد العلم والفنون من شروط مواتية كفايـــة لبلوغ تفتحها الكامل.

ز) سيصبح الفرد حراً حقاً بعد أن تخلص من همخبزهاليومي ، ولن يحاول ارضاء «جباري هذا العالم[٢]».

ويضيف ستالين الى ذلك قوله : « الخ » ولقد عرض ستالين ، في آخر سنة من

(١) حين تغلب البورجوازية ، كطبقة ، في العالم اجمع.

(٢) ستالين : « حديث مع اول بعثة من عمال اميركا » في لينين مؤلفات مختارة ، ج ١ ص ٤٥

حياته ، بصورة رائعة ، الأفكار التي بسطها ماركس وانجلز ولينين ، معتمداً على التجربة التاريخية لبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي ، كما حدد شروط الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية .

٣ - قوى الانتاج وعلاقات الانتاج في الاشتراكية

بين الاشتراكية والشيوعية قرابة قوية : وهي ملكية وسائل الانتاج الاجتماعية الجماعية. ويدلل قانون الاشتراكية الأساسي تماماً على هذه الصلة المستمرة بين مرحلتي الشيوعية؛ إذ ان هدف الانتاج، في المرحلة الاولى، هو سد الحاجات الى أقصى حد . ليس هناك سد « كجدار الصين » بين المرحلتين . ومع ذلك تتخذ الملكية الاجتماعية اشكالا متعددة ؛ فقد رأينا انه يوجد ، في الاشتراكية كما تحققت في الاتحاد السوفياتي ، صورتان للملكية الاجتماعية . ولا يمتاز المجتمع الشيوعي فقط بعدم وجود التعارض بين الطبقات ، بل يمتاز أيضاً بزوال هذه الطبقات تماماً . فليس هناك ، إذن ، سوى صورة واحدة للملكية الاجتماعية ، وهي ملكية الشعب الجماعية بأكمله ، نرى أنه يوجد اختلاف بين مرحلتي الشيوعية؛ ليس في المبدأ الذي يشرف على توزيع المنتوجات فقط، بل في علاقات الانتاج التي يجب عليها ان تساعد على نمو قوى الانتاج بشكل يمكّن من نشر الرخاء بين كل الناس . غير انه ، كي تتغير علاقات الانتاج ، يجب ان تكون قد تغيرت قوى الانتاج اولا . وهذا ما نعلمه .

فهل تجري الامور هكذا بالنسبة للاشتراكية ؟ أجل ! لأن قانون الترابط الضروري بين علاقات الانتاج وطابع قوى الانتاج هو قانون شامل يصح في جميع طرق الانتاج بدون استثناء . ولهذا فإن الفعل المتبادل بين علاقات الانتاج وقوى

الانتاج هو الاساس الموضوعي للانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية. ولا يمكن لأي شيوعي أن يعتقد غير هذا فيقول بان المجتمع الاشتراكي ينتقل إلى الشيوعية في اية لحظة !

نعلم ان علاقات الانتاج الجديدة ، وهي علاقات اشتراكية ، هي الواقع الأساسي لنمو قوى الانتاج . غير ان علاقات الانتاج، فيما يتعلق بالاتحاد السوفياتي، تمتاز بأنه يوجد ، الى جانب ملكية الدولة ، وهي ملكية الشعب بأكمله ، الملكية الاشتراكية الكولخوزية : إذ يملك الكولخوز منشآته ومبانيه وانتاجه .

الصورة الأولى للملكية تتفق تماماً وطابع قوى الانتاج ؛ إذ تستطيع الدولة الاشتراكية ، كما يشهد الواقع ، ان تقوم بالاعمال الهائلة كري الصحاري وتحويل مناخ المناطق القاحلة ! بينما الصورة الثانية للملكية لا تستطيع القيام بذلك تماماً : فلنفرض ان كولخوزا يريد كهربة الاعمال الزراعية كالتركتورات وآلات جز صوف الاغنام وحلب الابقار ، الخ ... لاشك ان المصلحة تقتضي ببناء مركز كبير لتوزيع الكهرباء يمد أربعة أو خمسة كولخوزات بالكهرباء بدلا من بناء مركز صغير لا يمد سوى كولخوز واحد يكلفه مصاريف باهظة. فإذا لم يقم الكولخوز بالانضمام الى الكولخوزات المجاورة، كان ذلك سبباً في عدم بناء المركز الكهربائي. يعني هذا انه لا يمكن استخدام التقنية سواء كان في علم الحياة الزراعية (agrobiologie) او في الآلات الزراعية ، لمصلحة الكولخوزات الصغيرة . وان كانت هذه التقنية قد نمت وتطورت بفضل علاقات الانتاج الاشتراكية[1] . ولقد علمنا ماركس أن قوى الانتاج لا تنمو إلا في حدود علاقات الانتاج . وليست الشيوعية عبارة عن

---

(١) راجع قصة ج : نيقولا بيفا ! الحصاد :

تنظيم لقوى الانتاج . بل هي تتطلب منا دراسة علاقات الانتاج ، أي دراسة الاقتصاد. غير ان الملكية الاجتماعية الكولخوزية التي أتاحت نمواً هائلاً للزراعة الاشتراكية تبدو كأنها عائق في وجه نمو قوى الانتاج في القرية فيما بعد . وأزدهار الزراعة وتربية المواشي هذا ضروري لازدياد سلع الاستهلاك ، أي لبناء الشيوعية . يجب إذن ان تتسع الملكية الاشتراكية الجماعية ، وان تجتمع لكولخوزات من جديد لتكون كولخوزات اكبر . وإلا تعيق علاقات الانتاج – أي الكولخوز – التي ساعدت قوى الانتاج حتى الآن ازدهارها ويبدأ النزاع بينها . وهكذا تبقى علاقات الانتاج مطابقة لطابع قوى الانتاج .

وليس هذا كل ما في الأمر . فطالما استمر تنقل السلع – بواسطة الشراء والبيع – بين القرية والمدينة ، امكن للكولخوزات ان تبيع إنتاجها . وان تتصرف كما تشاء بدخل هذا الانتاج . ليس من السهل إذن التنبؤ بعملياتها . ولهذا يستحيل تعيين نسبة دقيقة بين انتاج وسائل الانتاج ووسائل الاستهلاك ، في الوقت الذي يزداد فيه انتاج وسائل الاستهلاك ، ووضع مخطط كامل للانتاج حسب احصاء لمجموع الحاجات . غير ان هذا الاحصاء اساسي إذا اردنا الانتقال الى الوفر في المنتوجات • ولهذا فان تنقل السلع (البيع والشراء) ربما اصبح عائقاً لنمو قوى الانتاج حسب المخطط الموضوع لها . وعلى العكس فإن وجود نظام للتبادل بواسطة العقود بين الدولة والكولخوزات يساعد على هذا التخطيط ويعود بالفائدة على الكولخوزيين الذين يتلقون من الدولة المنتوجات التي هم بحاجة اليها بكميات أكبر وباسعار أرخص .

وهكذا يكون الفعل المتبادل بين علاقات الانتاج وقوى الانتاج، أي الجدلية الداخلية لطريقة الانتاج ، اساس التغييرات التي تحدث • غير ان قانون الترابط

الضروري ، في المجتمع الاشتراكي ، يمكن ان يشق طريقة دون ان تعمل الطبقات الرجعية للوقوف في وجهه خدمة لمصلحتها . فليس هناك تعارض بين الطبقات : مصلحة العمال والكولخوزيين الطبقية إذن هي في نمو قوى الانتاج، وزيادة الانتاج، والانتقال الى الشيوعية والرخاء. ولهـــذا يمكن ان لا يؤدي الخلاف ـ النسبي ـ بين علاقات الانتاج وقوى الانتاج الى نزاع ؛ كما يمكن للتناقضات أن لا تتطور الى تعارضات شريطة ان تتبع سياسة عادلة قائمة على علم التناقضات .

ولا ينتهي الأمر ، في النظام الاشتراكي ، عادة الى النزاع بين علاقات الانتاج وقوى الانتاج ، لأنه يمكن للمجتمع ان يوفق ، في الوقت المناسب ، بين علاقات الانتاج المتأخرة وبين طابع قوى الانتاج . يمكن للمجتمع الاشتراكي ان يفعل ذلك لأنه لا يضم ، في داخله ، طبقات في طريق الزوال يمكن ان تقف في وجه ذلك لا شك انه سيوجد في المجتمع الاشتراكي أيضاً قوى متأخرة لا تدرك ضرورة تحويل علاقات الانتاج ، غير انه من السهل القضاء عليها دون ان يؤدي الامر الى النزاع[1] .

اما الدولة السوفياتية فهي بدلا من ان تكون عائقاً لتحول علاقـات الانتاج كالدولة الرأسمالية ، لأنها تعكس مصالح العمال والفلاحين المتحدين ، فتقف في وجه تأثير قانون الترابط الضروري ، فإنها تتخذ جميع الاجراءات المفيدة لتشق امامه الطريق وتسرع في تحول علاقات الانتاج . وهنا يظهر دورها الضخم في انتقال الاشتراكية الى الشيوعية . « فالشيوعية ، كما يقول لينين ، هي سلطة السوفيات مع كهربة جميع البلاد ». إذا كانت الدولة ليست عائقاً في وجه التغييرات الضرورية

---

(١) ستالين : « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » اخر مؤلفات ص ١٤٠

بل تشجعها فإن الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية — على عكس الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية — لا يحدث بصورة مباغتة . ومع ذلك فهو تغيير نوعي في علاقات الانتاج ، لاننا سننتقل بواسطته من صورتي الملكية الى صورة واحدة ، ومن مجتمع ذي طبقتين الى مجتمع لا يعرف الطبقات . غير انه انتقال نوعي بالتدريج بتراكم الجديد وزوال القديم تدريجياً .

يجب ان نقول للرفاق الذين يتحمسون للانفجارات ان القانون الذي يسيطر على الانتقال من النوعية القديمة الى نوعية جديدة بواسطة الانفجارات لا يمكن تطبيقه دائماً فقط على تاريخ نمو اللغة بل كذلك لا يمكن تطبيقه دائماً على ظواهر أخرى اجتماعية تتعلق بالاساس .. فهو ضروري لمجتمع منقسم الى طبقات متناحرة . وليس هو ضروريا قط لمجتمع لا يضم طبقات متناحرة[1] .

لا يشترط الانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية قلب حكم طبقة على يد طبقة معارضة ، والانتقال من الغد إلى القطب المعارض ، بل يشترط زوال الفروق بين طبقتين بالتدريج ؛ فليس هناك أي داعٍ لأن يحدث ذلك بالانفجار . فحيث لا يوجد تعارض بين الطبقات لا يعود نضال الطبقات محرك التاريخ .

ليس هناك إذن محرك قط ؟ ومن الخطأ الاعتقادُ بذلك .

ان مصلحة العمال هي في الانتقال إلى الشيوعية بالاعتماد على قوانين الاقتصاد . هناك إذن فئة واعية من المجتمع تمثل قوى الطليعة الجديدة ، بينما هناك عناصر رجعية ، بسبب العادة أو أي عامل آخر ، لا تدرك ضرورة تغيير علاقات الانتاج ،

---

(١) ستالين : « حول الماركسية في علم اللغة » آخر مؤلفات ص ٣٥ .

فتعيق بذلك التغير وتمثل القوى القديمة ، محرك التاريخ هنا أيضاً، هو إذن النضال: النضال بين قوى التقدم هذه والقوى المحافظة ، بين الجديد والقديم .

ليس الانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية قصة غرامية[1] . ولهذا كان النقد والنقد الذاتي القوتين الحقيقيتين اللتين تدفعان بالمجتمع السوفياتي : نقـــد من أجل الوصول إلى تغييرات حقيقية ، موضوعية ، مباشرة ، ونقد ذاتي لان النضال بـين القديم والجديد يجري أيضاً داخل الفرد نفسه، ولأنه يجب استئصال آثار الرأسمالية الباقية في وعي الناس .

لا يجري النضال في مجتمعنا السوفياتي ، حيث زالت الطبقات المتعارضة ، بين القديم والجديد ، ومن ثمَّ ، لا يجري التطور من الأسفل إلى الأعلى ، بصورة نضال بين طبقات متعارضة أو بصورة هزات كما هو الحال في النظام الرأسمالي بل في صورة نقد ونقد ذاتي هو القوة الحقيقية المحركة لنمونا،وهو سلاح قوى بين يدي الحزب. وهذا ضرب جديد من الحركة ونموذج جديد للنمو وقانون جديد جدلي[2] .

نرى أن الشروط الذاتية في الانتقال إلى الشيوعية ليست أقل أهمية منهـــا في بناء الاشتراكية ؛ وان تأثير الأفكار والوعي الاشتراكي عـــلى الشروط المادية عظيم .

يجب على كتابنا ورسامينا أن يحاربوا الرذائل والأخطاء والظواهر السيئة التي

---

(١) يصور لنا الفلم الروسي الرائع : «الفارس ذو النجمة الذهبية» هذا النضال، داخل كولخوز ، للانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية .

(٢) أ . جدانوف : « خطاب القاه خلال نقاش جرى حول كتاب ج . الكسندروف : عن الأدب والفلسفة والموسيقى ، ص ٦٢ — ٦٣ ، مطبوعات النقد الجديد ، باريس ١٩٥٠

توجد في المجتمع ، وان يظهروا في الشخصيات الايجابية رجالا من مثال جديد في روعة كرامتهم الانسانية فيعملوا بذلك على تكوين اخلاق وعادات في أساس مجتمعنا خالية من الجروح والشرور التي ولدتها الرأسمالية ... نحن بحاجة إلى أمثال جوجول وشتشدرين سوفياتيين الذين يحرقون بنار هجوهم كل ما في الحياة من سلبي وفاسد وميت ، وكل ما يعيق حركة التقدم إلى الأمام .

إذا ما قدرنا مهمة الدولة السوفياتة ومهمة الأفكار في الانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية ، أدركنا أن هذا الانتقال لا يمكن أن يتم بنجاح بدون القيادة السياسية والفكرية التي ينهض بها حزب العمال السوفياتيين، مسلحاً بالنظرية العلمية. يجب على الشيوعيين أن يكونوا أكفاء لتحمل المسؤوليات المتزايدة : هذه الضرورة التاريخية تعكسها القرارات الجديدة التي اتخذهـا ، في تشرين الأول سنة ١٩٥٢ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي .

٤ - شُرُوط الانتِقَال مِنَ الاشتِرَاكِيةِ الى الشيُوعيَّة

ندرك الآن الشروط الثلاثة الرئيسية الضرورية لتحقيق الانتقال إلى الشيوعية وتهيئة تحقيق الانتقال الحقيقي وليس الانتقال الوهمي ، التي حددهـا ستالين بوضوح في آخر كتاب له . يتعلق الشرط الأول ، حسب تعاليم الماركسيـة ، بالانتاج ، بينما يتعلق الشرط الثاني بالأساس الاقتصادي ، ويتعلق الشرط الثالث بتحويل المجتمع الثقافي .

١ ـ يتعلق الشرط الأول بالانتاج. نعلم ان الماركسية ، على عكس النظريات البورجوازية الصغيرة ، « كالاقتصاد التوزيعي » أو « شيوعيـة الاستهلاك » أو

« اقتصاد الرخاء » ، لا تنفصل قط بين الاستهلاك والانتاج ، فإذا أردنا أن نستطيع توفير « حاجات كل فرد » ، فإنه لا يكفي ان نتحمس للهدف بـــل ، يجب اتخاذ الوسائل للوصول اليه. لهذا كان من الضروري ليس ضمان « تنظيم عقلاني » اسطوري لقوى الانتاج ، بل ازدياد مستمر لكل الانتاج الاجتماعي مع افضليـــة نمو انتاج وسائل الانتاج[1] .

نلاحظ أنه ، فيما يتعلق بالانتاج ، من الخطأ تماماً ان نعتبر التنظيم والتخطيط غاية في ذاتها . لان الهدف هو زيادة الانتاج . وهذا الهدف متعلق نفسه بهدف آخر إلا وهو سدُّ الحاجات إلى اقصى حد، أي حاجات الانسان.وليس قانون النمو المنسجم في الاقتصاد ، الذي يتيح التخطيط ، هو القانون الأساسي في الاقتصاد الاشتراكي ؛ بل ان قانون الاشتراكية الاساسي هو قانون سد الحاجات الماديـــة والثقافية لجميع أفراد المجتمع إلى أقصى حد .

نعلم ان ازدياد الانتاج يحدث في الاشتراكية على أساس تقنية عليا تتيح رفع انتاجية العمل بصورة لا تجعل من الممكن فقط زيادة الانتاج،في نفس مدة العمل ، بل تخفيض هذه المدة . يضاف إلى ذلك ان هذه التقنية العليا العلمية تمحو بالتدريج الفروق بين العمل اليدوي والعمل الفكري . وهذه ميزة من ميزات الشيوعيـــة ؛ فالوسيلة هنا أيضاً غاية ؛ ذلك لأن انسان الشيوعية الذي يكوّن ، مع كل حاجاته ، الهدف النهائي،هو نفسه موجود في الانسان الذي يمهد للشيوعية، وتنمي كل مواهبه . ولا نجد مثالا ، في أي مكان آخر ، على الحقيقة الجدليـــة التي تقول بتماثل الهدف والوسائل أفضل ممـــا نجده هنا، كما أننا لا نرى في أي مكان آخر، كما

---

(١) ستالين: مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي ، آخر مؤلفات ، ص ١٥٥ .

نرى هنا، أن الانسان هو بداية الشيوعية ونهايتها وأنه « أثمن رأسمال لها ».

يعني ازدياد الانتاج ، أيضاً ، أنه بعد القضاء على تعارض الطبقات ، فإن النضال الذي يحتل مكان الصدارة ــ وان كان لا يجري إلا ضمن حدود علاقات الانتاج ، وضمن حدود النضال بين القديم والجديد ــ هو نضال ضد الطبيعة : إذ يجب تحويل الطبيعة للتمهيد للشيوعية ، وتحويل سطح الأرض ، والمناخ ، واصلاح الشبكة المائية، والغابات ، وتجفيف المستنقعات ، وإزالة الصحاري ، واحياء الأراضي ، وايجاد أنواع جديدة من الحيوانات، والنبات ، ومد وسائل الاتصال ، وادخال الآلة في الأعمال الشاقة ، الخ ...

وما مشاريع الشيوعية الضخمة الا دليل على هذا النضال العظيم ضد الطبيعة .

غير أنه ،كي نستطيع مواصلة تنمية قوى الانتاج، يجب تحويل علاقات الانتاج. ومن هنا كان :

٢ ــ الشرط الثاني يتعلق بالأساس الاقتصادي ، ونظام الملكية. لهذا من المهم، بعد كل ما رأيناه، ان نرتفع بالملكية الكولخوزية ، إلى مستوى الملكية القومية ، وذلك على مراحل تدريجية ، مع توفير الربح للكولخوز أي لجميع المجتمع ، وان نستعيض عن تداول السلع بنظام لتبادل المنتوجات ، على مراحل تدريجية أيضاً حتى تستطيع السلطة المركزية، أو أي مركز اجتماعي اقتصادي آخر، التعرف بجميع منتوجات الانتاج الاجتماعي لمصلحة المجتمع[1] .

يتحقق، بواسطة هذه الوسائل ، على اكمل وجه ؛ وفي كل مرحلة من مراحل

---

(١) ستالين : « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » اخر مؤلفات ص١٠٦

النمو الاجتماعي ، الترابط التام بين علاقات الانتاج وقوى الانتاج ؛ ولهذا انخفض عدد الكولخوزات بين أول تموز ١٩٥٠ وتشرين الأول ١٩٥٢ من ٢٤٠٠٠٠ إلى ٩٨٠٠٠ . يمهد إذن تجميع الملكية الكولخوزية بواسطة دمج الكولخوزات ـ أي بدون سحب ملكيتها ـ لزوال الفرق الاساسي بين الصناعة والزراعة ـ وهو فرق يتعلق بطريقة الملكية الاجتماعية ـ ويبشر بميلاد المجتمع الخالي من الطبقات ، حيث لن يسيطر بعد الآن سوى الملكيـــة الاشتراكية للشعب بأ كمله ؛ كما أن دائرة تداول السلع ـ بعد أن ضاقت بالتدريج ـ قد حل محلها نظام لتبادل المنتوجات. غير أنه يجب كي نصل إلى هذه المرحلة انتصار وعي جديد على الوعي القديم . ومن هنا كان .

٣ ـ الشرط الثالث يتعلق بالثقافة . لأننا نعلم أن الشيوعية لا يمكن أن توجد إلا إذا أصبح العمل حاجة حياتية وأصبحت القواعد الأساسية لحياة المجتمع عادات: ولهذا وجب الوصول إلى ازدهار ثقافي للمجتمع ، يضمن لجميع أعضائه تنمية مواهبهم الجسدية والفكرية ، في جميع الميادين ، حتى يستطيع أعضاء المجتمع تلقي قدر كافٍ من الثقافة ليعملوا بنشاط على نمو المجتمع ، ويستطيعوا اختيار مهنة لهم بحرية فلا يضطروا ، بسبب تقسيم العمل ، إلى ممارسة مهنة واحدة طيلة حياتهم[1] .

يتفق تحويل كل مواطن الى عامـــل نشيط في النمو الاجتماعي تماماً مع النظرة السامية التي تنظرها الماركسية إلى تأثير الأفكار على حياة المجتمع الماديـــة ، كما يتفق مع نظرة الماركسية السامية أيضاً إلى تأثير الناس في التاريخ ، وإلى حريـــة الانسان كمبدع . يتضح أنه ـ إذا لم يصبح الانسان عاملا نشيطاً ، واعياً للنمو

(١) نفس المرجع ص ١٥٧

الاجتماعي ، وإذا لم يكن حراً في اختيار عمله – فإن الملكية الاجتماعية لن تصبح قط عادة ولن يصبح العمل حاجة .

ماذا يجب كي نصل إلى هذه النتيجة ؟ يجب « تغييرات جدية في حالة العمل » (ستالين) .

أ) تخفيض ساعات العمل اليومي إلى ٦ ساعات على الاقل . ثم إلى ٥ ساعات . مما يسمح لكل فرد أن يكون لديه متسع من الوقت لتلقي ثقافة شاملة ؛ غير أنه يجب من أجل ذلك .

ب) جعل الثقافة البوليتكنيكية جبرية كما تنبأ بها فورييه وماركس ؛ إذ يجب على كل فرد من المجتمع أن لا يعرف بصورة سطحية بل بصورة علمية (لما كانت النظرية والتطبيق العملي غير منفصلين قط) مبادىء في فروع التقنية الصناعية التقدمية الكبرى ، وان يتمثل العلوم الاجتماعية وأفضل ما في الحضارة الشاملة . وهكذا يستطيع كل فرد أن يختار بحرية مهنة له فلا يظل طيلة حياته يمارس نفس النشاط . ومع ذلك ، يجب أيضاً ، لتحقيق أفضل الشروط للدراسة .

ج) تحسين ظروف السكن بصورة جذرية وأخيراً .

د) مضاعفة أجر العمال الحقيقي ، وربما زيادته فوق ذلك ، وذلك برفع الأجر مباشرة وتخفيض سعر السلع الكثيرة الاستهلاك مما يمهد للرخاء الشيوعي .

ولنلاحظ أن انشاء التعليم البوليتكنيكي، الذي بدأه مشروع الخمس سنوات، يمهد لزوال الفرق الأساسي بين العمل الفكري والعمل اليدوي ، بين العمل الصناعي والعمل الزراعي . فتقف عملية تقسيم العمل القديمة التي تشوه الشخصية الانسانية .

كتب ستالين ، مختصراً الشروط الثلاثة الأساسية ، يقول :

متى تحققت فقط جميع هذه الشروط اللازمة في مجموعهـــا نستطيع أن نأمل في أن يصبح العمل في أعين أفراد المجتمع « حاجة الحياة الأولى » (ماركس) وليس مهمة شاقة ؛ وبدلاً من أن يكون العمل عبئاً ثقيلا يصبح غبطة وفرحاً » (انجلز)؛ كما ينظر جميع أعضاء المجتمع إلى الملكية الاجتماعية على أنها الاساس الأول لوجود المجتمع .

متى تحققت جميع هذه الشروط اللازمة في مجموعها، نستطيع الانتقال من الصيغة الاشتراكية القائلة : « من كل فرد حسب كفاءاته ولكل فرد حسب عمله » إلى الصيغة الشيوعية القائلة : « من كل فرد حسب كفاءاتـــه ، ولكل فرد حسب حاجاته » .

وسوف يكون ذلك هو الانتقال التام من اقتصاد ، هو اقتصاد الاشتراكية، إلى اقتصاد آخر سامٍ هو اقتصاد الشيوعية[1] .

٥ـ الخلاصة

ليست الشيوعية عصر سيادة تقنية يعترف بها اعداؤها على أنها سامية حقاً ، ولكنهم يصورونها على أنها لا تأبه بالانسان بل تعاديـــه . ليست الشيوعية قط « تنظيماً عقلانياً لقوى الانتاج » بل هي سيادة الانسان الذي أصبح أخيراً سيداً لمصيره بفضل معرفة قوانين الطبيعه والمجتمع الموضوعية .

(١) ستالين : « مشاكل الاشتراكيةالاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » آخر مؤلفات ص ١٥٨ .

فالانتاج مرتبط بالانسان وحاجاته . وليس هدف الشيوعيين توزيع البؤس بالتساوي ، بل سد حاجات الجميع .

والتقنية هي لتخفيف تعب الناس وإزالتـــه : وهكذا استخدم ، في الاتحاد السوفياتي ، خلال ثلاث سنوات، ١٦٠٠ نموذج جديد من الآلات لتخفيف الجهد الانساني.

الشيوعية هي الانسان وقد تحرر من أوصاب الملكية الخاصة ومن عبوديـــة الماضي الروحية . ولما كانت واثقة، عن طريق التجربة، بانها لا تعمل من أجل أقلية من المستغلين ، بل من أجل خير المجتمع ، فإنها تحقق أعظم المشاريع .

تولد الشيوعية كنتيجة لعمل ملايين العمال الواعي الخلاق . ولهذا كانت نظرية التلقائية القائمـــة على اطلاق الحرية (laisser - aller) غريبة على تكوين الاشتراكية الاقتصادي[1] .

يفوز كل انسان ، بواسطة الشيوعية ، بالحرية الملموسة، التي هي « قوة ايجابية لتقدير فرديته الحقة » (ماركس ــ انجلز) . ولما كان الانسان يشترك مع امثاله في ممارسة الديمقراطية التامة ، فإنه يشترك بذلك ، بصورة واعية في تكوين مستقبله .

فهو في الوقت الذي يصبح فيه ، بواسطة استخدامه للآلة ، « سيداً للطبيعـــة ومالكاً لها » ــ كما يريد ديكارت ــ فإنه يحول حياتـــه الخاصة ويصبح سيد نفسه ومالكها . فيعكس كل فرد أجمل معالم الانسانية الكاملة .

---

(١) مالنكوف: تقرير الى المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ص٦٣-٦٤

يجعل اعداء الاشتراكية ، وعملاؤهم من كل نوع، من الاشتراكية نظاماً يقضي على الفرد . وليس هناك من نظرة اكثر بدائية ولا اكثر سذاجة من هذه النظرة، فلقد أصبح واضحاً ان النظام الاشتراكي قد ضمن تحرير الشخصية الانسانية ، وتفتح الابداع الفردي والجماعي ، وأنه أوجد الظروف المواتية لنمو المواهب التي تملكها الجماهير الشعبية في كل الميادين[1].

هذه الفكرة هي التي أوحت لأليوار هذه الأبيات :

نلقي بحطب الظلمات في النـــار
ونحطم اقفال الظـــلم الصدئـــة
فسوف يقبل الناس لا يخافون أنفسهم
لأنهم واثقون من جميـــع البشر
فلقد زال العدو في صورة الانسان

وحسب قول انجلز ، الذي أشار اليـــه موريس توريز في المؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي الفرنسي، فإن النضال من أجل الحياة الفرديـــة ينتهي بواسطة الاشتراكية والشيوعية . فيخرج الانسان عندئذ من مملكة الحيوان ، ليتخلى عن ظروف الحياة الحيوانية وينعم بظروف انسانية حقاً .

(١) نفس المرجع ص ٥٨

القسم الخامس

النظرية المادية

عن الدولة والامة

تساعدنا النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية على توضيح مسائل علوم الطبيعة وعلوم المجتمع . ولا يمكن بحث ذلك في نطاق هذا الكتاب .

ومع ذلك يهم كل واحد منا أن يقف ، قبل أن يغلق هـــذا الكتاب ، أمام الحل العلمي لمسألتين قدرنا سابقاً أهميتها (ولا سيما في الدروس الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين) الا وهما مسألة الدولة ومسألة الأمة .

ولهذا رأينا من الضروري أن نخصص لهما الدروس الخاصة التي ستقرأها ، وان كان لا يجب قط فصلها عن البحث في النزعة المادية التاريخية .

الدرس الثاني والعشرون

الدولة (١)

(١) لم نعالج مسألة الدولة في الدرسين الثاني عشر والثالث عشر بصورة خاصة . بل احتفظنا بذلك الى هذا الدرس . ومع ذلك يجب الرجوع الي الدرسين الثاني عشر والثالث عشر ، والى الدروس التاسع عشر والعشرين والواحد والعشرين خاصة فيا يتعلق بدكتاتورية البروليتاريا، وانحلال الدولة.

١ - الدّولة و« المَصْلحَة العَامَّة »

تقوم عقيدة رجال السياسة البورجوازيين الدائمة عن الدولة بأن الدولة الجمهورية هي لخدمة المصلحة العامة .

غير أن التجربة التاريخية تكذب هذه « النظرية » ، إذ يكفي المواطنين أن يذكّروا الحكومة بمتطلبات المصلحة العامة ، كان يعترضوا ، مثلاً ، ضد اعادة تسليح النازيين ، أو أن يحتفلوا بذكرى الاستيلاء على الباستيل ، حتى يصطدموا بصفوف شرطة الدولة الجمهورية . وإذا أراد العمال الدفاع عن قوتهم ، سواء كان في الصناعة الخاصة أم المصالح العامة وجدوا قمع الشرطة وأستخدام الأسلحة على يد ممثلي الدولة الجمهوريه .

تستثني « المصلحة العامة » إذن في التطبيق العملي مصلحة البروليتاريا والطبقات الشعبية . إذ أن لهذه « المصلحة العامة » حدوداً طبقية !

كما أن الدولة لم تعد قط المدافع عن « الشرعية » . فلنفترض أن العمال قد اضربوا احتجاجاً على خرق قانون العمل ، ولكي يحافظوا على المبدأ الشرعي القائل : « لكل عمل أجره » ، وأنهم طالبوا بمساندة السلطات العمومية لهم ، لحماية هذه الوسيلة الدستورية ، التي هي الاضراب ، ضد خرق الشرعية على يد صاحب العمل . لا حاجة إلى التساؤل عن موقف الشرطة منهم ، مع أن السلطات العمومية هي ، في المبدأ ، لخدمة القانون !

كما أن عدم تطبيق قانون الموظفين يدل على أن الدولة تضع نفسها فوق القانون بعد اقراره بالاجماع !

غير أن الدولة ، في بعض الظروف التاريخية ، تصبح في خدمة المصلحة العامة . وهذا شأن الاتحاد السوفياتي . وهكذا تكون الدولة تارة في خدمة المصلحة العامة وتارة لا تكون كذلك. يجب إذن أن نخلص إلى القول بأن المعيار الذي تقاس به المصلحة العامة ليس معياراً علمياً ؛ فهنـــاك البعض الذين يجدون من مصلحتهم أن يحددوا الدولة بصورة مناقضة للعلم .

وهكذا مر زمن وقامت بلاد كانت فيها الدولة شيئاً خارقا للطبيعة : كضرب من القوة يمكن للانسانية أن تعيش بدونها ، تحمل إلى الناس شيئاً لا يصدر عن الانسان ، تلك كانت دولة الحق الالهي ، كما كان الحال أيضاً في بلاد اليابان ، في عهد الميكادو المطلق . أما هتلر فكان يقول : « الله معنا » . كما أننا نعلم ، منذ عهـــد ترومان وايزنهاور ، ان البيت الابيض يمثل العناية الالهية على الأرض ، وهـذا من شأنه أن يسيء إلى العنايه الالهية في نظر المؤمنين !

كانت الدولة ، لأمد طويل ، كما ستظل بالنسبـــة لكثير من الناس ، موضع « احترام خرافي » . ومن هنا نشأ الضيق عند تحديدها . إذ أن مسألة الدولة تخلط في أغلب الأحيان بالمسألة الدينية .حتى ان اوجوست كومت، ذا النزعة الموضوعية نفسه ، الذي كان يتبجح بأنه قد نفض يديه من كل ما هو خارق للعادة ، قد ربط « السلطة الزمنية » ، في المجتمع ، « بالسلطة الروحية » . إذ أنه حينما تعلم كنيسة من الكنائس ان السلطة هي حق الهي ، فإن هذا يدل ، عادة ، على عبودية تامـة أمام الدولة . مثال ذلك اسبانياً في عهد فرنكو . فلقد لقنت الكنائس تابعيها احترام الدولة احتراماً دينياً . ولهذا كانت الصعوبات ، التي نلقاهـــا ، لنفهم جيداً مسألة الدولة ، ترجع اصولها إلى بقايا النزعة المثالية الدينية .

أفلست ، في فرنسا مثلا ، منذ زمن بعيد ، نظرية الحق الا لهي . وهناك كثير

من العلمانيين الذي يعتقدون بأنهم في منجى من كل عدوى فكرية من هذه الناحية، فالدولة، بالنسبة اليهم وبالنسبة للرسميين، تجلي المصلحة العامة . وهو تجلٍ غريب ! فالدولة فوق الطبقات ، والمصالح الخاصة ، والاحزاب ، كما يقولون ؛ غير أن الدولة إذا كانت فوق النضال الطبقي ، أي إذا كانت مؤسسة للتوفيق بين الطبقات، يتضح من ذلك أن الدولة لا يمكن ان تتولد من المجتمع نفسه ؛ بل هي تتولد من مصدر فوق المجتمع ؛ فإذا لم يكن ذلك المصدر هو الله ، فإنه سيكون الروح ! وهكذا ليست فرضية المصلحين سوى صبغ نظرية القرون الوسطى عن الحق الآلهي بصبغة علمانية ؛ تلك هي النزعة المثالية الساذجه ، التي هي صورة لبقة عن الديانة .

يجد الاشتراكيون، هنا، وزعماء الحركة الجمهورية الشعبية والرجعيون من كل نوع ، مجالا للتفاهم : الا وهي سيطرة « الروح » ؛ والنزعة المثالية عن الدولة، التي تُرتكب باسمها الجرائم الدامية ضد الشعب ، كما تنتهك العدالة فيطلق سراح مجرمي الحرب . فإذا كانت الدولة حقاً تجسداً « للروح » فإنها تجسد للروح البورجوازي ، والأفكار البورجوازية !

أعلن وزير خارجية الدولة الاميركية فوستردلس، في حديثه عن مخطط الولايات المتحدة الذري ، بأنه يتمنى « ان تقوم النزعه المثالية بالاشراف على القوة الهدامة الكامنة في الماده». غير أن موقعي نداء ستوكهولم قد زجّ بهم في السجون في الولايات المتحدة !

كانت مسألة الدولة ، خلال تاريخ الفلسفة ، ومسألة استغلال الطبقات، من اكثر المسائل تعقيداً . ذلك لأنها ، كما يقول ، لينين ، تمس ، أكثر من أية مسألة أخرى ،

مصالح الطبقات السائدة . والماركسية اللينينية هي الوحيدة التي تسمح لنفسها بالموضوعية فيما يتعلق بهذه المسألة .

لهذه المسألة أهمية خاصة بالنسبة للبروليتاريا، في المرحلة التي تتحول فيها الرأسمالية الاحتكارية . إذ يصبح العمال، عندئذ ، مضطهدين مباشرة على أنهم منتجون (وليس فقط كمواطنين) على يد الدولة التي ترتبط أكثر فأكثر بالفئات الرأسمالية القوية،فتصبح البلاد الرأسمالية، في الاقتصاد الحربي ــ منذ وقت السلم ــ معسكرات حربيــة للعمال . فتواجه البروليتاريا في نضالها ــ الاقتصادي ــ من أجل الخبز ، مسألة الدولة والمسألة السياسية . بينما تتعلل البورجوازية ، عــلى العكس ، بالحرب للقضاء عــلى منظمات البروليتاريا للنضال الاقتصادي الا وهي النقابات كما حدث عام ١٩٣٩ – ١٩٤٠ .

كتب لينين يقول :

يصبح لمسألة الدولة ، في الوقت الذي تنتصر فيــه الثورة ، في بعض البلاد ، كما وتزداد فيه ، حدة النضال ضد الرأسمال العالمي ، أهمية كبرى وتصبح أشد المسائل خطورة ، ومحط جميع المسائل وكل المناقشات السياسية المعاصرة[١] .

٢ – الدَّولة ثمرة تعارضَات الطَبقَات المتَنازعَة

دلتنا دراسة النزعــة المادية ، ولا سيما في الدرس الثاني عشر ، عــلى أن الدولة لا يمكن أن تــأتي من خارج المجتمع ، من « الروح » أو من « الله » . كما يُشير

---

(١) لينين : « حول الدولة » وفي « الدولة والثورة » ، ص ١٢١ المطبوعات الاجتماعيــة ، باريس ١٩٤٧

المنهج الجدلي ، من ناحية ثانية ، إلى انه يجب دراسة الدولة ، في نموها ، بصورة تاريخية .

غير أن كل هذا يظل كلاماً عاماً جداً . كما يدعي علماء الاجتماع الوضعيون البورجوازيون أنهم يعالجون ، أيضاً ، مسألة الدولة بصورة علمية : فهم يعتقدون أن تعقد الحياة الاجتماعية المستمر ، وانتقال فئات صغيرة من الناس المنعزلين إلى مجتمعات أضخم ، و « تنوع الوظائف الاجتماعية » مما يجعل الدولة ضرورية . وهكذا تكون الدولة نظام المجتمع العصبي . إذ كلما تعقد الجسم كلما ازداد دور الدماغ . فتؤدي الدولة « مهمة التنظيم » في المجتمع ، وسنرى ماذا يجب أن نعتقد بهذا الصدد .

أ ــ أصل الدولة[1]

أول ما يجب أن ننظر اليه هو ان الدولة لم توجد دائماً :

لم يكن يوجد ، في عصر المجتمع البدائي ، حين كان الناس يعيشون أحياء وقبائل وعائلات يسيطر فيها الأب أو الأم[2] ، جهاز خاص لممارسة السلطة بصورة منظمة . ومثل هذا الجهاز هو ما يسمى بالدولة .

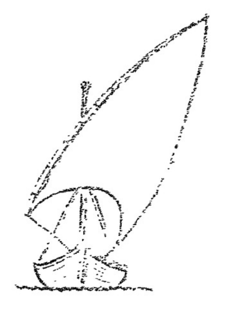
لا شك انه كانت توجد عادات وتقاليد مثل سلطة الرئيس واحترامه واحترام سلطانه ، وكذلك احترام سلطة النساء ، غير أنه لم يكن يوجد قط رجال همهم الوحيد حكم الآخرين ، ولهذا يسيطرون على القوة المسلحة بإستمرار .

هل يجب أن نستنتج من ذلك أنه لم يكن يوجد نظام ولا تنظيم في العمل ؟

---

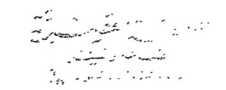
(١) يجب موازنة هذا المقطع بالدرس الثاني عشر .

(٢) راجع الدرس السابع عشر ، المسألة ١ ، ٢





الثمن ٥ ليرات لبنانية



كلا . لأن قوة العادة والتقاليد ، وسلطة القدماء أو النساء ، والاحترام الطبيعي كان يكفي .

ومع ذلك وجدت الأسلحة . إذ ما كادت توجد الادوات ، أي ما كاد الانسان يظهر ، حتى وجدت ، طبعاً ، امكانية استخدامها كأسلحة . لأن العمل هو «اعتداء» على الطبيعة يتضمن امكانية الاعتداء على الانسان . ولم تكن هذه الاسلحة ، مع ذلك ، تمثل أي خطر على المجتمع . إذ أن رجال القبيلة المسلحين لم يكونوا يوجهون أسلحتهم هذه بعضهم ضد البعض . وكانت الأفكار السائدة في المجتمع البدائي ، الذي تحدثنا عنه بعض الشيء في الدرس السابع عشر ، (المسألة ١) ، تكفي لتنظيم الحياة اجتماعية ، حتى إذا ما فكر بعض الأفراد في الخروج على القاعدة المتبعة ، كانوا ُيحملون على العودة لاحترام النظام بتأثير عمل الرجال المسلحين الجماعي . ولم يكن هناك أي شخص مختص بهذه المهمة لعدم وجود الدولة .

فلماذا لا يمكن ، اليوم ، تأمين القيام « بوظيفة التنظيم » الغالية على نفوس علماء الاجتماع ، كما حدث في الزمن الغابر ، بواسطة تنظيم الشعب التلقائي ، فيقوم بتأمين النظام في العمل وفي الحياة الاجتماعية ، وبواسطة مركز لتخطيط النشاط الاقتصادي يشرف عليه هذا التنظيم ؟

ام هل يكون العصر الذهبي الذي تحدثت عنه الخرافة القديمة قد ولىّ إثر الخطيئة الأصلية ؟

نلاحظ أن الاحترام القديم ، لم يعد في وقت من أوقات التاريخ ، كافياً للمحافظة على نظام العمل . فأصبح من الضروري الاستعاضة عن قوة العادة والتقاليد وعن السلطة القائمة على التجربة بقوة خاصة طبيعية تمارس الجبر وتوحي بالخوف . ومست

الضرورة لانشاء احتكار للاسلحة واستخدامها لمصلحة فريق من الناس رُفعوا إلى مركز خاص أو تميزوا عن سائر الناس . فلماذا فرضت هذه التغييرات نفسها ؟

تلك هي المسألة الحقيقية التي يهمل علماء الاجتماع معالجتها . إذ أنه إذا كان الاحترام القديم للسلطة الطبيعية قد زال ، وإذا كان تنظيم الشعب التلقائي المسلح قد أصبح خطراً فحرّم استخدامه ، فما ذلك إلا لأن التعاون في العمل قد انتهى ، وحلّ محل علاقات الانتاج القائمة على الملكية المشتركة علاقات جديدة للانتاج قائمة على الملكية الخاصة واستغلال الانسان للانسان . فالنزعة المادية التاريخية هي الوحيدة، إذن ، التي تستطيع الاجابة علمياً على مسألة أصل الدولة .

وهكذا ندرك تماماً كيف أن السلطة القديمة القائمة على الاحترام الطبيعي قد انهارت يوم أن بدأ استغلال الانسان للانسان، وحلت محلها السلطة القائمة على الخوف. ومنذ ذلك اليوم توقف تنظيم جميع السكان التلقائي بالاسلحة ، لأن أسرى الحرب قد جُردوا من سلاحهم بعد أن أصبحوا ارقاء . ولم يعد يملك السلاح سوى الاسياد الذين يملكون وسائل الانتاج. ولهذا نرى في هذه الايام، في البلاد الخاضعة للاستعمار، في مدغشقر ، وتونس ، ومراكش ، والجزائر الخ.. المستعمرين يتسلحون بأنفسهم ضد الرقيق المستعمَرين[1] .

ولم تقبل قط القبائل التي تقدس الأب أو الأم ، من تلقائها ، الرق . ولم يرض العبيد قط أن يُساقوا إلى أسواق النخاسة .

---

(١) نتحدث هنا عن قضية السلاح، ويجب ان نشير إلى ان الاضطهاد الاستعماري يمتاز بان الشرطة، والجيش ، والعدالة والادارة والتعليم هي في خدمة المستعمِر ضد المستعمَر .

ولهذا وجب اكراه الرقيق للحصول على العمل المرجوّ منهم . يضاف إلى ذلك أنه إذا أراد الاسياد ضمان الاستقرار الضروري لكل انتاج في النظام الاجتماعي ، كان من المناسب اقناع الرقيق ان مثل هذا النظام عادل ، وأنه يمثل الاستقرار ؛ كما وجب وضع القواعد التي لا تنتهك لتحديد سلوك الناس في علاقاتهم الاجتماعية ، مما يضفي الخلود على علاقات الانتاج الجديدة . وهكذا تولدت الفكرة الميتافيزيقية عن حق الاسياد المطلق على رقيقهم، تلك الفكرة التي نشأت من حق المنتصر القديم على المقهورين . وأصبح من الضروري ــ لتمثيل مصلحة طبقة الاسياد كطبقة مستقلة عن ارادة الافراد الذين يؤلفونها ــ أقامة القوانين التي تحدد واجبات المستغَلين وحقوق المستغِلين. وتكون هذه القوانين أساس الاضطهاد ، كما تضمن له تحققاً غير مشروط، بعيداً عن « أطوار » نضال الطبقات وعدم استقرار القوة المؤقت . وهكذا يمكن التعويض عن ضعف قوة الطبقة السائدة المادي العابر بالخوف من القوانين :

كما كان يجب أن تُحترم هذه القوانين لذاتها . ولقد أشار مفكر قديم هو كريتياس (Critias) إلى أن الناس قد سنوا قوانين لنشر العدالة، لم تبلغ هدفها سوى جزئياً . وكانت هذه القوانين تمنع من ارتكاب الظلم علنا، ولكنها لم تمنع من ارتكابه بالخفية . وهنا فكر حكيم مجرّب بأن يوحي إلى الناس خشية الآلهة التي تعلم كل شيء . حتى إذا ما اقنعهم انه حتى اسوا المشاريع التي تحاك في السر تعلمها الآلهة أيضاً ، كف خرق هذه القوانين[1].

يعكس قول كريتياس حقيقة عميقة : أصبح للآلهة التي كانت المخيلة الانسانية

(١) ذكره Sextus Empiricus » lx ; 54 في « Sisyphe »

تفسر بها قوى الطبيعة وتقلبَ المصير ، وظيفة جديدة بظهور الطبقات : إذ أصبحت هذه الآلهة قائمة على حفظ النظام الاجتماعي ، والضامنة للفروق الطبقية ، والقضاة الذين يحاكمون المضطهَدين في الآخرة ، وان كان هؤلاء القضاة شركاء الظالمين المضطهِدين. ويقوم هؤلاء المضطهدين بتلقين الشعب الخوف من الآلهة، ويؤكدون الخرافة القائلة بأنهم على اتصال غريب بهذه الآلهة .

وهكذا يتم الحقُ القوةَ ويكرسها ، كما ان الدين يتم الحق ويكرسه : فإذا ما نمت طريقة الانتاج الذي يعتمد على الرقيق وقام مجتمع الرقيق ، وحملت الخرافات والاوهام الرقيق على الطاعة فأصبحت لهم ، بفضل اعتيادهم على العبودية ، كما يقول روسو ، عقلية الرقيق، قامت شراذم خاصة من الرجال المسلحين، فكان منها رجال الشرطة المكلفون بمعاقبة الارقاء الفارين ، وحل هؤلاء الرجال المسلحون محل تسلح الملاّك الدائم . ومع ذلك لم يتخلّ قط الملاك عن حقه في أن يكون له حرسه الخاص المسلح : وهكذا نرى، اليوم، كبار الرأسماليين الاميركان لهم شرطتهم الخاصة في اماكن الاستغلال القطنية والزراعية .

ينتج ، إذن ، من استعراض الوقائع التاريخية ، ان الدولة ، في جميع المجتمعات الطبقية المتناحرة ، تصبح جهازاً لحكم المستغَلين ، خرج من المجتمع الانساني ثم تميز عنه تدريجياً . وهو يفترض وجود فئة خاصة من الناس ، وهم رجال السياسة ، همهم الوحيد الحكم ، ولهذا يستخدمون جهازا وضع « لاخضاع ارادة الآخرين للقوة[1] » . ويحتوي هذا الجهاز على الشرطة والجيش الدائم ، والسجون والمحاكم؛ يضاف إلى ذلك أجهزة الضغط الفكري : وهي التعليم والصحافة والاذاعة ، الخ ..

(١) لينين : « حول الدولة » في « الدولة والثورة » ص ١١٣

وبجمل القول :

١ – لم توجد الدولة دائماً .

٢ – لا يظهر جهاز الدولة إلا في المكان والزمان اللذين يظهر فيهما ، في المجتمع، تقسيم المجتمع إلى طبقات متناحرة ، كما يظهر الاستغلال الطبقي .

كتب انجلز يقول :

ليست الدولة ، إذن ، سلطة فرضت من الخارج على المجتمع ؛ وليست هي « حقيقة الفكرة الاخلاقية » ، أو « صورة حقيقة العقل » ، كما يدعي هيجل . بل هي ثمرة المجتمع في مرحلة معينة من نموه ؛ وهي الدليل على أن هذا المجتمع يتخبط في تناقض مع نفسه يستعصي على الحل ، بعد ان انقسم إلى اضداد لا يمكن التوفيق بينها ويعجز عن السيطرة عليها ، ولهذا مست الحاجة ، كي لا تفنى الاضداد ، وهي الطبقات ذات المصالح الاقتصادية المتعارضة، والتي هي في نضال مجدب[١] مع المجتمع، إلى سلطة ، تسمو في الظاهر على المجتمع ، لتغطية النزاع وحصره ضمن حدود « النظام » ؛ وهذه السلطة التي ولدت من المجتمع ، ولكنها تسمو عليه وتصبح غريبة عنه ، هي الدولة[٢] .

وقد اختصر لينين في صيغة موجزة النظرة العلمية لأصل الدولة ، قال:

---

(١) يدل قانون الترابط الضروري بين علاقات الانتاج وطابع قوى الانتاج ان استغلال الانسان للانسان يقوم ، في بعض العصور ، بمهمة تاريخية .

(٢) انجلز : أصل العائلة ، والملكية والدولة ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ . المطبوعات الاجتماعية باريس ١٩٥٤

الدولة هي ثمرة التعارضات الطبقية المتناحرة ومظهرها[1] .

يجب إذن ، كي ندرك أصل الدولة ، أن ننظر في قوانين الانتاج الموضوعية ، التي تولّد ، في مرحلة من مراحل نمو قوى الانتاج ، الملكيـــة الخاصة واستغلال الانسان للانسان ، وبالتالي ، ضرورة توطيد دعائم هذه الملكية الخاصة . الدولة ، إذن ، هي نتيجة تاريخية ضروريـــة لنمو المجتمع الاقتصادي ؛ وهي لا تفسر قط « بالخطيئة الاصلية » و « الارادة الآلهية » و « الفكرة الاخلاقية » و « ووظيفة التنظيم » .

وهذا ما لا يفهمه الفوضويون ، أسرى النزعة المثالية عـلى المستوى النظري . وكما أن انصار الدولة البورجوازيـــة يدعون بأن الدولة ضرورية لحصر رداءة الانسان وخبثه الاصليين ؛ و كذلك يرى الفوضويون في الدولة ثمرة قوة شريرة ، « وغريزة السيطرة » . فهم يفصلون الدولة عن أساسها الطبقي ، ويعتبرونهـــا قوة مستقـــلة تعمل لمصلحة الذين يتوصلون إلى السيطرة والاستيلاء عليهـــا . فهم ينكرون أصل الدولة التاريخي وضرورة ظهورها الموضوعية في فترة معينة .

يؤدي ذلك إلى نتيجة مهمة على المستوى العملي: إذ يفصل الفوضويون النضال ضد الدوله البورجوازية عن النضال الطبقي والنضال الشعبي . فهم يقيمون في وجـــه الدولة ـ في ـ ذاتها الفردَ ، ويدعون إلى طريقة في النضال تقوم عـــلى الاعمال الفردية . فتكون النتيجة السياسية لذلك ان تصبح الفوضوية صريعاً تعلة سهلة لعملاء البورجوازية المشاغبين في الحركة العمالية . كما تؤدي ، من جهة ثانية ، المعارضة الفوضوية للدولة ـ في ـ ذاتها ، أي معارضة الفرد والجماهير ، إلى معاداة السلطة

(١) لينين : الدولة والثورة ص ١٢

الاشتراكية وهي سلطة العمال والفلاحين . فتكون النتيجة السياسية لذلك ان تستخدم الفوضوية كتملة للارهاب المناهض للسوفيات . وهكذا تلتقي ، بالرغم من الظواهر ، « نظريات » المؤرخين البورجوازيين الذين يرون ، في حرب ١٩١٤، مثلا ، نتيجة « لارادة القوة في الدولة » ، والتغني بالثورة من أجل الثورة في كتاب « كامو » «الانسان الثائر» المناهض للسوفيات.

ولنشر مع ذلك ، إلى ان هذا التقديس الذي يجعل من الدولة قوة قائمة بنفسها، وتجسيداً « للفكرة » ، كما تقول الفكرة الخاطئة المثالية ، يعتمد على ميزة خاصة أشار اليها انجلز في النص المذكور اعلاه. ولنذكر ان قوة الدولة المادية ؛ لوحدها ، لا تكفي . وهذا ما برهنت عليه جميع الثورات الكبرى . فقد أثارت ، في وضح النهار، مشكلة العلاقات بين « شراذم الرجال المسلحين الخاصة » وبين «تنظيم الشعب بالسلاح من تلقاء نفسه » . فدلت على أن نهاية النضال ، في مثل تلك الحال ، سريعة وليست في صالح الطبقة المستغِلة . أما إذا كانت قوة الدولة ، على العكس، يساندها قسم من الشعب ، فإن التاريخ يدلنا على الحروب الاهلية التي يحوم الشك حول نهايتها . وهـذا يعني انـه إذا اعتبر المستغَلون الدولة كما هي ، أي اداة لاستعبادهم ، فإن هـذا يزعزع سيطرة المستغِلين بصورة خطيرة. لأ يحتاج هؤلاء المستغِلين ، إذن ، لسلطان جهاز الدولة فقط بل إلى اظهار هذا الجهاز على أنـه جهاز الدولة الاسمى، وإلى اثارة الخوف منه . يجب ان تضع الدولة نفسهـا ، في الظاهر ، فوق المجتمع ، وفوق الوان النضال الاجتماعي . كما يجب ان تبتعد اكثر فأكثر عن المجتمع ، وان تحيط نفسها بهالة من الأضرار، فتبدو كأنها قوة سماوية تحلق فوق جبل من الغيوم والبروق ، يركع أمامهـا كل الناس . وفي كل مرة يحدث فيها مثل ذلك ، تقوم الطبقات السائدة بتأليه رئيس الدولة . حتى إذا لم يعد

ذلك ممكنا تعالت « بالمصلحة العامة » الغريبة التي لا يدركهـــا عقل عامة الناس ! ذلك هو عماد النظريات المثالية عن الدولة . ويدل الحاح الطبقات السائـــدة على تصوير الدولة كأنها تجسيد قوة عليا، عـلى أن هذه الطبقات تعلم جيداً ان قوة الدولة الحقيقية إنما تقوم على دعم الرأي العام لها وعلى ما لها من رصيد أمام الجماهير وما تتمتع به من ثقة ، أي أن قوة الدولة تقوم على أفكار. ولنستمع إلى«لانييل» الرأسمالي ورئيس الحكومة ، كيف خاطب المضربين في آب سنة ١٩٥٣ :

« عليّ أن اخاطبكم الآن بلغة الدولة ، لأن الدولة ، والدولة وحدها ، هي التي يجب أن تحكم في الخصومات بين المصالح الخاصة ، في الديمقراطية ».

وهكذا تصبح مصالح الرأسمالي « لانييل » الخاصة هي التي تدافع عنها الدولة . وهو يعترف بذلك في دعوته إلى « تحكيم » الدولة . أولا تعبر مطالب ملايين العمال المشروعة إلا عن مصالح خاصة ؟ كما لو ان مصلحة الذين يعملون ليست أصدق تعبير عن المصلحة العامة. يبحث « لانييل »، في قلبه لعناصر المشكلة، عن مساندة الجماهير له أو قسم منها ، لأنه بدون هذه المساندة لا يمكن أن يستمر حكم الطبقة السائدة. ولهذا كان من الضروري أن تدافع الدولة الرأسمالية عن مصالح الرأسماليين الخاصة باسم المصلحة العامة ؛ ولكي تكف الجماهير عن مساندة الدولة البورجوازيـة يجب شيئان :

١ ــ ان تدرك هذه الجماهير ان « المصلحة العامة » المزعومة التي تدافع عنهـــا الدولة ليست إلا مصلحة الرأسماليين .

٢ ــ ان تفهم ان مصلحة الرأسماليين لم تعد ، منذ أمد طويل ، تتفق مع مصلحة الأمة .

ب - مُهِمَّةُ الدَّوْلَةِ التَّارِيخِيَّةِ (١)

تحدثنا عن مهمة الدولة في حديثنا عن أصلها . هذا ما تطلبه الجدلية لأن الدولة ولدت ، على التحقيق ، لمواجهة مشكلة ظهرت في المجتمع ، ولكي تقوي سيطرة المستغلين الاجتماعيـة ، ونظام الملكية الذي يضمن لهم امتيازاتهم . الدولة هي انعكاس الأساس الاقتصادي ، ولكنه ليس انعكاساً سلبياً ، بل هو انعكاس فعال . ولهذا كان من المفيد ، كما هو الحال في دراسة الأفكار في الحياة الاجتماعية ، ان لا نخلط مهمة الدولة وأصلها دون أن نفصل بينهما . ذلك لأن الدولة ، فيما يتعلق بالأصل ، مشتقة بالنسبة للاقتصاد ، ولكنها فيما يتعلق بالمهمة ، فإن هناك حالات تصبح فيها أهمية الدولة أساسية ، لها أثر فعال . ولهذا لا يجب ان يؤدي القول بأن الدولة هي انعكاس للاقتصاد إلى التقليل من قيمة تأثيرها على الاقتصاد .

يقول انجلز ان مهمة الدولة هي « تخفيف النزاع بين الطبقات » وان تحصر هـذا النزاع ضمن « حدود النظام » ولا يعني هذا ، كما دلل لينين ، ان الدولة هي منظمة للتوفيق بين الطبقات. بل يعني هذا العكس !

فلو ان « التوفيق بين الطبقات » كان ممكنا ، لم تمس الحاجة قط إلى الدولة .

ويعني القول : « تخفيف النزاع بين الطبقات » تخفيف حدة هـذا النزاع ، أي حرمان الطبقات المستغَلة من وسائل النضال التي تسمح لها بالتخلص من مستغليها . نحن هنا ، إذن ، أمام كتم نضال الطبقات المستغَلة . وكيف يكون ذلك ؟ بترك الميدان أمام عمل المستغِلين ، وبتوسيع الاضطهاد وتنميته وتقويته ، ولا سيما عندما

---

(١) يجب مقارنة هذا المقطع بالدرس الثالث عشر .

لم تعد علاقات الانتاج تتفق وحالة قوى الانتاج.

ذلك هو مازق الطبقات الرجعية : ملء السجون « لترتاح » ، وتزيد من ملء السجون أيضاً حتى تقضي على الخوف الذي تثيره فيهـا السجون الملأى ! ذلك هو « النظام » و « السلام » في نظرها ، وهو نظام يجعل الاضطهاد شرعياً ، وقد أقيم هذا « النظام » لتوطيد الاضطهاد فإذا به يزعزعه . فيؤدي تخفيف النزاع إلى زيادة خطورته[1] .

والخلاصة ان الدولة ، حسب رأي ماركس ، هي منظمة للسيطرة الطبقية ، ولاضطهاد طبقة على يد طبقة أخرى[2] .

تمثل الدولة القوة القائمة المنظمة الشرعيـة . وهي أداة لا للتوفيق بل للنضال الطبقي .

وهنا يخطر لنا سؤال وهو: من هي الطبقة التي تستطيع، في كل مرحلة من مراحل النمو التاريخي، ايجاد هذه الاداة وتغذيتها واستخدامها ؟ كل طبقة مستغلة بحاجة للدولة ولكنها لا تستطيع تغذيتها دائماً .

ويجيب انجلز على ذلك بقوله انه لما كانت الدولة قد ولدت من الحاجة الى لجم تعارضات الطبقات، وكما أنها ولدت وسط نزاع الطبقات، فهي دولة الطبقة الاقوى، تلك التي تسيطر من الناحية الاقتصادية والتي تصبح بفضل هذه السيطرة الاقتصادية الطبقة المسيطرة سياسياً ، فتحصل بذلك على وسائل جديدة لكبت الطبقة المضطهدة

---

(١) نفهم عندئذ مغزى تحذير ستالين المشهور بصدد الفاشية ، وهي دليل على ضعف الحركة العمالية النسبي، ولكنه دليل أيضاً على قوة هذه الحركة وضعف الرأسمالية العام .

(٢) لينين : الدولة والثورة ص ١٣

واستغلالها[1] .

على العلم التاريخي ، إذن ، في كل مرحلة ، ان يجيب بجواب محسوس .
مثال : الدولة الحديثة بحاجة الى مصروفات تنفق على الجيش والشرطة والموظفين.

ولا تستطيع الطبقة السائدة ان تحتفظ بهذه الأداة واستخدامها إلا بقدر ما تسمح علاقات الانتاج التي تمثلها ، والتي تريد انقاذهـا ، بالصرف عليها ؛ ولهذا كانت الطبقة المسيطرة سياسياً هي الطبقات المسيطرة اقتصادياً . ومن هنا كانت بعض النتائج :

١ ــ حين تبلغ طبقتان متناحرتان شيئاً من الا تزان من الناحية الاقتصادية ، يمكن للدولة ان تتمتع ، بعض الوقت ، بشبه من الاستقلال نحو هاتين الطبقتين : كانت تبدو ملكية لويس الرابع عشر المطلقة انها تستطيع ان تكون الحكم بين الاقطاعيين المستغلين للرقيق وبين البورجوازيين ؛ فكان الملك يمكنه القول : « الدولة أنا » .

وكان هذا يعني ، في الواقع ، انه قد أصبح للبورجوازيين بعض التأثير في الدولة الاقطاعية لانهم كانوا يصرفون عليها ، ولانهم كانوا يقرضون الملك المال؛ ولكنهم ، مقابل ذلك ، لم يكونوا يستطيعون ، بدون حماية الدولة ، الاقطاعية، تنمية التجارة والصناعة اليدوية ، وهكذا حصل البورجوازيون ، مقابل دعمهم المالي للنظام الاقطاعي ، على امتيازات تجارية حملت في احشائها بذرة نهاية النظام الاقطاعي ! وقد اتخذ النضال بين الطبقتين المستغلتين، في ذلك الوقت ، طابع حاجة

---

(١) انجلز : أصل العائلة . ص ١٥٧ .

كل منها للاخرى ؛ وكان الحال في سنة ١٧٨٩ ، بعـد مضي قرن ، يختلف عن ذلك . فقد أصبحت البورجوازيـة مسيطرة اقتصاديا، فقطعت الارزاق عن الدولة الاقطاعية، وعملت على اسقاطها. ولا يجب ان ننسى ، مع ذلك ، ان التفاهم المؤقت بين النبلاء والبورجوازيين كان دائماً يتم على ظهر الفلاحين وهم الطبقة المستغَلة .

٢ ـ الدولة ، بين يدي الطبقة المستغِلة ، هي وسيلة اضافية لاستغلال الطبقات المضطهدة . ولهذا كانت الضرائب ، والجزاوات ، ومصاريف العدالة ، الخ ... وسائل لحمل المضطهدين عـلى دفع مصاريف اضطهادهم ، في صورة مشاركة في مصاريف المجتمع العامة . ويتضح هذا اكثر في أيامنا حيث نرى ميزانيـة فرنسا الحربية الضخمة تعني ان الأمة تدفع مصاريف حرب (حرب الفيتنام[1]) وتسلح (ضمن نطاق ميثاق الاطلنطي الاعتدائي) كل ذلك لمصلحة البورجوازيـة المستعمِرة وحدها . كما ان الشعب هو الذي يدفع اجور الشرطة التي تنهال عليه بالعصي باسم المصلحة العامة . وهكذا تضرب الدولة العمال « لمصلحتهم » ... وعلى نفقتهم ! ومع ذلك لا يمكن لهـذا الاستغلال الاضافي ان يكون الا في دولة الطبقات المستغِلة وينتج عن الاستغلال نفسه .

ليس الاستغلال ، على عكس ما كان يعتقد بلنكي ، الضريبـة بل هو الاستملاك الخاص للعمل غير المدفوع اجره .

٣ ـ تبدأ الطبقة الحاكمة بالخوف على سيطرتها السياسية متى ما أصبحت علاقات الانتاج التي تمثلها ، والتي أصبحت بفضلها مسيطرة اقتصاديا ، قديمة ، أي حين يظهر الخلاف بين علاقات الانتاج وطابع قوى الانتاج . حتى إذا ما تفاقم هذا الخلاف

(١) وحرب الجزائر مؤخراً (المعرب) .

نشأت مشكلة الدولة بصورة حادة . وتظهر عندئذ الامكانية المادية على ان سلطة الدولة قد افلتت من أيدي الطبقة المسيطرة .

ولهذا فنحن حين نتحدث عن الطبقة الاقوى اقتصادياً فلا يجب ان يُفهم هذا القول بصورة تخطيطية . فالطبقة « الاقوى » هي الطبقة التي تستطيع ان تدفع بنمو قوى الانتاج الى الأمام ، والتي تمثل علاقات الانتاج الجديـدة . حتى إذا لم تعد البورجوازية تستطيع تنمية قوى الانتاج لم يعد بالامكان القول بأنها « قوية » اقتصادياً ، كما لم يعد بالامكان القول ان الاقتصاد الرأسمالي ، الذي يسيطر على المجتمع ، سليم . بل هو ، على العكس ، اقتصاد منحط ، وهذا يعني ان سيطرة البورجوازية الاقتصادية أو السياسية تقارب نهايتها.

غير انه يظهر عندئذ ، في وضح النهار ، تأثير الدولة على الاقتصاد . إذ لا تقف الدولة موقفاً سلبياً أمام المصير الذي تردى فيه أساسها بل هي تقف موقفاً فعالا فتدافع عنه بشدة .

حين تكون علاقات الانتاج متفقة مع طابق قوى الانتاج تسعى سياسة الطبقة الحاكمة ، التي تمثل هذه العلاقات ، الى نمو الانتاج وتوسيع الصناعة، مثال ذلك نضال البروليتاريا من أجل التبادل الحر .

حتى إذا لم تعد علاقات الانتاج تتفق وطابع قوى الانتاج، فإن سياسة الطبقات المستغلة الاقتصادية تسعى الى تعطيل عمل قانون الترابط الضروري ، وذلك باتخاذ اجراءات تعيق نمو قوى الانتاج.

وهكذا حاول رأس المال ، في مرحلة انحطاط الرأسمالية ، وهو المشرف على الدولة التي لم تكن سوى اداة بين يديه ، أن يحل مشاكل الرأسمالية الاقتصادية

بصورة تتفق ومصالحه ، مضحياً من أجل ذلك بمصالح الأمة . فإذا بالدولة ، وهي التابعة للاحتكارات ، تحاول ان تسيطر على الحياة الاقتصادية ، وليس ذلك لامكانية تخطيط « الرأسمالية » بل من أجل حماية مصالح الاوليجارشية المالية ، وقد استولت هذه على فوائد ضخمة . فالدولة التي تشرف عليها تضمن لها احتكار اصدار عملة الدولة ، كما ان الدولة تكلفها باعداد التسلح وتقديم العدد الحربية كما تعفيها من الضرائب ، وتحدد لمصلحتها أسعار الجملة والمفرق ، وتبيعها بثمن بخس منتوجات الصناعة المؤممة (الكهرباء ، والفحم) ، وتتخذ الاجراءات للقضاء على منافسها ، وتمدها بالاعانات ، وتتلاعب بالعملة ، وتفاوض لحسابها مع البلدان الأخرى ، واخيراً تحدد الأجور كما تريد ؛ حتى ان كل بروليتاري يصطدم بالدولة في طريقه خلال نضاله من أجل العيش .

تهتدي الدول ، في عصر الاستعمار ، في عملها ، بضرورة انقاذ الرأسمالية ولا سيما تأخير ساعة الازمة الاقتصادية . الدولة هي الاداة الرئيسية لخراب غالبية سكان البلاد وافقارهم واستعباد البلاد المستعمَرة ونهبها بصورة منظمة ، ونضال الرأسماليين المحتكرين ضد الرأسماليين الغير المحتكرين ، وهي أخيراً اداة النضال بين المستعمرين الالداء ، ووسيلة للحروب واخضاع الاقتصاد القومي للتسلح . ولكي تستطيع الدولة القيام بكل هذه الأعباء ، تظل اداة لاضطهاد البروليتاريا والطبقات العاملة .

وهكذا تصبح الدولة سداً يحمي الطبقة المستغلة ، وهي تقوم بدور فعال للدفاع عن طريقة الانتاج البالية . كما تصبح الدولة ، التي كانت اداة لسيطرة الطبقة الاقوى اقتصادياً ، وسيلة للمحافظة على هذه القوة الاقتصادية . بينما تقوضت هذه القوة في الأساس بتناقضات طريقة الانتاج . وإذا كانت شروط تغير طريقة

الانتاج متوفرة ، فإن عمل الطبقة المستغِلة ، التي تعارض في تطبيق قانون الترابط الضروري،وعمل الدولة البورجوازية، يصبحان العائق الأساسي للتغيرات الضرورية. ولهذا وجب القضاء على هذا العائق ، غير أنه يجب ، من أجل ذلك ، توفر شروط ذاتية، وهي نضال الطبقة العاملة السياسي لتنتظم سياسياً في حزب طبقي وتنظم الجماهير الشعبية ، وتدافع عن الحريات الديمقراطية وتوسع من نطاقها ، وأخيراً كي توجد سلطتها الخاصة كدولة .

ولا تملك هذه الدولة ، في أول عهدها ، أي أساس اقتصادي خاص بها ، اشتراكي ، ولهذا يجب عليها أن توجد أساسها الخاص بها . يضاف إلى ذلك ، أنها لا تستطيع أن تقوم إلا بتأييد الجماهير العاملة الواعي . ولهذا يجب على الأفكار السياسية الجديدة، التي تتقدم بها الطابقة العاملة، أن تكون قد سيطرت على غالبية الشعب ، أي ان غالبية الأمة لم تعد تؤيد السياسة البورجوازية أو تثق بها . ولهذا تجعل الماركسية ، بحق ، مسألة الدولة من ضمن الشروط الذاتية لتغيير طريقة الانتاج .

هذا ما تعلمنا اياه الجدلية ؛ وهو ان الدولة ، مع أنها دائماً انعكاس لاساس اقتصادي معين ، فإن حل مشكلة الدولة والمشكلة السياسية يجب، في حالات معينة ، إن يسبق تاريخيا بناء الأساس الاقتصادي الذي سيكون خاصاً بالدولة الجديدة .

وهذا ما لا يمكن أن تدركه النزعة المادية الساذجة : فهي إذ تعتمد على الفكرة القائلة بأن الدولة ثمرة نمو المجتمع الاقتصادي ، فإنها تستنتج من ذلك ان التناقضات الاقتصادية يجب أن تكون ميكانيكية ، وأن تؤدي ، حتما ، إلى تغيير طريقة الانتاج ، وان الاشتراكية ستولد تلقائياً من « تحلل الرأسمالية » . وهي

بهذا تنسى أن عمل الناس يمكنه ان يعيق تطبيق القوانين الاقتصادية ، وان البورجوازية يمكن أن تمدد ، بتأثيرها السياسي وبما تملكه من وسائل ضخمة تضعها الدولة الحديثة بين يديها ، فترة زوال الأساس الاقتصادي ، ولهذا فهي بهذا تخدم البورجوازية . ويؤدي التيار الاقتصادي ، في الحركة العمالية ، إلى نفس النتيجة بانكاره ضرورة نضال البروليتاريا السياسي ضد الدولة البورجوازية ، وهو بهذا يغذي النزعة الانتهازية، ويجعل الطبقة العمالية تبعاً للبورجوازية؛ كما أنه ، في نفس الوقت ، يقف في وجه سلطة الطبقة العاملة السياسية ويتردى في النزعة المناهضة للسوفيات . ولهذا يشجع هذا التيار صنائع البورجوازية في الحركة العمالية،وزعماء الاشتراكية الديمقراطية المصلحين .

والخلاصة من كل ذلك هي ضرورة النضال السياسي الماسة . غير أنه لا ننسى ، من ناحية ثانية ، ما رأيناه سابقاً : وهو ان الدولة لا يمكنها أن تقوم بدورها إلا إذا قبلت الجماهير (وخدام الدولة) الفكرة القائلة بأن الدولة فوق الطبقات ، وآمنوا بهذا الوهم. تعتمد قوة الدولة المادية في النهاية على عنصر فكري ، الا وهو تقليل الجماهير من شأن قوتها . وقد اعترف نابوليون بأنه يمكننا أن نفعل ما نشاء بالحراب شريطة أن يكون الرأي العام من جانبنا ، ومهما كانت وسائل الضغط التي تملكها الدولة البورجوازية ، كالرشوة مثلا ، فإن التجربة التاريخية قد دلت بأن هذه الوسائل تعجز أمام جمود الجماهير المسلحين فكريا ، والشيء الذي يعتد به ، أخيراً ، هو أن تعي الجماهير بوضوح الاعيب أعدائها، وأن لا ينجح هؤلاء فيخداعها. ولهذا تجعل الماركسية المؤسسات السياسية من بين ظواهر حياة المجتمع الروحية : وليست قوة هذه المؤسسات سوى قوة الأفكار . ويمكن لهذه القوة أن تصبح مادية شريطة أن تتملك هذه الأفكار الجماهير وتسيطر عليها .

وبالنتيجة فإن النضال السياسي يتضمن بالضرورة النضال الفكري ، وهو النضال ضد الأفكار التي تؤيد سياسة العدو الطبقي ، والنضال من أجل إزالة العراقيل الفكرية التي تمنع الجماهير من الاتحاد في النضال السياسي ضد الدولة البورجوازية .

يبرهن هذا التحليل ، مرة ثانية ، على أنه يجب أن يقود نضال البروليتاريا الطبقي طليعة واعية منظمة في شكل قوة سياسية مستقلة، هي الحزب السياسي الذي يعتمد على نظرية فكرية طبقية ، للنضال الثوري، الذي يعكس بصورة علمية ، مصالح الطبقة العاملة الحيوية المباشرة ومصالح المجتمع بأكمله .

٣- محتوى الدولة وصورتها

من بين الوسائل الرئيسية، التي يستخدمها مفكرو الطبقات المسيطرة والمستغلة لتشويش مسألة الدولة، الخلط بين صورة الدولة ومحتواها . فهم ، حين يعرفون مختلف نماذج الدولة ، يعتمدون دائماً على عدد الناس الذين يمارسون امتيازات السلطة : فيميزون بين الدولة الملكية ، والدولةالاستقراطية، والدولة الديمقراطية . فهم يحصرون النقاش بمسائل الصورة ، وبطبيعة المنظمات التي تمارس السلطة ، كوجود مجلس نواب ، مثلا، و « فصل السلطات » و « استقلال القضاء » الخ ... فيظهرون بذلك انه يحرم التعرض لمحتوى الدولة .

أما بالنسبة للماركسية فإن المسألة التي تعلو على كل المسائل الاخرى هي المسألة الثانية : لمصلحة من وضد من تُمارس هذه السلطة ؟ تميز الماركسية بين محتوى الدولة الاجتماعية وبين صورتها .

ا ـ محتوى الدولة الاجتماعي

تكتسب الدولة طابعها بفضل محتواها الاجتماعي الحقيقي ، أي محتواها الطبقي . فالدولة اما أن تكون دولة رقيق أو دولة اقطاعية أو بورجوازية أو رأسمالية ، او بروليتارية أو اشتراكية ـ وكل دولة هي دكتاتورية طبقية : ينتج ذلك من أصلها ومهمتها . ويمثل المحتوى جوهر الدولة ، وهو يسبق صورتها ويحددها . وتختار كل طبقة مسيطرة الصورة التي تناسب دكتاتوريتها الطبقية .

ولنذكر هنا بعض الامثلة التاريخية :

هل كانت الدولة القديمة دولة رقيق ؟ أجل . مهما كانت صورتها لأن الرقيق لم يكن فيها قط مواطنا .

هل كانت الدولة في القرون الوسطى دولة اقطاعية ؟ أجل . ومهما كانت صورتها لأن الرقيق فيها لم يكن له أي حق سياسي . أما البورجوازيون فقد فازوا بحريتهم بنضالهم .

هل الدولة الفرنسية ، منذ عام ١٧٨٩ ، هي دولة البورجوازية الرأسمالية ؟ أجل . ومهما كانت صورتها لأن البروليتاريا فيها لم تتمتع بأي حقوق سياسية سوى الحقوق التي انتزعتها من البورجوازية بالنضال ، وهي تفرض احترام هذه الحقوق بنضالها المستمر .

هل الدولة السوفياتية هي دولة العمال والفلاحين ؟ أجل . لان أساس الاتحاد السوفياتي السياسي يتكون من سوفيات نواب العمال الذين ازداد عددهم وتوطدت اركانهم بعد قلب سلطة كبار الملاكين والرأسماليين ، وبفضل الاستيلاء على

دكتاتورية البروليتاريا (المادة ٢ من دستور الاتحاد السوفياتي)

كل السلطة في الاتحاد السوفياتي بين يدي عمال المدينة والقرية الممثلين في شخص سوفيات نواب العمال (المادة ٣ من دستور الاتحاد السوفياتي) .

ولهذا فالسؤال الأول الذي يجب طرحه لتقدير طابع دولة من الدول في أيامنا هو هذا السؤال : هل نحن أمام دولة بورجوازية رأسمالية أم أمام دولة اشتراكية للعمال والفلاحين ؟

ولا يمكن أن يطرح السؤال بصورة أخرى ، إذ لا يمكن للدولة أن تكون دولة رجل ، أو حزب . بل هي دائماً دولة طبقة . ولقد رأينا أن الدولة لا يمكن أن تستقر بدون أساس اقتصادي . ونعلم أن الاساس الاقتصادي يمتاز بملكية وسائل الانتاج . والقوة الاجتماعية التي تمثل الملكية وتمتلكها وتستخدمها ليست رجلا أو حزباً بل هي دائماً ، وفي كل مكان ، طبقة ، فهي هنا طبقة البورجوازيين الرأسماليين وهناك طبقة العمال المتحالفين مع طبقة الفلاحين العمال .

نعرف إذن محتوى الدولة الاجتماعي بالجواب على هذا السؤال التالي : هذه الدولة في خدمة أية علاقات انتاج ، وأية صورة للملكية (خاصة أو اجتماعية) وأية طبقة ؟

يجب طرح هذا السؤال بصدد كل الأفكار السياسية .

سطر لينين بسرعة ، مثلا ، بصدد الحرية ، الملاحظات التالية « الحرية » حرية مالك السلع .

حرية العمال المأجورين الحقيقية ـ حرية الفلاحين :

حرية المستغلين.

الحرية من أجل من ؟

الحرية بالنسبة لمن ؟ وبالنسبة لماذا ؟

الحريـــة في أي شيء ؟[1] .

كما سطر بصدد المساواة :

« المساواة » . انجلز في « ضد دورنج » (وهم إذ أردنا بذلك اكثر من إزالة الطبقات) .

مساواة مالكي السلع .

مساواة المستغَل والمستغِل .

مساواة الجائع والشبعان .

مساواة العامـــل والفلاح .

مساواة من ؟ ومع من ؟ وبأي شيء ؟[2] .

وسائل حكم الدواة هي وسائل الطبقة التي تسير الدلة ، وبهذا تكون هـــذه الوسائل ذات مغزى لأنها تدل على محتوى الدولة . هذه الوسائل رأسمالية بالنسبة للدولة الرأسمالية وأولى هذه الوسائل المال .

كتب انجلز بهذا الصدد يقول : لم تعد الجمهورية الديمقراطية تعترف ، رسمياً ، بفوارق الثروة . إذ ان الغني يؤثر فيها بصورة غير مباشرة ولكنها أكيدة . وذلك بصورة رشوة الموظفين مباشرة ، من جهة ، ونجد في اميركا مثالا كلاسيكيا عـــلى ذلك ؛ وبصورة تحالف بين الحكومة والبورصة من جهة ثانية ؛ ويتم هذا التحالف

---

(١) لينين : « حول دكتاتورية البروليتاريا » ، في « الدولة والثوره » ص ١٤٩

(٢) لينين: الدولة والثورة ص ١٥٠

بسهولة لأن ديون الدولة تزداد باستمرار، كما ان الشركات المساهمة لا تحصر بين يديها وسائل النقل فقط بل الانتاج نفسه، كما تلتقي هذه الشركات في البورصة[1].

وليست سيطرة الثروة جميعها، في الجمهورية البورجوازية، في أيامنا هذه، بأقل ظهوراً. وبالرغم من أنه لا يوجد أي تشريع قانوني يحفظ لاعضاء الأوليغارشية المالية مراكز القيادة في الدولة فإن «تبعية جهاز الدولة للاحتكارات[2]» حقيقة واقعة. فمن جهة، تستطيع المئتا عائلة ان تعين بعض اعضائها في جهاز الدولة كموظفين كبار: ومهما كانت القواعد لتعيين هؤلاء الموظفين، فإننا نعلم ان «عامل المودة» هو الذي يقرر القبول في دوائر «الدولة الكبرى» كمراقبة الاقتصاد وغيرها. ومن جهة ثانية تنظم الاوليغارشية المالية هجرة منظمة لكبار الموظفين نحو القطاع الخصوصي مما يسمح لها ان تؤمن تعبئة مستمرة لملاكاتها، وهي تسعى بواسطة الطموح والتلهف على الربح، والرشوة لمراقبة كل نواحي الادارة. تتضح هذه الرشوة في فضائح الدولة الرأسمالية بين حين وآخر. كما أنها تتخذ طابع توزيع المراكز المباشر في مجالس ادارة الشركات على النواب والممثلين السياسيين والهواءات الخ..

ولقد رأينا فيما سبق دور الدولة التاريخي في خدمة رأس المال. وهكذا وجدت الدولة الفرنسية نفسها، بواسطة قروض مشروع مارشال، تابعة للاحتكارات الاميركية، وأصبحت بعض دوائرها كوزارة الخارجية مثلا تحت مراقبة عملائها.

---

(١) انجلز: اصل العائلة، ص ١٥٨

(٢) راجع ستالين: «مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي» ص ٣٧.

كما تملك البورجوازية الكبرى أيضا « الازمة الاقتصادية » كوسيلة للتأثير على المجلس النيابي . إذ أن أزدياد ديون الدولة عملية سياسية رابحة لها : لأن التهويل المالي، الذي كان وسيلة للضغط على الملوك، يظل نافعاً للتأثير على دولة البورجوازية والدولة الأجنبية التي تتخبط في الصعوبات .

ويبدو دور الثروة السياسي، في الدولة البورجوازيـــة أيضاً، في سلسلة من المسائل وهي : ليس محتوى حرية الصحافة سوى أن الرأسماليين الذين يمكنهم ماديا تأسيس جريدة وتمويلها لديهم المجال لخلق هذا المحتوى؟ــ ليس محتوى حق الجميع في التعلم سوى أن امكانية التعلم الحقيقية لا توجد إلا للطبقات الاجتماعية التي تستطيع دفع مصاريف التعليم . ــ وما يحتوي حرية الرأي والطرق السياسية سوى ان الامكانية الحقيقية لتقديم مرشحين لا توجد إلا للفئات الرأسمالية التي يمكنها أن تمول معركة انتخابية . ولا ننسى ان وجود حزب مستقل للطبقة العامـــلة ليس ثمرة النزعة المتحررة البورجوازية بل هو ثمرة تضامن الجماهير الفعال .

وتبدو معالم الدولة الطبقيـــة بوضوح في مسألة العدالة . ولنشر أولا إلى أن العدالة لا تؤدّى بل هي تُباع على يد البورجوازية : وإذا كانت العدالة نظرياً بالمجان فإن هذه العدالة لا تؤدى إلا لمن يستطيع دفع مصاريف الدعوى ؛ فكيف يمكن لعامل أن ينال التعويض عن حادث وقع له أثناء العمل ؟ كيف يمكنه أن يستأنف أمام مجلس الدولة ضد لا شرعية الادارة ؟ وتؤدى العدالة بلغة لا تفهمها الجماهير الشعبية ، وهي ترجع إلى مطلع البورجوازيـــة . وأخيراً فإن المبادىء التي تهتدي هذه العدالة بهديها هي مبادىء الحق البورجوازي الذي يقوم على الدفاع عن الملكية ، والدفاع عن رأس المال ؛ ومـــا قمع لصوص الممتلكات الشخصية سوى تعلة لقمع العمال في نضالهم ضد المستغلين ؛ وتتعدد وسائـــل ضغط الدولة

البورجوازية ، في القضايا السياسية ، على القضاة من التلويح بالترقية حتى التهديد ؛ الذي يكاد لا يخفى،بواسطة عملاء للاستفزاز، حتى ان النظرية الفكرية البورجوازية تختلف في تقديرها الجرائم إذا ارتكب هذه الجرائم فقير معدم أو ابن عائلة «محترمة» وأخيراً يجعل فساد البورجوازية المنحطة العدالة عاجزة عملياً أمام المهربين ورجال العصابات التي تلوذ بدوائر المجتمع « العالية » .

ينتج محتوى الحق عن وظيفته في تخليد نظام الملكية القائم، والحق ليس تجسيداً لمبادىء خالدة ولا « لقوانين طبيعية » أو ارادة « الوعي الجماعي » ؛ بل هو عنصر مكوّن للبناء الفوقي ، وانعكاس لصورة الملكية المسيطرة التي يحاول تخليدها ليجعلها مطلقة ، كما يبررها « بمبدأ » مزعوم ابدي ؛ ولهذا كان التفكير التشريعي البورجوازي أفضل مثال على تطبيق المنهج الميتافيزيقي.

ومثال واحد يدلل على محتوى الحق الطبقي . يجبر القانون الأولاد على القيام بأود والديهم ، عند الضرورة ، كما يجبر الوالدين بتربية أولادهما . أو ليس من الواضح ان هذه القاعدة تعمم في المجتمع واجباً لا معنى له إلا ضمن نطاق العائلة البورجوازية المالكة ، وأن هذا التعميم الجائر يعفي المستغلين ، أي البورجوازية، من واجبهم نحو عناصر البروليتاريا العاجزة عن العمل : وهم كهول العمال ، والمقعدين، والمرضى، واولاد البروليتاريا ؟

وتمتاز الدولة البورجوازية « الديمقراطية » أيضاً بالميزات التالية :

ـ البيروقراطية : يشرف على الادارة عل تعاليم البورجوازية الكبيرة الخفية ، وهكذا كانت الادارة العليا غير مسؤولة ، عملياً ، تراقبها مباشرة الاوليغارشية المالية ويكون كبار الموظفين « جماعات » متخصصة مغلقة ، تحتكر « الكفاءات » أي تجربة طبقة البورجوازية القديمة ؛ ولا تخضع هذه الادارة لمراقبة

اللجان البرلمانية عن طريق « السر المهني » وتشرف ادارة المحافظة على المجالس المحلية وتجعل قراراتها تابعة لمصالح طبقة البورجوازية الكبيرة[1] .

ـ النزعة العسكرية : تهدف مدة الخدمة العسكرية الطويلة ، وهي ثمرة الاستعمار الذي لا يرى في السلم سوى هدنة بين اعتداءين ، إلى تنشئة الشباب على خدمة الدولة البورجوازية خدمة عمياء ؛ وقد وضع النظام كطاعة سلبية لا تقبل النقاش ؛ مفروضة من عل ؛ لأن البورجوازية لا تستطيع الاعتراف صراحة بأهدافها الطبقية إلى جنودها .

ـ النزعة البرلمانية : نظمت الانتخابات بشكل يجعلها تقرر فقط كل أربع أو خمس سنوات من هو الرجل الذي تثق به البورجوازية سيمثل الشعب في البرلمان ويضطهده ؛ وممثلو الشعب لا يمكن الناخبون تنحيتهم ، كما أنهم لا يملكون

....

(١) استشهد موريس توريز ، في تقريره الى مؤتمر الحزب الشيوعي الفرنسي التاسع (آرل ١٩٣٧) ، على جبروت هذه البيروقراطية في ميدان السياسة الخارجية فقال ذاكراً مجلة اسبوعية ديمقراطية : « دخل السيد ليجيه الامين العام لوزارة الخارجية الى الكي دورسيه في عام ١٩١٤ ، وفي عام ١٩١٦ كان في شنغاي ، وفي عام ١٩٢١ عاد الى باريس وبقي فيها من عام ١٩٢١ - ١٩٣٧ ، في عام ١٩٢٩ كان مديراً للشؤون السياسية التجارية . ومنذ هذا التعيين حل السيد بريان محل السيد بريان ، والسيد لافال محل السيد بريان ، والسيد ترديو محل السيد لافال ، والسيد هريو محل السيد ترديو والسيد بولس بونكور محل السيد هريو ، والسيد دالاديه محل السيد بولس بونكور ، والسيد بارتو محل السيد دالاديه ، والسيد لافال محل السيد بارتو ، والسيد فلاندين محل السيد لافال ، والسيد ايفون دلبوس محل السيد فلاندين ، غير أن السيد ليجيه ظل أميناً عاماً لوزارة الخارجية ، « فمن هو وزير الخارجية الحقيقي ؟ من يمثل فرنسا في نظر ممثليها في الخارج ؟ السيد دلبوس ؟ كلا بل السيد ليجيه هو الوزير الدائم » : م. توريز : مؤلفات ج ١٤ ، ص ٢٦٩ . المطبوعات الاجتماعية ، باريس ١٩٥٤ .

السلطة التنفيذية والادارية بفضل المثل البورجوازي حول « فصل السلطات » ؛ وتعريف النزعة البرلمانية هي أن المجالس المنتخبة لا تشرف نفسها على تنفيذ قرارتها وتطبقها : فهي ليست مجالس فعالة .

وأخيراً نأتي لظاهرة احدث في فرنسا وهي أن رجال السياسة يختارون مباشرة من بين الرأسماليين أمثال « بيني » (Pinay) و « ماير » (Mayer) و « لانيل » (Laniél)، الذين لا يكتفون بالاشراف على السياسيين، بل يقومون هم انفسهم بادارة الحكومة. وهذه الظاهرة أقدم في الولايات المتحدة وأشد اتساعاً. إذ نرى اللواءات والممثلين السياسيين والقضاة، من بين الرأسماليين، يقومون بأنفسهم بهذه الوظائف .

نرى الآن ما معنى أن كل دولة هي دكتاتورية طبقة من الطبقات ؛ ويعني هذا أن حقيقة السلطة في يد طبقة تمارسها لخدمة مصالحها، مستخدمة في ذلك وسائلها الخاصة . يمكن للدولة البورجوازية أن تكون ديمقراطية بالنسبة للرأسماليين ؛ ولكنها دكتاتورية بالنسبة للطبقة العاملة ؛ بينما الدولة الاشتراكية، على العكس، هي ديمقراطية بالنسبة للعمال ، ولكنها دكتاتورية بالنسبة للطبقات القديمة المستغِلة الزائلة . وكان لينين يقول : الدكتاتورية ، التي هي نفي للديمقراطية ، من أجل من ؟[1] .

من الخطأ ، إذن ، تعريف الفاشية بأنها « دكتاتوية حزب » لأن الفاشية هي « دكتاتورية اشد العناصر الرجعية ارهاباً واستعماراً في رأس المال» (ديمتروف). وما الحزب الواحد إلا أداة هذه الدكتاتورية الطبقية .

(١) نفس المرجع ص ١٤٩ .

أما ثرثرة الاشتراكيين الديمقراطيين حول « تسرب العناصر البروليتارية » في الدولة الحديثة ، التي تجعل لهذه الدولة شبه طابـــع « وسط » لأنهـــا « ليست بروليتارية تماماً» ولا « بورجوازية تماماً » فإنها لايمكنها أن تخفي ما يلي : وهو أنه إذا وجب على البروليتاريا أن تهدم، بشقه ، بعض قلاع الدولة الرأسمالية الامامية ، فهل يمنع ذلك من أن تظل هذه الدولة رأسماليـــة أو لا يبرهن ، على العكس ، انها رأسمالية ؟

ب - صُورَة الدَّولَــة

صورة الدولة هي التعبير عن محتواها الاجتماعي الحقيقي ، وهي تتحدد بنمو نضال الطبقات .

يميز لينين بين عدة صور للدولة ظهرت منذ القدم :

ـ الملكية لسلطة فرد واحد.

ـ الجمهورية كدولة ليس فيها سلطة غير منتخبة .

ـ الارستقراطية كسلطة أقلية محدودة نسبياً .

ـ الديمقراطية كسلطة الشعب .

وتمتزج هذه الصور بعضها مع بعض ، فيمكن للجمهورية ، مثلا ، أن تكون ارستقراطية او ديمقراطية ، تضم في نفس الوقت بقايا الملكية .

ولا تستقر صوره الدولة ، غالباً ، على حال ، فهي تتأخر ، غالباً ، عن المحتوى ، وتعبر بطريقتها عن تناقضات المجتمع الداخليـــة .

كانت جميع صور الدولة ، في القدم ، لها محتوى يعتمد علـى الرقيق . ومع ذلك فإن الانتقال من صورة الجمهورية الارستقراطية إلى الجمهورية الديمقراطية ، في روما ، مثلا كان يعكس ، بالضرورة ، مرحلة جديدة من نضال الطبقات بين الملاكين والتجار .

وقد تنوعت صور الدولة ، في عهد الاقطاع . فوجدت جمهوريات ارستقراطية كان الاقطاعيون فيها ينتخبون رئيس الدولة ، وهو الامبراطور ؛ وقـد تحول بعضها إلى ملكيات وراثية . فكان شارلمان يجمع ، كل سنة ، برلماناً من البلاد الكارولنجيين ، وهو بقايا للعادات « الجمهورية » عنـد الفرانك . كما كان الكابيتيون الاوائـل منتخبين ؛ كما انتخب الامبراطور في بعض مراحل الامبراطورية المقدسة على يد كبار الاقطاعيين . ولكن محتوى الدولة ، كان في جميع هذه الاحوال ، اقطاعياً .

وكانت « المجالس العامة» (les Etats générau) في العهد القديم مؤسسة ذات طابع « جمهوري » لأنها كانت تتكون من مندوبين منتخبين وهم في نفس الوقت ارستقراطيون ، لأن الاقطاعيين كانوا يتمتعون فيها بأكثرية الثلثين [1] : كما أنها كانت بذلك مؤسسة اقطاعيـة تخدم مصالح الاقطاعيين !

حتى إذا ما أصبح للبورجوازية تأثير على الدولة الملكية الاقطاعيـة بواسطة وسائلها المالية وقفت في وجه هذه المؤسسة الاقطاعية ، الا وهي مؤسسة المجالس العامة حيث كانت اقلية فيها . ولهذا لم تجتمع المجالس العامة في عهد الملكيـة

(١) كان لكل من النبلاء والكهنوت والطبقة الثالثة صوت فكان الكهنوت يضم صوته عادة الى صوت النبلاء .

« المطلقة » ايام لويس الرابع عشر وكولبير — البورجوازي .

غير أن نزعة الملكية المطلقة ، التي كانت ، إثر الفروند (Fronde) موجهة ضد الاقطاعيين ، قد انقلبت على البورجوازية، في القرن الثامن عشر، بسبب تقدم البورجوازية الذي أخذ يهدد النظام الاقطاعي .

ففكرت البورجوازية، عندئذ، في استخدام المجالس العامة، إذ ان الوضع كان قد تغير ، ويمكن لهذه المجالس ، بعد شيء من الاصلاحات ، ان تخدم البورجوازية ! كانت طبقة النبلاء معزولة في البلاد ؛ وكان الكهنوت منقسما بالنضال الطبقي بين طبقة الكهنوت الاقطاعي وطبقات الكهنوت المنحدر من الشعب ؛ وكانت البورجوازية الطبقة التي تعتمد عليها ثروة الاقتصاد القومي : فقامت بحملة بين الجماهير لمضاعفة عدد نواب الطبقة الثالثة (le tiers - état) (وكان هذا العدد عادة مساويا لعدد نواب كل من الطبقتين الأخريين) ، كما دعت لانتخاب يجري داخل المجالس ، على أساس الفرد وليس على أساس الجماعة . وهكذا تضمن البورجوازية ، بمساعدة نواب الكهنوت الشعبي ، الاكثرية المطلقة في المجالس العامة ! حتى إذا ما اجتمع نواب الطبقة الثالثة ، دعوا نواب الكهنوت الى الانضمام اليهم واعلنوا أنفسهم مجلساً قومياً .

وهكذا نرى ان البورجوازية عرفت كيف تستخدم، حسب تطورات النضال الطبقي ، المؤسسات الملكية في الدولة الاقطاعية (الملك) تارة ، والمؤسسات « الجمهورية » (المجالس العامة) تارة أخرى .

وقد أتاح نمو النضال الطبقي لهذه المؤسسة الاقطاعية محتوى جديداً بورجوازيا؛ ارتدى المحتوى الجديد ، لمدة من الزمن ، صورة قديمة وحدد تحولاتها. ولنشر أخيراً إلى أن التطور النوعي، وهو ازدياد قوة البورجوازية ، في البلاد ، قد افضى

جدلياً إلى تغير نوعي في صورة المؤسسات، الا وهو تحول المجالس العامة إلى مجلس قومي ، وإلى قلب تام للوضع السياسي العـــام ، إلى الثورة السياسية . كل ذلك حدث على أساس نمو النضال الطبقي .

وقد استخدمت البورجوازية ، بدورها ، بعد أن أصبحت طبقة مسيطرة ، مختلف صور الدولة .

ـ الملكية الدستورية التي لم تخرج عن نطاق جمهورية غير ديمقراطيـــة ، لا ينتخب فيها سوى « المواطنين العاملين » الاغنياء الذين يمكنهم دفـــع ضريبة معينة .

ـ الجمهورية المقصورة على دافعي الضرائب.

ـ الجمهورية الديمقراطية التي يقوم على الانتخاب العام « الشامل » .

وتكون الصورة الأولى للدولة حلا وسطاً مع النظام القديم في الاوقات التي كان ذلك فيها ضروريا .

ولقد حظيت الصورة الثانية بتفضيل البورجوازيـــة لانها كانت تتفق تماماً مع الاساس الاقتصادي للعهد فكانت جمهورية الملاك :

وقد أصبحت الصورة الثالثة ضرورية حين نما نضال البروليتاريا الطبقي، ووجب تغطية الدكتاتورية الطبقية « للتخفيف من حدة النضال الطبقي » وتهدئـة اندفاع البروليتاريا الثوري .

وكان يهم البورجوازية أن تغرس في العقول الفكرة القائلة بأن الجمهوريـــة الديمقراطية هي صورة الدولة المثالية لنهائية ، وهي أسمى ما وصل اليه « تقـــدم الوعي »، والمدنية والنزعة الانسانية، وأنها تجسيد « الحق الطبيعي »ونهاية التاريخ

بمعنى ما . وهكذا كانت تأمل تخليد حكم رأس المال .

غير أن تناقضات الرأسمالية ، وتأزم النضال الطبقي ، والازمات الاقتصادية ، والاستعداد للقيام بالفتوحات الاستعمارية ، وبدء أزمة الرأسمالية العامة ، كل ذلك لم يمكنها من ذلك . فاضطرت البورجوازية أن تلقي قناع الديمقراطية ، وأن تعتدي على شرعيتها ، لتبقي سيطرتها الطبقيـــة ، وهي تتأرجح عـــلى أساسها الاقتصادي الفاسد ، وان تستعد للحرب ، فكشفت عندئذ عن وجه الفاشيه الكرية ، وعن دكتاتورية رأس المال في وحشيتها المفترسة . فدلت بذلك على أن محتوى الدولة الطبقي أهم من الصورة ، وأن الجمهورية الديمقراطية كانت صورة تاريخيـة للدولة ، وهي صورة وقتية تابعة لمصالحها الطبقيـــة ، وهي ليست مقدسة ولا خالدة . كما برهنت بنفسها على كذب تصريحاتها عن حبها المجرد للحرية والمدنية !

٤ ـ نضال الطبقات والحرية

أ ـ البورجوازية و « الحرية »

كان لنضال البورجوازية التاريخي من أجل « الحرية » محتوى طبقي .

فإذا كانت البورجوازية ، في زمن الثورة البورجوازية ، قد جعلت من نفسها نصيراً للحرية فذلك :

أ) لانها كانت بحاجة إلى أن تجد في السوق يداً عاملة حرة قد تحررت من قيود الاقطاع ، لا تتعلق بسيد ، يمكنها أن تضمها إلى صناعتها أو تنبذها في البطالة حسب حاجات الانتاج الرأسمالي .

ب) لأن نمو قوى الانتاج الجديدة يتطلب حرية التجارة ، وحرية الأعمال ، وإزالة قيود الاقتصاد الاقطاعي .

ج) لأن « الحرية الفردية » هي الصورة القانونيـــة السياسية التي تعبر أفضل تعبير عن صورة الملكية الخاصة، التي هي أساس البورجوازية ؛ وهي الثروة قـــد تمثلت بالمال الذي يزيل كل علاقة شخصية بين أعضاء المجتمع. وأساس فكرة الحرية الفردية هي الملكية الخاصة البورجوازية ، وان كانت البورجوازيـــة تريد أن توهم الناس ، على العكس ، بان فكرة الفرد المطلقة هي التي تبرر الملكية الخاصة !

د) لأن البورجوازية بنصرتها للحرية ، توجد أساساً فكرياً للتحالف السياسي مع طبقات الشعب الأخرى التي تناضل ضد الاقطاعية : كالفلاحين وفئات متعددة من البورجوازية الصغرى؛ فكانت الثورة الديمقراطية البورجوازية هي الطريقـــة الوحيدة للنجاح في النضال ضد الاقطاعية .

ولنلاحظ ان هذه البورجوازية التي تعلن عن نفسها بأنها « متحررة » هي نفسها التي ترفض حق الانتخاب « للمواطنين السلبيين » ، كما ترفض حق الشراكة للعمال عام ١٧٩١ !

وهكذا تكون حدود نزعتها المتحررة هي حدود مصالحها الطبقية تماماً .

توجد البورجوازية ، المنقسمة على نفسها، بسبب خواص الرأسمالية، والمضاربة إلى فئات تختلف مصالحها ، صوراً للتنظيم السياسي خاصة : وهي تعـــدد الاحزاب البورجوازية ، والنزعة البرلمانية .

ولما كانت المصالح الخاصة بفئة من البورجوازية يجب أن تظل تابعـــة لمصالح الطبقة العامة الدائمة ، فإن البورجوازية تحدد حقوق البرلـــان ، وتفصل السلطة

التنفيذية عن السلطة التشريعية ، وتحول دون اشراف البرلمان على ادارة الدولة .

وإذا كانت البورجوازية اتجهت فيما بعد نحو الانتخاب العـــام الشامل (في أواسط القرن التاسع عشر) ونحو النزعة البرلمانيـــة الديمقراطيـــة ، فلهذا أسباب واضحة :

نما النضال الطبقي ، وأخذت البروليتاريا تطالب بحقوقها السياسية ؛ وأخذت أهمية الرأي العام تزداد لانها امتدت إلى طبقات جديدة نشيطة قـــد نمت بتأثير الصناعة الكبرى ؛ فإذا بالجمهورية الديمقراطية تخفي حينئذ سيطرتها الطبقية ، كما أن الاجر المدفوع في نهايـــة اليوم يخفي الاستغلال الطبقي . يضاف إلى ذلك أن الجمهورية الديمقراطية لم تصبح بعد خطراً على البورجوازية ، لان البروليتاريا لم تكن في هذه الفترة ، مستقلة فكرياً . فمن السهل إذن الحصول على أصواتها بواسطة دعاة البورجوازية ، فتزول نتيجة الانتخاب العام الشامل بطريقة خاصة للانتخاب . وهكذا ألا يلزم قدر من الثقافة حتى يصبح المرء نائباً ، ولهذا تمتنع البورجوازية « الديمقراطية » أن تأتي بأي عمل لتثقيف الجماهير ، سياسياً ، بصورة ديمقراطية ! كما أن مهمة المدرسة الابتدائية الاجبارية هي تنشئة هذه الجماهير عـــلى احترام البورجوازية .

كما أن السياسيين البورجوازيين يجرون على قاعدة وهي التناقض بين وعودهم للناخبين وأعمالهم في البرلمان ، ويعكس هذا التناقض تعارض المصالح بين الشعب والبورجوازية .

وعلى كل حال فقد كانت فوائد الانتخاب العام ، في هـــذه الفترة ، بالنسبة للبورجوازية أكثر من مضاره . فإذا منحتـــه وثقت علاقاتها بالجماهير وأصبحت شعبية عندها فزادت بذلك قوتها السياسية .

ألم يعتد كافور ، البورجوازي الكبير المتحرر ، على القول : « أسوأ المجالس افضل من أسمى المجتمعات خارج هذه المجالس » - « La pire des Chamberes - vaut miéux que lameileure des anticham bres »
مشيراً بذلك إلى مصلحة البورجوازية في اقامة واجهة برلمانية لتأييد الرأي العام . كما كان يؤكد قائلا .

« لم أشعر قط بضعفي كما كنت أشعر أثناء عطل المجالس » ولقد كتب لينين يقول :

تزداد ثقة قوة الثروة في الجمهورية الديمقراطية كلما كانت لا تتعلق بغطاء سياسي سيء للرأسمالية ؛ وهكذا بعد أن يستولي رأس المال على هذ الغطاء ، وهو الافضل ، يقيم سلطته بشكل متين فـلا يستطيع أي تغيير للاشخاص ، أو المؤسسات أو الاحزاب، في الجمهورية الديمقراطية البورجوازية ، ان يزعزع هذه السلطة[1].

ويعني هذا ان الانتخاب العام في الدولة البورجوازية ، يعجز عن أن يعبر تماماً عن ارادة أغلبية العمال ، وأن يضمن تحقيق هذه الارادة . حتى لو أنه أصبح قادراً على ذلك فإن البورجوازية تسرع في القضاء عـلى تأثيره ، فتلغي ، مثلا ، التمثيل النسبي ، وتاتي بالانتخاب القائم عـلى الاكثريـة أو القائم عـلى « الولاء » (apparentements) . وكل هـذه أساليب للتزوير برع فيها دي جسبيري (de Gasperi) في ايطاليا وايدناور (Adenauer) في المانيا . إذ كل شيء حسن لمنع الانتخاب العام من التعبير عن ارادة الشعب .

يظهر ، في أكثر الدول الرأسمالية ديمقراطية ، التناقض ، باستمرار ، بـين

---

(٢) الدولة والثورة ، ص ١٨ .

الشرعية التي تعترف بها القوانين ، والشرعية التي تلغيها الوقائع ، بين الدساتير، التي تمنح الشعب الحريات الديمقراطية ، وبين الفقر الذي يمنعه من استخدامهـا كاملة ، بين الحرية الصورية والتبعية الفعليـة[1] .

ولا يعني هذا قط ، كما سنرى ، ان على البروليتاريا ان لا تأبه بطالـــع الدولة البورجوازية الديمقراطي ، كما أدعى زعماء الاشتراكية الديمقراطية الانتهازيون ، صنائع الفاشية .

ب - البروليتاريا والحريات

يشتد اهتمام البورجوازية للقيام بحروب الاعتداء ، في فترة ازمة الرأسماليـــة العامة ، حين تزداد تناقضات الاستعمار عمقاً . يضاف إلى الاستعداد للحرب، بين الدول الرأسمالية،تهيئة الحرب ضد الاتحاد السوفياتي ، وضد البلاد التي قامت فيها سلطة الطبقة العاملة. ولا يمكن للرأسماليين إلا أن يريدوا الحرب،على أن لا تتعرض فيها الرأسمالية الا" لأقل الاخطار ، طبعاً، وذلك كوسيلة لانقاذ الرأسماليـــة ، وكحل للازمة ولتناقضات النظام الرأسمالي.ولكن إذا كان صحيحاً أن الاستعمار هو السبب الموضوعي للحروب ، فإن القيام باعتداء يتطلب شروطاً ذاتية : ولهذا كان على البورجوازية أن تهيء جنود المستقبل للاعتداء، وأن تستميل، إلى جانب قضية الاستعمار، أغلبية الامة.فكان من الضروري أن تسكت القسم الواعي، في الطبقة العاملة، التي تناضل من أجل السلم، وتقف في وجه الاستعمار ، وتدافع عن

---

(١) موريس توريز : كراسات البلشفية ، أول تشرين أول سنة ١٩٣٦ . « تصريح لصحافي في جريدة « الزمن » الكتاب الثالث، الجزء الثالث عشر ، ص ١٠١

بلد الاشتراكية . ولا يمكن لاية بورجوازية، في تلك المرحلة، أن تندفع في الحرب بدون أن تضمن مؤخرتها ، وأن تلجم طبقتها العاملة والشعوب المستعمرة التي تضطهدها وتعتمد عليها كمعين لها . وما الفاشية إلا نتيجة لهذه الضرورة .

فهي ، بالاضافة إلى ذلك ، توفر وسائل سياسة اقتصادية تقوم على محاولة انقاذ الرأسمالية بالتعجيل في التجمع الرأسمالي ، فتقع على كاهل البورجوازية المتوسطة نتائج الازمة الاقتصادية وتمنعها بقسوة من استخدام أية وسيلة للتعبير السياسي يغذي القضاء على البورجوازية المتوسطة دعاية اجتماعية غوغائية ، إذ تدعى الفاشية ، أمام الطبقة العاملة ، انها ثورية تناهض الرأسمالية ؛ ولكنها تقدم للطبقات المتوسطة التي هدمتها ، تعويضاً ، بواسطة الحرب ، والتوسع الاستعماري و « المجال الحيوي » كما تقدم الدعاية القومية الغوغائية .

ولهذا تدعي الفاشية ، في جمعها لهاتين الدعايتين ، انها قومية اشتراكية ، وما النزعة المناهضة للسامية سوى رحيق هاتين الدعايتين ، لانها تمزج الدعاية الغوغائية المناهضة للرأسمالية بالكراهية القومية والعنصرية .

تمثل الفاشية حكم الاوليغارشية المالية غير المنازع . و « دكتاتورية أشد عناصرها رجعية وتعصباً واستعماراً ، وهي دكتاتورية ارهابية واضحة » . ولا يفرض هؤلاء أوامرهم على الطبقة العاملة فقط ، بل على كل الاقتصاد الرأسمالي . والبورجوازية ، حين تفتتح هذه الصورة للدولة ، إنما تسعى لتمديد أجل الرأسمالية في نزعها الأخير ، وذلك بفضل تأثير الدولة على الاقتصاد . ويبدو هذا التأثير ، بصورة أساسية ، في الحرب الوحشية التي تهدم قوى الانتاج . الفاشية هي تهيئة

الحرب، وهي الحرب ذاتها[١]. الفاشية هي تصفية الديمقراطية البورجوازيـــة منذ فترة الاستعداد للحرب . والدولة الفاشية هي الحاجز « الذي لا يقهر » الذي تود البورجوازية اقامته في وجه قوى المجتمع الصاعدة، حتى تفرض عليها قبول الحرب، أمام أمرين لا بد منهما في آخر مراحل الرأسمالية : أما الانتقال إلى الاشتراكية أو معاناة الحرب الاستعمارية الدوريـــة ·

ولقد قال موريس توريز:« ان الفاشية هي الارهاب الدامي ضد الطبقة العاملة، والقضاء على المنظمات العمالية، وحل النقابات الطبقية، ومنع الاحزاب الشيوعية ، وتوقيف المناضلين العمال الثوريين ، وتعذيب أفضل أبناء الطبقة العاملة واغتيالهم . الفاشية هي اندفاع الحيوانية ، والعودة إلى مظاهرات القرون الوسطى المعاديـــة لليهود ، والقضاء على كل ثقافة ، وسيطرة الجهل والهمجيـــة ، هي الحرب الكريهة[٢] » .

والاستعانة بالفاشية دليل على ان البورجوازية تشعر أنها ستفقد الاكثريـــة بين الجماهير ، وهي شرط لا تستطيع بدونه اعلان الحرب. ولهذا كانت الاستعانة بالفاشية دليلا على ضعف البورجوازية ، وأنها بدلا من أن تعتمد عـــلى رصيد مغتصب ، أصبحت لا تملك سوى الارهاب . غـــير أن انتصار الفاشية يعني أن البورجوازية قد توصلت إلى عزل الطبقة العاملة ، وأنها نجحت في مناورتها السياسية،

---

(١) اعلنت البورجوازية ، منذ عام ١٩١٤ ، حل النشاط البرلماني العادي كي تكون حرة في ادارتها الحرب الاستعمارية .

(٢) موريس توريز « خطاب في المؤتمر السابع لعالمية الشيوعية » ٣ آب ١٩٣٥ . مؤلفات كتاب ٢ ، ج ٩ ، ص ١٢١

وأنها نظمت ارهابها الطبقي ، وأنها سوف تستطيع اعلان الحرب ، وتأخير ساعة سقوطها المحتم سنوات طويلة .

للدولة الديمقراطية البورجوازية والدولة الفاشية نفس المحتوى الطبقي ، غير أنهما يرتبطان بمراحل مختلفة من نمو تناقضات الرأسمالية ونضال الطبقات . ولهذا تحاول الفاشية ، كي تستميل اليها الجماهير ، أن تتقنع بقناع الثورة القومية الاجتماعية . فكان موسوليني يقول : « الاشتراكية البروليتارية اسطورة قديمة ، والفاشية اسطورة جديدة » وإذا كانت البورجوازية تلجأ إلى الفاشية ، فلانها في ضعفها تجد في الفاشية أفضل وسيلة لانقاذ نظامها . ولهذا كان لدور الدولة الفاشية أهمية رئيسية بالنسبة لها . وكما كان على الطبقة العاملة أن لا تمكنها من اصطناع هذه الاداة لاستعبادها . ولهذا لا يمكن للطبقة العاملة أن لا تهتم بصورة الدولة البورجوازية .«ويحاول زعماء الاشتراكية الديمقراطية ، معتمدين على نزعة مادية ساذجة ، أن يذيعوا الفكرة القائلة بأن صورة سيطرة الطبقة لاتهم الطبقة العاملة إلا قليلا ، لأنها « على كل حال » مسيطر عليها . غير أن الطبقة العاملة يهمها أن تنتهي من هذه السيطرة في أسرع وقت . ويحاول زعماء الاشتراكية الديمقراطية بحججهم الواهية ، أن يضعفوا الطبقة العاملة ، أمام الفاشية المعتدية ؛ فهم يعملون لحساب البورجوازية .

كان موريس توريز هو الذي وقف ، في فرنسا ، في وجه التقليل من أهمية الصور التي ترتديها دكتاتورية البورجوازية. فلقد أظهر ، في الخطاب الذي القاه في المؤتمر السابع للعالمية الشيوعية ،أهمية الديمقراطية البورجوازية ، بالنسبة للطبقة العاملة ، بالرغم من طابعها الضيق :

الديمقراطية البورجوازية هي أقل ما يمكن من الحريات التي لا تنفك

البورجوازية الحاكمة من تضييقها، ولكن هذه الحريات تمكن، مع ذلك ، الطبقة العاملة والفئات الكادحة من أن تعبيء نفسها وتنظمها ضد الرأسمالية[1] .

ولعله من الخطأ الاعتقاد بأن النضال من أجل الديمقراطية يمكنــه أن يميل بالبروليتاريا عن رسالتها التاريخية . ولقد أشار لينين إلى أن الجمهورية الديمقراطية بالرغم من أنها لا تقضي قط على سيطرة الرأسمالي ولا على اضطهاد الجماهير ونضال الطبقات ، فإنها تؤدي حتما إلى امتداد النضال واندفاعه ونموه وتأزمه فتتضح عندئذ امكانية تحقيق مصالح الطبقات المحرومة الاساسية؛ ولا بد من أن تتحقق هــذه الامكانية في دكتاتورية البروليتاريا حتما[2] .

وهذا مثال رائع على الجدلية ، يدل على حالة « تتحول فيها الكمية إلى كيفية » وقد تحققت تماماً وبصورة منهجية فأصبحت الديمقراطيــة بروليتارية بعد أن كانت بورجوازية[3] .

ولهذا كانت « الرسالة حول الوضع السياسي ومهمات الحزب الشيوعي الفرنسي» التي أقرها المؤتمر الثالث عشر للحزب تذكر في المسألة ١٥ تعاليم لينين :

لا يمكن للبروليتاريا أن تستعد لقهر البورجوازية ، دون أن تقوم بالنضال في جميع الميادين ، نضال ثوري من أجل الديمقراطية[4] .

ويجب أن تنتبه ، في أيامنا هذه ، لجميع الصور التي ترتديها تصفية شرعيـــة البورجوازية . ولما كانت البورجوازية مضطرة ، بتأثير الجماهير ، إلى الابقاء على

---

(١) م . توريز : مؤلفات ، الكتاب ٢ الجزء ٩ الصفحة ١٢١

(٢) لينين : مؤلفات مختارة ج ٢ ص ٢١٨

(٣) لينين : مؤلفات مختارة ج ٢ ، ص ١٩٤

(٤) لينين : مؤلفات كاملة ، الطبعة الروسية الرابعة ج ٢٢ ، ص ١٣٣ — ١٣٤

الصورة الديمقرطية فإنها تهتم بحرمانها من نتائجها . وهـــذا ما يسمى بصبغ الدولة بالفاشية .

هذا السهم موجه ضد الطبقة العاملة . ولما كانت البورجوازية ترغب في أن تتجنب حكم الرأي العام فإنهـــا تتآمر . حتى إذا حلت الانتخابات قامت بتنظيم محكم لكبح الطبقة العاملة. وتتعدد صور هـــذا الكبح التاريخية من مثل : فرض الضريبة ، أو اعتماد انتخاب الدورتين ، أو انتخاب اللائحة بالأكثرية ، أو انتخاب الفرد بالأكثرية، أو البالوتاج، أو التنازل، أو الانتخاب بالولاء، أو تعديل المناطق الانتخابية ، أو تزوير اللوائح الانتخابية، أو زيادة مصطنعة للاصوات ، أو تدخل المحافظ ، أو منع الجرائد الديمقراطية ، أو اتهام المرشحين ، الخ ...

ونحن لا نزال نذكر الحجج الواهية لتأجيل دعوة المجلس الوطني عام ١٩٥٣ حين طلب العمال المناضلون ذلك . وقد أصبحت دعوته واجبة دستوريا بعد طلب ثلثي نواب المجلس :

أ) قرر رئيس المجلس، منذ تلقى طلب الفريق الشيوعي، بأن هذا الطلب لا قيمة له وأنه يجب التقدم بطلبات فردية .

ب) قررت أغلبية مكتب المجلس، في ٢١ آب بعد أن وصلها ٢٢٩ طلبا ، بأن الطلبات المرسلة باللاسكلي ملغاة (لم يكن المحافظون يعتبرون أوامر القمع المرسلة لاسكليا من الوزارة ملغاة) .

ج) وصل في ٢٤ آب ٢١١ طلباً فرفضت أغلبية المكتب اعتبار أربعة امضاءات مما جعل عدد الطلبات أقل من ٢٠٩ وهو العدد المطلوب .

د) جمع في ٥ أيلول ٢١٩ طلباً جديداً ، فاكتشف المكتب عندئـــذ فجأة أن

أعمال الترميم في المجلس تضطره إلى تأجيل دعوة المجلس شهراً، أي إلى صبيحة عودة المجلس العادية .

وهناك أمثلة أخرى : منع الطلبة من التقدم لامتحان دخول مدرسة الادارة الوطنية بسبب ميولهم أو اصلهم الجزائري . بينما تقرر مقدمة الدستور قائلة : « لا يمكن لأي شخص أن يرزء في عمله أو خدمته بسبب أصله أو آرائه أو معتقداته » .

وهذا ما يدلل على فكرة « التسرب » المشهورة في الدولة البورجوازية ، تلك الفكرة العزيزة على قلب القادة الاشتراكيين الذين يدعون بأن الطبقة العاملة يمكنها أن « تتسرب » إلى الدولة البورجوازية .

يضرب العمال مستخدمين حقاً دستوريا لهم ! فترسل الحكومة لهم في زمن السلم أوامر غير شرعية بمصادرتهم ، بموجب قانون وضع لزمن الحرب، ولكن الشرع يختلف فيما يتعلق بمصادرة المساكن !

فإذا كانت القوانين تمس مصالح البورجوازية امتنعت حكومة البورجوازية عن تطبيقها ، كما أنها تقف إلى جانب أصحاب العمل الذين لا يطبقونها : وكذلك شأن الاجور والمعاشات وقانون المصلحة العامة ، وقوانين التأمين الاجتماعي .

تستخدم البورجوازية ، في صبغها للدولة بالصبغة الفاشية ، جميع الوسائل فهي تنظم تزوير الانتخابات ، كما تؤجل ، لأجل غير محدود ، المناقشات البرلمانية ، وتحاول وضع جميع الموظفين تحت حماية محافظيها ، وتقوم برشوة الشرطة ، وتطالب بتعديل الدستور ، بصورة رجعية ، تحمي نشاط المغامرين ، انصار أعمال القمع العسكرية، وتفتتح نظام مراسيم القوانين .

وأخيراً تنتقل للتآمر ضد الطبقة العاملة ومنظماتها ؛ فتحاول أن تعيق عملها الشرعي ، معتمدة على « المبدأ » القائل بأن الضمانات الشرعية لا تطبق على الطبقة العاملة ؛ وهي تلغي تأمين أشخاص المواطنين، وتقوم بالتوقيف الاحتياطي، بدون اتهام ، وبدون ملف للقضية ؛ كما تقوم بالتفتيش في غياب من يعنيهم الأمر ، كما تسرق أوراق الاشخاص الموقوفين ؛ وتخترع التهم أثناء التحقيق ! وفي نفس الوقت تحيط منتخبي الطبقة العاملة بجو من التهديد برفع الحصانة النيابية ، وتدعى جر المدنيين أمام المحاكم العسكرية ؛ وتقوم بالتهويل على القضاء ، وتحمي مرتكبي الاغتيالات ضد القضاة ! وكما كان باربوس يقول : « لقد سقطت من يديها وثيقة حقوق الانسان منذ أمد طويل[1] » .

نرى إذن أن نضال الطبقة العاملة ، في مثل هذه الظروف ، ضد الدولة البورجوازية ، ومحاولاتها الفاشية ، يتفق مع النضال من أجل الدفاع عن الحريات الديمقراطية البورجوازية ، تلك الحريات التي داستها البورجوازية باقدامها ، بينما تملك الطبقة العاملة القوة للعمل على احترامها إذا ما اتحدت. مثال ذلك أنه كان يستحيل في ٢١ آب سنة ١٩٥٣ ، على مكتب المجلس أن يعارض في دعوة البرلمان ، لو أن القادة الاشتراكيين الديمقراطيين للنقابات المنشقة لم يوجهوا ، قبل بضع ساعات ، ضربة قاضية للاضراب فأعلنوا استئناف العمل . حتى إذا ما اتحدت الطبقة العاملة أصبحت لديها القوة لتنمية نشاطها في جميع الميادين ، بفضل الشرعية الديمقراطية البورجوازية .

للطبقة العاملة أسباب طبقية مبدأية للدفاع عن الحريات الديمقراطية البورجوازية ، ضد الدولة البورجوازية . كحرية انشاء النقابات التي فازت بها

---

(١) هـ . باربوس : احاديث مناضل ، ص ٢٤

والتي لها أهميتها الرئيسية في نضالها الاقتصادي ، وحرية تنظيم نفسها في قوة سياسية مستقلة ، تستطيع أن تستمر في سياسة تلائم رسالة البروليتاريا التاريخية .

المشكلة التي تشغل «اليوم» ملايين العمال الذين يعيشون في ظروف الرأسمالية ، هي تحديد موقفهم من الصور التي ترتديها سيطرة البورجوازية في مختلف البلدان : نحن لسنا فوضويين ، كما أننا لسنا غير مبالين بمشكلة معرفة نوعية النظام السياسي القائم في بلد ما . هل هي دكتاتورية بورجوازية في صورة ديمقراطية بورجوازية ولو كانت تتمتع بأضيق الحقوق والحريات الديمقراطية ، أم هي الدكتاتورية البورجوازية في صورتها "الفاشية المفضوحة ؟ ولما كنا انصار الديمقراطية السوفياتية[1] فإننا ندافع عن كل شبر من أرباحنا الديمقراطية التي انتزعتها الطبقة العاملة ، خلال سنوات طويلة من النضال العنيد ؛ كما أننا نناضل بعزم لتوسيع هذه الارباح .

كم من تضحيات تجشمتها الطبقة العاملة في انجلترا قبل أن تنال حق الاضراب ، والاعتراف بوجود النقابات شرعياً ، وحرية الاجتماع ، وحريـة الصحافة، وتوسيع حق الانتخاب الخ .. كم من عشرات آلاف العمال بـذلوا أرواحهم في المعارك الثورية التي نشبت ، في فرنسا في القرن التاسع عشر ، لينالوا الحقوق الأولية وامكانية تنظيم قواهم للنضال ضد المستغلين ! لقـد بذلت البروليتاريا ، في جميع البلدان ، الكثير من الدماء لتفوز بالحريات الديمقراطية البورجوازية . ولهذا

---

(١) أو آية صورة من صور الديمقراطية التي تقوم على انتصار البروليتاريا وانتقال غالبية الشعب الساحقة على طريق الاشتراكية .

تدرك عزمها على النضال بكل قواها للمحافظة عليها[١] .

لقد ضمنت البروليتاريا نموها السياسي بفوزها بالحريات الديمقراطية البورجوازية، مع أن البورجوازية قد تصورت هذه الحريات لاستعمالها الخاص . كتب لينين يقول :

أحرزت الجمهورية الديمقراطية، كما أحرز الانتخاب العام ، تقدماً ضخماً بالنسبة للرق : فلقد مكنتا البروليتاريا من الوصول إلى هذا الاتحاد ، وهذا التكاتف اللذين تتمتع بها الآن ، وأن تكوّن صفوفها المنظمة التي تقوم بنضال منظم ضد رأس المال...ولولا النزعة البرلمانية والانتخاب لاستحال نمو الطبقة العاملة بهذا الشكل[٢]

لهذا كان قول الزعماء الاشتراكيين الديمقراطيين ، بأن الماركسيين اللينينيين ينهجون سياسة الأسوأ، ويفضلون الفاشية على الجمهورية ، غبية وغمية. لقد رأينا ، عدة مرات ، الاهمية التي تعلقها الماركسية على دور الافكار التي تتسرب إلى الجماهير، وتصبح قوة مادية، تمسي عاملا فعالا في التغيرات السياسية الضرورية للتحول الاجتماعي ، متى تحققت الشروط الموضوعية. ولكن هل يمكن إذاعة هذه الافكار الماركسية بين الجماهير إلاّ بواسطة الدعاية الصريحة لهذه الأفكار، تلك الدعاية التي تسمح بتعبئة الجماهير وتنظيمها من أجل العمل السياسي ؟ أفضل الشروط إذن بالنسبة للبروليتاريين الثوريين هي ، في المجتمع الرأسمالي ، شروط الجمهورية الديمقراطية، التي يستطيع بفضلها حزبهم أن يشرح صراحة للجماهير الفقيرة سياسته :

---

(١) ديمتروف : « المؤتمر السابع للعالمية الشيوعية (١٣ آب ١٩٣٥) » مؤلفات مختارة ، ص ١٣٦ - ١٣٧ ، المطبوعات الاجتماعية ، باريس ١٩٥٢

(٢) لينين : « حول الدولة » في « الدولة والثورة » ص ١٢٦

والماديون الساذجون ، الذين يجهلون الجدلية ، ولا يعرفون دور الأفكار وأهميتها ، يمكنهم أن لا يعبأوا ، مع الفوضويين ، بصورة الدولة البورجوازية .

كتب لينين يقول،معلقاً على ملاحظة لانجلز في نقده لمشروع البرنامج الاشتراكي الديمقراطي لعام ١٨٩١ :

يكرر انجلز هنا ، مع توضيحها ، الفكرة الأساسية التي تضع خطاً أحمر على جميع مؤلفات ماركس، وهي ان الجمهورية الديمقراطية هي اقصر الطرق المؤدية إلى دكتاتورية البروليتاريا[١] .

يلاحظ ديمتروف ، في تتمة النص المذكور آنفاً ، أن موقف الطبقة العاملة من الديمقراطية البورجوازية تفرضه أسباب طبقية ، وأن هذا الموقف يحدده موقف القوى المناهضة للثورة من الديمقراطية البورجوازية. وهو يلاحظ أن الثورة الفاشية المناوئة هي التي تهاجم ، اليوم ، الديمقراطية البورجوازية ، محاولة اخضاع العمال لنظام الاستغلال والارهاق البربري .

وعلى الجماهير العاملة أن تختار، اليوم ، في عدد من البلاد الرأسمالية،ليس بين دكتاتورية البروليتاريا والديمقراطية البورجوازية ، بل بين الديمقراطية البورجوازية والفاشية[٢] .

ولقد اختصر موريس توريز تعاليم الجدلية الماركسية حول هذه المسألة في عام ١٩٣٤، في المؤتمر القومي للحزب الشيوعي الفرنسي في الكلمات التالية :

---

(١) لينين : الدولة والثورة ص٦٦

(٢) ديمتروف : المرجع المذكور ص ١٣٧

يناضل الشيوعيون ضد جميع صور الدكتاتورية البورجوازية حتى ولو ارتدت هذه الدكتاتورية صورة الديمقراطية البورجوازية . غير أن الشيوعيين لن يهملوا قط الصورة التي يرتديها النظام السياسي للبورجوازية . فهم يكشفون القناع عن عملية انحطاط الديمقراطية البورجوازية الرجعي، ممهدة الطريق أمام الفاشية. لقد دافعوا ، ويدافعون ، وسوف يدافعون ، عن جميع الحريات الديمقراطية التي فازت بها الجماهير نفسها ، وأولاها جميع حقوق الطبقة العاملة[1] .

توجد الطبقة العاملة ، في نضالها ضد الفاشية للدفاع عن الحريات الديمقراطية البورجوازية ، أساساً للتحالف مع الطبقات المتوسطة وطبقة الفلاحين العاملين ، تلك الطبقات التي ترتبط بالحريات الديمقراطية وتذهب ضحية دكتاتورية رأس المال الكبير . فهي تعمل على فصل هذه الطبقات عن البورجوازية الكبرى ، وعزل البورجوازية ، وحرمانها من انصارها بين البورجوازية الصغرى . يدعم النضال ضد الفاشية ، إذن ، قوة تحالف البروليتاريا ، والفلاحين والطبقات المتوسطة ، تلك القوة التي بدونها لا يمكن الخلاص من ذلك السدّ الذي تقيمه القوى الرجعية في وجه التقدم الاجتماعي .

ولا تنسى الطبقة العاملة ، في نضالها من أجل الدفاع عن الحريات الديمقراطية، انها تناضل أيضاً من أجل حرية اسمى، هي حرية العمال، وقد تحرروا من استغلال الانسان لأخيه الانسان ، أن يمارسوا سلطة دولة من نوع جديد ، فهي التعبير عن ارادة غالبية الأمة العظمى ، وأن يجعلوا الدولة تقوم بتطبيق واعٍ لقوانين الطبيعة والمجتمع لمصلحة المجتمع .

---

(١) م . توريز : مؤلفات ، كتاب ٢ ، ج ٦ ص ١٧٠ - ١٧١

تناضل الطبقة العاملة من أجل الدفـاع عن الحريات الديمقراطيـة البورجوازية وتوسيعها . لهذا النضال ، إذن ، محتوى اجتماعي يختلف نوعياً عن نضال البورجوازية من أجل « الحرية » .

ولا يمكن ايجاد علاقات انتاج جديدة اشتراكية ، تعني انتقال الانسانية إلى الحرية الفعلية ، إلا بازدهار الديمقراطية باوسع معناها .

ندرك الآن الصلة بين المسألة السياسية لنضال طبقة العمال ، من أجل الحريات الديمقراطية ، وبين المسألة النظرية لتطبيق قانون الترابط الضروري بين علاقات الانتاج وقوى الانتاج ، كما ندرك الصلة بين آخر مؤلف نظري لستالين (مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي) وبين هذا المقطع من خطابه ، في المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي، في الاتحاد السوفياتي :

كان للبورجوازية ، في الماضي ، ان تتظاهر بالنزعة المتحررة ، فكانت تدافع عن الحريات الديمقراطية البورجوازية، فتوجد هكذا شعبية لها. أما الآن فلم يبق أي أثر للنزعة المتحررة . ولم تعد توجد « الحريات الفردية » المزعومة ، ولا يعترف اليوم بحقوق الفرد إلا لأولئك الذين يملكون رأس مـال ، بينما سائر المواطنين يعتبرون مواد انسانيـة خام صالحة فقط للاستغلال . لقد ديس بالاقدام مبدأ المساواة في الحقوق بين الناس والأمم ، وحل محله المبدأ الذي يعطى كل الحقوق للأقلية المستغِلة ، ويحرم غالبية المواطنين المستغَلين من حقوقهم .

لقد ألقي براية الحريات الديمقراطية البورجوازية . وأعتقد أن عليكم ، يا ممثلي الاحزاب الشيوعية والديمقراطية ، ان ترفعوا هذه الراية وتحملوها وتتقدموا بها إلى الأمام ، إذا أردتم ان تجمعوا حولكم غالبية الشعب . وليس أحد غيركم يستطيع رفع هذه الراية[1] .

(١) ستالين : آخر مؤلفات ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ . المطبوعات الاجتماعية ، باريس ١٩٥٣

الأمة (١)

١ ـ الأمة والطبقة الأجتماعية .
٢ ـ النظرة العلمية للأمة .
أ) ما هي الأمة ؟
ب) بعض أخطاء يجب تجنبها .
٣ ـ البورجوازية والأمة .
أ) تكوين الأمم البورجوازية .
ب) البورجوازية على رأس الأمة .
ج) البورجوازيه خائنة للأمة .
٤ ـ الطبقة العاملة والأمة .
أ) النزعة العالمية البروليتارية .
ب) النزعة الوطنية البروليتارية .

١ - الأُمَّة وَالطَبقَة الاجتِمَاعِيَّة

ليس هنـاك من مشكلة تشغل الناس ، في الوقت الحاضر، أكثر من المشكلة القومية . ويمكن القول ، سواء كان ذلك بصدد نضال الشعب الفرنسي من أجل استقلاله ، ووجوده ، أم بصدد نضال شعوب الفيتنام المظفر ، أم نضال شعب مراكش أم شعوب الشرق الأوسط ، الخ ، إن المشكلة القومية ازدادت أهميتها مع الأيام . غير أنها مشكلة صعبة جداً ؛ ولا يمكن التعرض لها وحلها إلا على أساس المادية التاريخية .

كان لينين يقول ، وهو يتجول عام ١٩٠٢ في شوارع لندن ، تلك المدينة التي يرجع الفضل في قوتها إلى الرأسماليين : « هنا تعيش أمتان » مشيراً إلى الفرق بين شوارع الأحياء البورجوازية الفخمة وبين الأزقة الضيقة البائسة التي تتكدس فيها الطبقة العاملة . وكانت البورجوازية تريد أن توهم الناس أن التاريخ قائم فقط على النضال بين الأمم ؛ محاولة بذلك اخفاء اضطهادها الطبقي ، وأن تقنع العمال ان مصالحها هي مصالح جميع الأمة . غير أن المادية التاريخية ، باكتشافها أن التاريخ يحركه نضال الطبقات ، قد دللت على ان انقسام الناس إلى طبقات متعارضة أشد عمقاً من انقسامهم الى أمم ؛ ويمكن تفسير الوان النضال بين الأمم بواسطة نضال الطبقات ، وبمحتوى الأمم الطبقي .

ولا يعني تفضيل الماركسيين للطبقة الاجتماعية قط أنهم لا يعباون بالأمة ، فالأمة حقيقة تاريخية ظهرت وتنمو على أساس طبقي ، كما سنرى ، وسوف تزول في المجتمع الخالي من الطبقات ، غير أنها ، خلال الفترة الطويلة التي توجد فيها ، تقوم بدور كبير يفسر اهمية الحركات القومية في نظر الماركسيين . ولهذا كانت النظرية

القائلة بنفي حقيقة القومية مضادة للمادية . ويقول بهذه النظريــة اعداء الحركة العمالية ، وأولهم زعماء الاشتراكية اليمينيون الذين يــدعون العمال إلى التخلي عن السيادة القومية لحساب الاستعمار الاميركي ، بينما يؤيد الماركسيون الحقيقيون ، عــلى العكس ، وهم المخلصون للمادية التاريخية، بقوة ، حركات التحرر القومي في الشعوب المضطهدة التابعة . ولكنهم لا ينظرون إلى المشكلة القومية في ذاتها : بــل هم يربطونها بنضال البروليتاريا الثوري ، وبمسألة تحرير البروليتاريا من النير الطبقي .

٢ - النظرة العلمية للأمة

أ - ما هي الأمة ؟

الأمة هي حقيقة موضوعية . ولقد دفع المتاريون ثمن عقيدتهم بأنه يمكنهم إزالة الأمم عن سطح الكرة غالباً، وادركوا انهذه الحقيقة موجودة، وانها تتمتع بقوة عظيمة للمقاومه .

فما هي صفاتها ؟

أ) وحدة اللغة .

يتكلم اعضاء الأمة الواحدة لغــة واحدة ، هي اللغة القومية . ولهذا حاول الغزاة الفاتحون الذين ارادوا ، عبر التاريخ ، القضاء عــلى قومية ما ، ان يفرضوا عليها لغة الدولة المنتصرة. فالتمثل اللغوي، إذن ، هو صورة من الاضطهادالقومي. وقد استعمل قياصرة روسيا القديمة هــذا التمثل في الشعوب الصغيرة المستعمَرة .

وكذلك يفعل الاستعماريون الفرنسيون في افريقيا الشمالية : غير انــه لا يمكننا فرض لغة على شعب ما : لأن اللغة الوحيدة التي يعترف بهـا هي لغته الأم .

حيث يرشف ويرشف الحروف
التي يتلألأ فيها الوطن ويخفق[1]

نضال الأمم المضطهدة من أجل استقلالها ، هو ، إذن ، أيضاً نضال من أجل لغتها . ذلك هو شأن الشعوب الناطقة باللغة العربية التي استعمرها الاستعماريون الفرنسيون .

اللغة اداة قوية للثقافة القومية : ولهذا شجعت الحرية التامة التي أعطيت لمختلف اللغات القومية ، في الاتحاد السوفياتي ، منذ عام ١٩١٧ ، التفتح الثقافي للشعوب التي اضطهدها الاستعمار أيام روسيا القيصرية .

اللغة هي ملك الأمة في مجموعها وليست ملك طبقة معينـــة . وإلا فكيف يستطيع التفاهم أعضاء الطبقات فيما بينهم ؟ يحارب ستالين في كتابه الرائع : حول الماركسية في علم اللغة[2] النظرية المضادة للماركسية التي يقول بها الذين يعتمدون على تعدد الطبقات فينتهون إلى تعدد اللغات في أمة معينة ، لا شك أنه يمكن أن يوجد لهجات تستعملها فئات من الطبقة المحظوظة ، تلك الفئات التي تريد، بأي ثمن ؟ التميز عن غيرها : (وهكذا كانت « الشبيبة الذهبية » أيام ردة الفعل الترميدورية، تتظاهر بأنها لا تتكلم كالشعب) غير ان بعض التعابير ، والاستعمالات الغريبـــة لا تكفي لتكوين لغة . فاللغة هي ثمرة تاريخ شعب ؟ فهي لا تتغير إلا ببطء شديد،

(١) أراجون « جندي القرى المئة » في « ديانا الفرنسية » .

(٢) ستالين : « حول الماركسية في علم اللغة » في آخر مؤلفات .

ويظل تركيبها ذاته ، خلال النظم الاجتماعية المختلفة ، وان كانت الفاظها تزداد غنى شيئاً فشيئاً (بفضل تقدم التقنيات خاصة) . ويستعمل كل اعضاء الأمـــة ، مهما كانت طبقتهم ، نفس اللغة ، وان كانت كل طبقة تحاول استعمال اللغـة لصالحها . مثال : ضمنت البورجوازية ، بإيجادها المدرسة الاجبارية ، في مطلع الجمهوريـــة الثالثة ، انتشاراً واسعاً للغة الفرنسية ، لا سيما بين الفلاحين ، وكانت تلك مصلحتها الطبقية ، لأنه كان على دافع الضرائب أن يعرف قراءة أوراق الضرائب التي فرضتها الدولة البورجوازية ؛ كما كان على الفلاح ، إذا ما دعي لحمل السلاح ، ان يفهم أوامر رئيسه . غير أن البروليتاريا ، التي كانت تتكلم أيضاً اللغة الفرنسية ، لغـــة جميع الأمة ، عرفت كيف تستفيد من هذا الانتشار للغـــة ؛ وليس فقط لأن دراسة اللغة الفرنسية قوت نضالها الطبقي الخاص ؛ بل لأن انتشار اللغة الفرنسية سهل التحالف الثوري مع طبقة الفلاحين العامـــة : فهذا الفلاح الفتى الذي كان يتعلم في الصف قراءة اللغة الفرنسية كان يستطيع أن يقرأ أمام العائلة والأصدقاء الجريـدة الثورية المطبوعة في المدينة[1] .

ولا تعني أهمية اللغة ، كعنصر مكوّن للأمة في مجموعها ، ان اللغـــة تكفي لتكوين الأمة : إذ يمكن لأمم مختلفة أن تتكلم نفس اللغة : وهكذا يتكلم الانجليز والاميركيون الشماليون نفس اللغة ، ومع ذلك يكوّنون امتين مختلفتين ؛ وقـــد نمت هاتان الأمتان على أساس بلدين مختلفين[2] .

---

(١) راجع الصفحات الرائعـــة التي كتبها موريس توريز في « أبن الشعب » ص ٢٣ ، ٢٧ ، حول أهمية دراسة اللغة القومية في تكوين المناضل الثوري.

(٢) أما سويسرا فهي تجمع ، على أرض واحدة ، قوميات مختلفة ، تتكلم كل منها لغتها الخاصة ، ولقد أتاح نمو هذا البلد التاريخي ، والتقاليد الديمقراطية القروية، وكما يقول ستالين في « الماركسية والمسألة القومية والاستعمارية (ص ٤٩ . المطبوعات الاجتماعية ، باريس ١٩٥٠) . « النزعة الديمقراطية العالمية » ، كل هذا اتاح للقوميات التي تكون سويسرا ان تعيش بحرية جنباً إلى جنب .

ب) وحدة الارض

إذا كانت الأمة وحدة لغوية فإنها أيضاً وحدة أرض، إذ ان كل أمة هي ثمرة التاريخ ؛ فهي تستحيل بدون حياة طويلة مشتركة : ولهـــذا تعتبر الشعوب كل ضم لجزء من أرض الوطن اعتداءً على الأمة .

ونلاحظ أن حرب كوريا لا يمكن تقديرهـــا بصورة صحيحة إلا إذا أدركنا أهمية الأرض كعنصر من العناصر المكونة للأمة ، تكوّن كوريا الجنوبية و كوريا الشمالية دولتين، ولكنها أمة واحدة. ولهذا كانت النظرية، التي دافعت عنها الدبلوماسية الروسية في الأمم المتحدة ـ داعية «إلى عدم التدخل لان حرب كوريا قضية داخلية، وحرب أهلية » ـ عادلة. فقد كانت هذه الحرب داخل أمة واحدة. كما كان ارسال الجيوش الاميركية عملا عدائياً ضد الأمة الكورية في مجموعها .

ويمكننا أن نلاحظ أن وحدة الأرض تجعل مشكلة القومية مسألة حساسة جداً بالنسبة للفلاحين : ففي بعض الحالات تصبح مسألة الفلاحـــين في مقدمة المشكلة القومية ، لأن الفلاحين قـــد حُرموا من أرض الأجداد (مثال ذلك الشعوب المستعمَرة) .

غير أن وحدة الأرض ، مهما كانت أهميتها ، لا تكفي لتكوين الأمة . فلقـد وجدت ، في القرون الوسطى، الظروف الاقتصادية لتكوين أرض قومية ؛ ولكنها كان ينقصها وحدة الحياة الاقتصادية التي تربط مختلف الأجزاء . إذ يجب ، لتكوين الأمة ، هذه الرابطة الاقتصادية الداخلية بـــين مختلف أجزاء أرض الوطن .

ج) وحدة الحياة الاقتصادية

الأمة سوق

كانت فرنسا الاقطاعية مجموعة من المقاطعات ، لكل منها حياتها الاقتصادية الخاصة ، وعملتها ، ومقاييسها ، وأوزانها ، تفصلها سلسلة من الجمارك التي تعيق التبادل بينها . ولم يكن ليتم توحيد الأمة الفرنسية عام ١٧٨٩ إلا بإزالة هـذه العوائق في وجه الوحدة (ولا سيما الجمارك الداخليـــة) .

وكذلك هيأ توحيد المانيا الاقتصادي توحيدها السياسي .

ذلك لأن السوق يضمن التبادل بين المنتوجات القادمة من مختلف أنحاء أرض . وتزداد قوة الحياة الاقتصادية المشتركة (مع توحيد العملة) بنمو طرق الاتصال ووسائله .

تلك هي الأسس المادية التي بدونها لا يمكن وجود أية أمـــة . ولهذا جهد الهتلريون ، عام ١٩٤٠ ، والبورجوازية الفرنسية الكبرى لاستعباد بلادنا ، وتحطيم وحدة حياتها القومية : فقسموا أرض الوطن إلى «منطقتين» ، وتألبوا على صناعتنا القومية محاولين تحويل فرنسا إلى بلد زراعي فقط ، تابع لالمانيا الصناعية .

ويسعى ، اليوم ، أصحاب مشروع شومان (الفحم والفولاذ) لتحقيق نفس الهدف : فهم يريدون تصفية الصناعة القوميـــة الفرنسية ، التي هي أساس استقلال بلادنا ، وذلك لمصلحة الاستعمار الاميركي وكبار الصناعيين في الرور .

ولنلاحظ أن ازدهار الديمقراطيات الشعبية القومي ، كرومانيا ، وبلغاريا ، مشروط ، على العكس ، بتقدم صناعتها القومية الهائل .

ملاحظة :

لا يناقض النضال بين الطبقات، داخل أمة من الأمم، قط وحدة الحياة الاقتصادية، لان وجود الطبقات يعتمد على واقع اقتصادي ممتاز هو الانتاج.

فطالما وجدت الرأسمالية طالما ظلت البورجوازية والبروليتاريا مرتبطتين معاً بجميع روابط الحياة الاقتصادية، كجزئين مكوّنين لمجتمع رأسمالي واحد. فلا يستطيع البورجوازيون العيش والاثراء إذا لم يتوفر لهم العمال المأجورون؛ كما لا يستطيع البروليتاريون العيش إذا لم يعملوا عند الرأسماليين. ويعني قطع الروابط الاقتصادية بينهما توقف كل انتاج؛ وتوقف كل انتاج يؤدي إلى موت المجتمع، وموت الطبقات نفسها. ولهذا ندرك أن ليس هناك من طبقة تريد الهلاك. لا يمكن للنضال الطبقي، مهما اشتد، أن يؤدي إلى انحلال المجتمع[1].

د) وحدة التكوين النفسي والثقافي

تتيح لنا المادية الجدلية أن ندرك أن وحدة الظروف الحياتية الدائمة تؤدي إلى خواص نفسية مشتركة بين أعضاء أمة من الأمم.

فالأمة هي وحدة تكوين نفسي. فهناك خلق قومي يميز كل أمة عن الأمم الأخرى، وأصل هذا الاختلاف أن كل شعب يحيا، منذ أمد طويل، في ظروف خاصة. كما يجب أن نشير إلى أن وحدة اللغة تولد بالضرورة، مع مرور الزمن، خواص نفسية مشتركة.

---

(١) الماركسية والمسألة القومية والاستعمارية، ص ١٣. المطبوعات الاجتماعية.

ويجب أن لا نخلط بين الأمور الفكرية والأمور النفسية. إذ أن الطبقات، التي تناضل فيما بينها، نظريات فكرية متعارضة، ولكنه يوجد، مع ذلك، معالم خلقية خاصة بالفرنسيين، في مجموعهم. كحدة الذهن، مثلا، والميل للافكار الواضحة. كما أن حب الحرية قوي بين الشعب الفرنسي. ويفسر هذا بتقاليدهم الثورية القديمة.

تجد وحدة التكوين النفسي أسمى تعبير عنها في وحدة الثقافة. إذ لكل أمة تراث ثقافي يعكس صورتها. وتوجد هذه الوحدة الثقافية رابطة قوية بين أعضاء الأمة.

تعترف الشعوب بقيمة التراث الثقافي كعنصر من عناصر الوحدة القومية: فانجلترا هي شيكسبير، ونيوتن، وكبار الرسامين. وفرنسا هي فولتير، وباستور، والكاتدرائيات، وقصور اللوار. والمانيا هي جوته، وسمفونيات بتهوفن. وروسيا هي بوشكين، وتولستوي، وبافلوف، وغوركي.

وتدافع كل أمة، في محافظتها على ثقافتها، عن وجودها المادي كأمة بصورة غير مباشرة. وهكذا يقف اشعاع باريس وروما الثقافي حجر عثرة في وجه «الحرب في أوروبا» التي يحلم بها زعماء واشنطن. لأنهم لا يعرفون ولا يحبون سوى الدولار؛ بينما يتفق ملايين الناس، من مختلف المعتقدات، في جميع أنحاء العالم، لمحاربة حرب تقضي على روائع روما وباريس.

ومن هنا ندرك كيف أن البورجوازية الكبرى الرجعية، في ايجادها لظروف مادية تناقض نمو الثقافة الفرنسية، تناضل، موضوعياً، ضد وجود الأمة نفسها. يجعلنا هذا نرى أنه لا يمكننا التكلم عن وحدة ثقافية مطلقة، خارج العلاقات الطبقية، حتى إذا ما بلغ النضال الطبقي درجة عالية يضطر الطبقة المستغِلة إلى

التنكر للمصلحة القومية ، نجد أن هذه الطبقة تخرج ، عندئذ ، وحدة الثقافة . ذلك هو الحال في فرنسا . فلقد خاصمت البورجوازية الرجعية أفضل تقاليـد بلادنا الثقافية وتنكرت للمصالح القومية . ورأينا ذلك بمناسبة الاحتفال بذكرى الشاعر القومي الكبير فكتور هوجو : فلقد سعت إلى حصر نطاق الاحتفالات بهـذه الذكرى ، لأن آثار فكتور هوجو الضخمة الشعبية ، في خدمة الحريـة والاخاء والسلم ، تظهر مخازيها . فلقد رأينا في باريس ، عند ساحة فكتور هوجو ، سيارة فورد تحل محل تمثال الشاعر . والطبقة الثورية ، أي طبقة العمال ، هي التي تحافظ عـلى التراث الثقافي .

ه) وحدة مستقرة ، تكونت تاريخياً

هذه العناصر المتعددة (وحدة اللغـة ، وحدة الأرض ، وحدة الحيـاة الاقتصادية ، وحدة التكوين النفسي والثقافي) لم توجد دائماً . بل تكونت عـلى مدى التاريخ . لأن الوحدة القومية هي ثمرة تاريخية . ولهذا كان أعوان هتلر بين سنتي ١٩٤٠ – ١٩٤٤ يشوهون تاريخ شعبنا لاضعاف وعيـه القومي . فكانوا يدعون ، مثلاً ، إلى كراهية ثورة ١٧٨٩ ، التي لا يمكن فهم التاريخ القومي بدونها ، كما أن ذكراها رابط قوي بين الفرنسيين .

وسوف نعود ، في القسم الثالث من هذا الدرس ، للحديث عن تكوين الامة التاريخي .

يجب ، مع ذلك ، كي توجد الأمة ، أن تكون الوحدة ، التي تكونت تاريخياً مستقرة . ولهذا لم تكن امبراطورية نابوليون الأول أمة ، بل كانت مجموعـة من الجماعات العابرة التي ترتبط فيما بينهـا بروابط واهٍ » (ستالين) . وكانت هـذه الامبراطورية تمتد خارج حدود فرنسا ، فتشمل المانيا وايطاليا واسبانيا ، الخ ...

هذه الامبراطورية التي قامت بالسيف زالت بالسيف . غير أن الكوارث الحربية التي قضت عليها لم تقض على الأمة الفرنسية ، ولم يكن بامكانها ان تقضي عليها . وكذلك شأن الأمة الالمانية ؛ إذا أن انهيار هتلر لم يكن يعني نهاية هذه الأمة ، كما أن مطالبتها بالوحدة شرعية . نستطيع الآن أن ندرك تعريف ستالين المشهورة للأمة :

الأمة وحدة مستقرة ، تكونت تاريخياً ، في اللغة ، والأرض ، والحياة الاقتصادية والتكوين النفسي ، تظهر في وحدة الثقافة[1] .

ب - بعض أخطاء يجب تجنبها

أ) تتفاعل العناصر المكوّنة للأمة . وليس هناك من عنصر ، يكفي وحده ، لتكوين الأمة : ولهذا فإن قصر الأمة على أحد جوانبها موقف ميتافيزيقي . كموقف ارنست رينان ، مثلا ، الذي كان يقول : « الأمة نفس[2] » فكان يجهل الأسس المادية التي بدونها تخلو الأمة من الحياة الروحية . وهذا أيضاً موقف النظريين الاشتراكيين الديمقراطيين أوتو بور (otto Bauer) و سبرنجر (Springer) الذي حاربه ستالين ، فهما يدعيان بأن الأمة تنحصر في وحدة الثقافة . فينكران وحدة الارض واللغة . ولو أن هذه النظرة المثالية سيطرت لأدت إلى ابعاد الناس عن النضال من أجل الأسس المادية لوجودهم .

---

(١) الماركسية والمسألة القومية والاستعمارية ص ١٥

(٢) رينان : « ما هي الأمة ؟ » خطب ومحاضرات .

ب) بعض العناصر في تحديد الأمة المادي : الجنس والدولة . ليس الجنس عنصراً مكوناً للوحدة القومية . الجنس هو جماعة مهمة من الناس لهم أخلاق جسدية مشتركة متوارثة (كلون الجلد والعينين وشكل الوجه) فهو إذن عنصر بيولوجي غير انه ليس هناك من عنصر بيولوجي يستطيع القيـــام بدور فعال في تطور المجتمعات لا يمكن فهمه إلا بالوقائع الاجتماعية (كالانتاج ونضال الطبقات ، الخ.) ولهذا نرى أن شعوباً مختلفة بيولوجيا (الروس والصينيون) لهم نمو تاريخي مماثل منذ المجتمع البدائي حتى الرأسمالية والاشتراكيـــة .

يكون اليهود جماعة جنسية ، ولكنهم مع ذلك ليسوا أمة . إذ يعيش اليهود الفرنسيون ، واليهود الالمان ، واليهود الاميركان ، الخ .. فوق أراضٍ مختلفة ، ويتكلمون لغات مختلفة ، ويشاركون في وحدات اقتصادية وثقافيـــة مختلفة . فهم إذن أعضاء في أمم مختلفة . أما دولة اسرائيل ، فهي ليست « دولة يهوديـة » لأنها تضم عدداً كبيراً من العرب .

الأمة الفرنسية مزيج من أجناس متعددة ، وقـــد مثل هذا المزيج عيد « الاتحاد » (Fédération) في ١٤ تموز سنـــة ١٧٩٠ ، فقـــد اعترفت العناصر الجنسية المختلفة (النورمان ، الباسك ، التريتون ، البروفنسيون) بأنها أعضاء من وحدة قومية هي ثمرة للتاريخ . ولقد قام الاقطاعيون ، اعداء الأمة ، بالحديث عن الدم ضد الوطن ، للمحافظة على امتيازاتهم . ولم يكن لهذه الامتيازات ما يبررها سوى الوراثة . ويمكن القول أن ثورة ١٧٨٩ ، في فرنسا ، كانت انتصاراً للحقيقة القومية على المبدأ العنصري .

العنصرية هي عدوة الامم . ولقد دلل على ذلك الهتلريون ، الذين كانوا يدعون انهم « شعب مختار » ويدوسون بأرجلهم استقلال الشعوب ، بصورة همويـــة .

وسار على غراره الاميركيون في كوريا. وتنمي البورجوازية الكبرى الاستعمارية، في البلاد الرأسمالية، الافكار العنصرية، محاولة تبرير سياستها العدائية، ولكي تؤلب الشعوب كل منها ضد الآخر. وهذا هو شأن الدعايات الاستعمارية: فهي تريد أن توهم العمال الفرنسيين، كي تبرر استغلال الشعوب المضطهدة، ان الافريقيين الشماليين وسكان مدغشقر والفيتناميين، الخ .. هم من اقل جنس. غير أن العمال الفرنسيين يلاحظون ان أولئك الذين يأبون على المركشيين والجزائريين والفيتناميين استقلالهم القومي هم أنفسهم الذين يضحون باستقلال الامة الفرنسية من أجل الاميركان الاستعماريين.

وليست الدولة عنصراً مكوناً للأمة، فقد قلنا سابقاً إن امبراطورية نابوليون (أي دولة نابوليون في الواقع) كانت مجموعة غير مستقرة، عابرة - كما أن وحدة الدولة المستقرة لا تكون الحقيقة القومية، فقد كانت دولة القياصرة قوية مستقرة خلال قرون عدة؛ ولكن الامم التي كانت تحكمها كانت متعددة، و كانت أكثر استقراراً منها، لان الدولة القيصرية قد زالت، بينما ظلت هذه الامم، داخل دولة جديدة، متعددة القوميات، وهي الدولة السوفياتية. يمكن إذن إن توجد دولة مكونة من عدة أمم.

كما يمكن أن توجد دولتان لامة واحدة: فقد وجد في فرنسا، عام ١٨٧١، وجها لوجه، سلطتان للدولة: الكومون، وهي سلطة العمال؛ ومجلس فرساي، وهو سلطة البورجوازية (ليرجع القاريء إلى الدرس الثاني والعشرين، بصدد محتوى الدولة الطبقي). تدافع الدولة، في مجتمع منقسم إلى طبقات متعارضة، عن مصالح الطبقة السائدة، وان ادعت انها تتكلم باسم «المصلحة العامة».

إن إدخال الدولة في تحديد الامة، يعني حرمان الأمم المضطهدة (أي التي

تفتقر إلى دولة مستقلة) من لقب الامـة . (ويفضي بنا هذا إلى تبرير الاضطهاد الذي تذهب ضحته البلدان التابعة والمستعمرة) . كما أن إدخال الدولة في تعريف الأمة يعني رفض لقب الأمة لمختلف الأمم التي تكون الاتحاد السوفياتي : فقـد أقامت هذه الأمم لنفسها دولة مشتركة دون أن تسيء بشيء إلى أصالتها القومية :

من المهم جداً إذن ان لا نخلط بين الدولة والأمة . فإيجاد « وحدة سياسيـة أوروبية » لن يستطيع توليد « أمة أوربية » !

وإذا كانت الدولة ليست عنصراً مكوناً للأمة ، فإنها مساعد قوي عـلى نمو الأمة ، ولهذا تطالب الأمم التي يضطهدها المستعمرون بدولة قومية مستقلة ضد الدولة الاستعمارية الأجنبية .

٣- البُورجُوَازيـّـة وَالأُمّـَة

تتخذ المسألة القومية عدة أوجه حسب الطبقات التي تثيرها والوقت الذي تثيرها فيـه . فيجب ، كي نفهم هـذه الاوجه المتعددة ، أن تدرس الأمـة كحقيقة تاريخية .

ا - تكوين الأمم البُورجُوَازيّة

لم تهبط عناصر الأمة ـــ وهي اللغة ، والأرض ، ووحدة الثقافة ـــ من السماء ، بل تكونت شيئاً فشيئاً منذ العصر السابق على الرأسمالية . وقد وجدت هـذه

العناصر بصورة بدائية؛ وكانت تكون، في أفضل الأحوال، عوامل فعالة كاملة لتكوين الأمة المستقبلة، مع توفر بعض الظروف الملائمة. ولم تتحول هذه القوة الكامنة إلى حقيقة إلا في عصر الرأسمالية الصاعدة، بأسواقها القومية، ومراكزها الاقتصادية والثقافية[1].

قامت السوق إذن بدور فعال في نشوء الأمة، وهكذا نجد، عند أصل الأمة، نمو طريقة الانتاج الرأسمالية، ووفرة المنتجات المعدة للتبادل، وازديادها؛ فكان لا بد من توفير الظروف الملائمة للتبادل المستمر، أي كان لا بد من ايجاد السوق. كان يهم البورجوازية التاجرة تكوين الوحدة القومية. وهكذا ندرك الرابطة الموضوعية بين الطبقة والأمة. كتب لينين يقول:

لم يكن ايجاد هذه الروابط القومية سوى ايجاد الروابط البورجوازية[1].

نسمي اماً بورجوازية الأمم التي ولدت في عصر الرأسمالية الصاعدة؛ ونميزها عن الأمم الاشتراكية التي سوف نتحدث عنها في الدرس الرابع والعشرين.

ترفض المادية التاريخية القول بنظرية علماء الاجتماع البورجوازيين الذين يصورون الروابط القومية على أنها استمرار لعلاقات القبيلة وتعميم لها. إذ ليست القبيلة سوى مجموعة عائلات، وهي تتعلق بمستوى منخفض جداً لقوى الانتاج. غير انه وجب ازدياد هائل للانتاج، لخلق سوق قومي، وقد تطلب ذلك نموا متزايداً منظما للتبادل بين المناطق المنعزلة بعضها عن الآخر، والتي كانت تستهلك انتاجها الضعيف لوحدها. ولا يمكن ان يكون هذا السوق إلا من عمل طبقة تعيش من

---

(١) ستالين: الماركسية والمسألة القومية والاستعمارية ص٣٢١

(١) لينين: من هم «أصدقاء الشعب» مؤلفات مختارة، ج ١، ص ١٠٦، مطبوعات باللغات الأجنبية، موسكو ١٩٤٦

التبادل ، وهي البورجوازية التاجرة ، تلك الطبقة الجديدة التي ظهرت داخل النظام الاقطاعي القديم .

ولقد دلل كل من كارل ماركس وفردريك انجلز ، في القسم الاول من بيان الحزب الشيوعي ، كيف ان نمو الانتاج التجاري (الانتاج المخصص للسوق) وعلاقات الانتاج الجديدة داخل المجتمع الاقطاعي القديم، هما اصل الأمم . تجمعت في أمة واحدة مقاطعات مستقلة ، متحالفة فيما بينها ، لها مصالح، وقوانين وحكومات ، وتعريفات جمركية مختلفة ، فأصبحت لها مصلحة قومية طبقية واحدة كما اصبحت لها جمارك واحدة[1] .

ب - البورجوازية على رأس الأمة

إن تكوّن الأساس الاقتصادي للأمم البورجوازية هو ، في الاساس ، عملية تلقائية ؛ غير ان تكوّن هذه الأمم نفسها ليس تلقائياً . ذلك لان الطبقة الصاعدة، وهي البورجوازية ، هي التي قادت ، عن معرفة وعلم ، تكوّن الوحدة القومية ، ولم تكن جماهير الفلاحين الواسعة ، التي لم تتضامن مع طريقة الانتاج الجديدة ، تستطيع ان تقوم بدور الرائد.غير انها، لما كانت مرتبطة بالارض، عصب الأمة، فقد ساندت البورجوازية . لماذا ؟ لان تكوّن الوحدة القومية لمصلحة البورجوازية كان يضعف الطبقة الاقطاعية التي كانت تستغل الفلاحين .

قامت البورجوازية ، التي تنظمت طليعتها في احزاب سياسية ، بنضال طبقي

(١) كارل ماركس وفردريك انجلز : بيان الحزب الشيوعي ، القسم الأول ، ص ٣٣ . المطبوعات الاجتماعية ، باريس ١٩٠٤

ضد الاقطاعيين ، الذين كانوا يدعون التجزئة ؛ وكان هـذا النضال يهدف إلى قلب الحواجز الجمركية الداخلية في البلاد ، واقامة التبادل الحر بين مختلف مناطق البلاد ، وتوحيد ارض الوطن وتوسيعها . ولقد وضعت احزاب البورجوازيـة كما وضع فلاسفتها ، من اجل ذلك ، نظرية فكريـة تطالب « بوحدة الأمة » واضعين « الأمـة فوق الملك » مستبدين « بحب الوطن » . ولهذا قامت الثورة البورجوازية في فرنسا ، ضد علاقات الانتاج الاقطاعيـة ، وعلا الهتاف « تحيا الامة » . ولما كان النظام الاقطاعي قد اصبح لا يطاق بالنسبة لغالبية الشعب العظمى — من فلاحين ، وصغار البورجوازيين الصناع اليدويين ، والمثقفين ، الخ ... — فقد عزلت الاقطاعية وهزمتها ، بعد أن عبأت جميع قواها ، واشرفت على توجيهها ، فاستطاعت ، بعد ذلك ، انتوسع بدون عائق ، صور الملكية البورجوازية (فتشمل الارض مثلا) كما بعثت في الاقتصاد البورجوازي انتفاضة كبرى (الانتاج والتجارة) .

كانت البورجوازية الثورية الفرنسية تجسد ، في هذا العصر ، ضد الاقطاعيين الرجعيين ، مصالح اغلبية الامة . ولهذا كانت البورجوازية مخلصة للوطن امام خيانة الاقطاعيين الذين اعلنوا الحرب على الامة ، آملين باسترجاع سيطرتهم المفقودة (مثال ذلك مهاجرو كوبلانس ، والمؤامرة التي حاكها ضد الشعب الفرنسي لويس السادس عشر وماري انطوانيت بالتحالف مع كبار اقطاعيي اوروبا) . ولهذا ندرك ان نشيد المارسييز (ولد سنه ١٧٩٣) بمجموعه هو نشيد الثورة (ضد الاقطاعيـين في الداخل) كما هو نشيد الاستقلال القومي (ضد استعباد الاقطاعيين البروسيين والنمساويين) . كما ندرك أيضاً اعلان البورجوازية الثورية لحق الامم في ان تستقل بأمورها . وكان هذا دعوة إلى جميع البورجوازيين ، في مختلف البلدان ، إلى تحطيم نير الاقطاع في كل مكان .

غير أنه يجب ان لا ننسى – وهذا هو الشيء الأساسي – ان نضال البورجوازية القومي كان له دائماً اسباب طبقية . بيد ان الطبقة البورجوازية هي بالضرورة طبقة مستغِلة . ينتج عن ذلك أنه إذا كانت البورجوازية الثورية قد استطاعت ان تجسد مجموع مصالح الأمة فإن وطنية البورجوازية لا يمكن ان تكون إلا جانباً موقتاً من نضالها . إذ أن الجانب الرئيسي الدائم لنضال البورجوازية القومي هي النزعة القومية .

وقد أخذت تزداد أهمية هذا الجانب كلما غظمت ، في وجه البورجوازية المستغِلة ، الطبقة المستغَلة ، الا وهي البروليتاريا . النزعة القومية البورجوازية تتفق ومصالح الطبقة البورجوازية ، إذ أن هذه النزعة لا تهتم بالفروق الطبقية داخل الأمة ، وهي تدعو « للاتحاد المقدس » أي ربط مصالح جميع الطبقات بمصالح الطبقة المسيطرة وهي البورجوازية . تهدف إذن إلى فصل البروليتاريا عن نضالها الثوري ضد البورجوازية ؛ ولهذا لا تستطيع البروليتاريا ان تتحرر من الاضطهاد الطبقي إذا لم تحارب النزعة القومية ، وإذا تركت الافكار القومية تنخر صفوفها . لأن البورجوازية ، كي تخلد سيطرتها ، تفرض على جميع الأمة افكارها . وعندما يجب القول: «المصلحة البورجوازية» تقول: «المصلحة القومية». ولكن التحليل المادي يكشف عن الحقيقة وراء المظهر .

ج - البُورجُوازيَّة خَائِنَة لِلامَّة

يؤدي نمو نضال البروليتاريا الطبقي ، داخل الامة ، بالبورجوازية إلى تحقيق جبهة واحدة مع البورجوازية الاجنبية، ضد البروليتاريا، وهو تحالف جديد مقدس يذكرنا بالتحالف الذي عقدته سابقاً الدول الاقطاعية ضد الثورة البورجوازية .

نجد مثالا نموذجياً على ذلك في سنة ١٨٧١ عند البورجوازية الفرنسية . فقد قضت على كومون باريس بالتحالف مع بسمارك ، ولكن النزعة القومية البورجوازية تظهر بمظهرها الحقيقي في مرحلة الرأسمالية النهائية ، المرحلة الاستعمارية .

بضاعة الأمم البورجوازية الحديثة، فيما يتعلق بالأفكار الاجتماعية السياسية، هي السلم الطبقي ، داخل الأمة، باسم « الاتحاد القومي » ، وتوسيع أرض قوميتها بواسطة غزو اراضي الأمم الاجنبية ، الشك والكراهية نحو الأمم الاخرى ، القضاء على الاقليات القومية ، وتأليف جبهة موحدة مع الاستعمار .

وتستخدم البورجوازية قوة فكرة الوحدة القومية على التعبئة للقيام بحروب السلب والنهب . وهذا ما حدث عام ١٩١٤ ، مثلا ، للبورجوازية الفرنسية والبورجوازية الالمانية ، ومن هنا نشأ قول اناتول فرنس المشهور: « يعتقد الجندي انه يموت من اجل الوطن بينما هو يموت من اجل الصناعيين » تستعين البورجوازية الاستعمارية بكل شيء لاثارة عواطف الكره نحو العمال الاجانب والمستعمرين في قلب البروليتاريا التي تستغلها : وهي تحاول بذلك ان تعيق تجمع البروليتاريا كطبقة واحدة .

وكلما اشتد الاستعمار كلما ازداد البون بين مصلحة بورجوازية الاحتكار الكبرى ، وبين فئات الشعب ؛ ذلك لأن الاستعمار هو إعلان الحرب على الشعوب .

بعد ان كانت الرأسمالية ، في نضالها ضد الاقطاعية ، محررة للشعوب ، أصبحت الرأسمالية الاستعمارية اكبر مضطهد للشعوب . وتحولت الرأسمالية من رأسمالية تقدمية إلى رأسمالية رجعية ؛ فقد نمت قوى الانتاج بشكل لم يبق معه ، أمام الانسانية ، إلا ان تنتقل إلى الاشتراكية او ان تقوم ، خلال سنوات او عشرات السنوات ، بتجربة

نضال « الدول الكبرى » المسلح للمحافظة على الرأسمالية ، بصورة اصطناعية ، بواسطة المستعمرات والاحتكارات والامتيازات واضطهاد القوميات في جميع اشكاله[1] .

بلغت أزمة الرأسمالية العامة ، التي بدأت عام ١٩١٧ بظهور أول دولة اشتراكية ، بمناهضة البورجوازية الاستعمارية للقومية ، الذروة ، إذ أن دفاعها اليائس عن مصالحها الطبقية أدّى بها إلى خيانة مصالح الأمة بصورة مفضوحة مستمرة .

ترزح البورجوازية الفرنسية الكبرى تحت عبء ملف مفعم بالاتهام ، فهي ، بعد أن ساعدت بنشاط ، في المانيا ، على القضاء على القوى الشعبية ونهضة النزعة الحربية من كبوتها ، فإنها ، في فرنسا ، تعارض نضال العمال من اجل الخبز ، والحرية ، والسلم بشعارها المخزي : « هتلر ولا الجبهة الشعبية ! » . كما أنها تقوم بتمثيل دور الوطنية وتعمل على خداع الطبقات المتوسطة بدعاية «قومية» («فرنسا للفرنسيين»). وهي تسلم المانيا الهتلرية الحديد الفرنسي ، والالمنيوم الذي تحرم منه طيراننا . وقد تأكد ، في مونيخ عام ١٩٣٨ ، تحالفها مع النازيين ، ضد الشعب الفرنسي والبلد الاشتراكي ، حليف فرنسا . وبينما كانت تزج في السجون ، بمعاونة الزعماء الاشتراكيين بلوم ، سورال ، الخ .. المناضلين الشيوعيين ، الذين فضحوا الخيانة الطبقية ، سلمت فرنسا إلى الطيران الالماني . وحل رعب الاحتلال وخزي نظام فيشي الفاشي . وقد قضى هذا النظام ، الموالي للرأسماليين الالمان والشركات الفرنسية ،

---

(١) لينين : مؤلفات (بالروسية) ج ٢١ ، ص ٢٧٣ ذكره ج : كونيو حقيقة الأمة . ص ٤٦ ، المطبوعات الاجتماعية باريس ١٩٥٠ .

على الاقتصاد الفرنسي وسخره لخدمة الحرب المتلوية، واجبر العمال على العمل، وأعدم المواطنين بالرصاص ، وجوّع السكان .

حتى إذا ما أقبل التحرير ، وانتصر الشعب ، عملت نفس البورجوازية الكبرى على تخريب نهضة البلاد . ولما كان هتلر قد اندحر ، فقد وضعت نفسها في خدمة الحماة الجدد وهم الاقتصاديون الاميركان. وقفت ضد العمال الفرنسيين: يحاول الاستعمار الاميركي ، طبقاً لقانون الرأسمالية المعاصرة الأسامي ، ان يضمن لنفسه أقصى الارباح بنهب البلاد المقيدة بمشروع مارشال وبواسطة حرب الغزو والاعتداء . وتمد البورجوازية الكبرى « الفرنسية » يد العون لنجاح هذه السياسة .

أما نتائج ذلك، بالنسبة للأمة الفرنسية، فهي خطيرة، وإذا كنا نعرض للعناصر المكونة للحقيقة القومية واحداً واحداً فلكي نلاحظ ان البورجوازية تسعى للقضاء عليها .

الارض ؟ اصبحت بين يدي الجيش الاميركي؛ وقد اقيمت مناطق حرة للمحتل. وسلبت ملكية الارض من الفلاحين، وتتطلب الستراتيجية الاطلنطية تهديم فرنسا في حالة الحرب (فرنسا « ابن العم الذري ») .

الاقتصاد ؟ خرب الاقتصاد القومي لمصلحة صناعات الحرب، وحل الفقر المنظم بالزراعة الفرنسية (مليون مزرعة عائلية مهددة بالزوال) ؛ وذهب السوق الفرنسي ضحية مصالح الشركات الاميركية (مشروع مارشال) والالمانية (مشروع شومان) واغلق عــدد من آبار المناجم في الشمال والوسط ، كما تسير اعــادة البناء ببطء فاضح ، الخ .. ولا ننس ما اصاب البحث العلمي والاعداد المهني .

اللغة ؟ ظهرت مشاريع ازدواجية اللغة الاميركية الفرنسية ، لسد حاجات

المحتل الاميركي ، واختصار اللغة الفرنسية (basic - Franch) . ولقـد لاحظ السيد الفريد سوفي بحسرة في جريدة الموند (٥ آب سنة ١٩٥٣) قائلا :

من المؤلم ان نسمع من يقول بأننا لا ندافع بصورة صحيحة عن تراثنا وانا مستعدون للتخلي عنه .

إذ أن كل شيء منظم بشكل يجعل الاجانب المقيمين في فرنسا لا يتعلمون اللغة الفرنسية .

والدليل على ذلك انه لم تعـد تذكر الولايات المتحدة ، ولا مختصر اسمهـا بالفرنسية (E , U) بل يذكر المختصر باللغة الانجليزية (U . S , A) . سوف تقول ان هذا شيء بسيط . غير أن الاستعاضة بالمختصر الانجليزي بدلا من المختصر الفرنسي أليس نتيجة لاغراء الدائن للمدين ، والولي للمولى ؟

ويشعر السيد سوفي بالخوف أمام « اتساع » هذا التسرب الواسع. ثم يضيف ، بعد ذكر عدد من الامثلة ، قائلا :

لا تؤدي هذه الامثلة من الضعف[1] إلى افساد اللغة الفرنسية ، بل تساعد بقوة على زوالهـا لان التبعيـة اللغوية تؤدي إلى التبعيـة الثقافيـة .

الثقافة ؟ تخريب الجامعة بصورة منتظمـة ، والمدرسة العموميـة . والسينما الفرنسية ، الخ .. ؛ والتخلي عن قصر فرساي. واحتقار التقاليد الانسانية الكبرى التي تغنت بفضائل البورجوازية الصاعدة. وكذلك انتشرت اسوأ المجلات القادمة

(١) نحن في الحقيقة بصدد مشروع مخطط اكثر منا أمام « ضعف »(ج . ب ، م . ك)

من اميركا او المستوحاة منها ، وعمّ التمجيد « لطريقة الحياة الاميركية » الخ .
وكانت البورجوازية ، إلى جانب ذلك ، تغذي حملة تهدف إلى اقناع الفرنسيين بأن بلادهم قد ولّت ، وأن عهد التاريخ القومي قد انقضى ، وأنه قد ذهب الأمل بوجود فرنسا مستقلة :

يتم هذا التنقصَ من الحقيقة القومية تبعيةُ الدولة الفرنسية لمطالب ضروب الاستعمار الاجنبية .

فكيف تبرر البورجوازية ، في نظر الجماهير ، مثل هذه السياسة المناقضة للمصلحة العامة ؟ رأينا ، في مناسبات عدة ، كيف ان الطبقة الرجعية تضطر ، كي تمد في أجل حكمها ، لان تقيم من الكذب عقيدة لها ومذهباً . وهذا هو الحال هنا : فلكي تبرر استعباد الشعوب ، تنشرُ البورجوازية الكبرى العالمية نظرية فكرية خاصة هي النزعة العالمية (Cosmopolitisme) :

وتتكون هذه الكلمة من كلمتين يونانيتين تعنيان : « مواطن العالم » . في الوقت الذي كانت البورجوازية فيه – ولا سيما في القرن الثامن عشر – تدافع ، ضد الاقطاعيين ، عن حقوق المستقبل الانساني ، حمل بفخر لقب « مواطن العالم » بعض المفكرين . وكان هذا يعبر عن رغبة في تحطيم الأسس الواهية لمجتمع قديم وايجاد علاقات اجتماعية جديدة في كل مكان . بهذا المعنى يتحدث جان جاك روسو ، في نص يرجع لعام ١٧٥٥ ، عن هذه النفوس الكبيرة العالمية التي تخطت الحواجز الخياليه التي تفصل الشعوب والتي ... تشمل النوع البشري كافة برعايتها[1] .

(١) ذكره ب . هازار : الفكر الاوروبي في القرن الثامن عشر ، ج ١ ، ص ٣٣٩ ، مطبوعات بوافين . باريس .

حتى إذا ما زالت علاقات الانتاج الاقطاعية، عادت البورجوازية إلى موضوعات النزعة العالمية ، وليس ذلك لخدمة الآمال الكريمة بل لحساب مصالحها الطبقية المستغلة . وقد فضح كل من ماركس وانجلز ، منذ عام ١٨٤٥ ، ذلك ، وفسرا كيف ان النزعة العالمية انما تنبع من المضاربة بين البورجوازية في مختلف البلاد وإنها لا تهدف لتفتح جميع الناس بل لاستغلال العمال العالمي ، ولهذا كتب ماركس يقول:

ان تسمية الاستغلال في صورته العالمية باسم الاخوة الشاملة فكرة لايمكن أن تولد إلا في قلب البورجوازية[1] .

ومع ذلك فقد اتسع نضال البروليتاريا الثوري منذ ذلك العهد بشكل هائل . وأدرك العمال، شيئاً فشيئاً ، بفضل انتشار الاشتراكية العلمية ، بأن مصالحهم ، في مختلف البلدان، متحدة ضد عدو طبقي مشترك. ولما كانت البورجوازية الاستعمارية لا تستطيع القضاء على هذه المعتقدات ، فإنها لا يمكنها إلا أن تحاول التنقص منها ؛ وهذه هي مهمة الافكار العالمية : اقناع العمال ان حكم الاحتكارات العالمي سيحقق آمالهم العالمية ! وهكذا تستعير نزعة الشركات العالمية وجه النزعة العالمية البروليتارية كآخر كذبة تدعيها.

ما هو الطابع الرئيسي، في الظروف الحاضرة، لهذه الأفكار العالمية التي هي تشويه النزعة العالمية البروليتارية؟ التأكيد الكاذب بأن سبب الحروب الحديثة هو وجود الأمم . ثم تخلص إلى القول بأنه يجب القضاء بسرعة على الأمم وتحطيم سيادتها ، لان هذه السيادة « رجعية » « بالية » . وهكذا يأملون في اقناع العمال بأنهم ، إذا

---

(١) ماركس: خطاب حول مسألة التبادل الحر (١٨٤٨)، ذكره جورج كونيو: حقيقة الأمة ، ص ٨٨ .

ارادوا السلم ، فيجب عليهم القضاء ، بأيديهم ، على حقيقة الأمـــة والتنكر لاوطانهم .

غير أن التحليل المادي للمجتمع المعاصر[1] يدل على ان سبب الحروب العالمية ليس وجود الأمم، بل وجود طبقة، هي البورجوازية الاستعمارية، التي لا تستنكف، في سبيل انقاذ حكمها المهدد، عن استعباد الأمم والقضاء على الشعوب .

وهكذا تبدوا النزعة العالمية في وضح النهار : فهي بدلا من ان تسعى لتحرير الناس في جميع البلدان ، تهدف ـ في ادعائها جعل كل عامل « مواطنا للعالم » ـ إلى استغلال تلك الاشباح الانسانية التائهة المجهولة[2] على نطاق « عالمي » بشكل وحشي معيب .

ندرك المغزى التاريخي للمحاولات الحالية لايجاد « اوروبا موحدة » إذا اعتمدنا على هذه المعطيات المبدأية ، فهي تسعى لتوطيـــد استغلال مختلف شعوب أوروبا الرأسمالية ، برعاية الرأسماليين الاميركان ، وأول هذه الشعوب شعبنا :

وسوف يكون من نتيجة توحيد السوق الاوروبي، على أنه الخطوة الأولى نحو اقتصاد اشتراكي ، تخفيض مستوى معيشـــة الفرنسيين . كما سيكون من نتيجة إزالة السيادة القومية ، على أنها تقدم للديمقراطية، وضع فرنسا تحت رحمة الطيران الالماني ، الذي اعيد بناؤه تحت شعار « أوروبي » : إذ أن إعادة تسليح النازيين سيجعل منهم أدوات طيعة للأضطهاد المناهض للعمال.

---

(١) راجع لينين : الاستعمار اسمى مراحل الرأسمالية .

(٢) جورج كونيو : حقيقة الأمة ، ص ٨٨ ـ ٨٩

ولقد كتب لينين منذ عام ١٩١٥ ان الولايات المتحدة الاوروبية ، في النظام الرأسمالي ، إما مستحيلة واما رجعية[1] .

لما كانت النزعة العالمية تزويراً للنزعة العالمية البروليتارية ، فهي ، إذن ، في خدمة الرأسمال العالمي. ولهذا كانت ، اليوم، نظرية زعماء الاشتراكية الديمقراطية الفكرية ، الذين يأخذون على عاتقهم ، أمثال جي موليه ، أ ، فيليب ، لوبالى ، خداع العمال . فهم إذن ، متضامنون مع قادة الحركة الجمهورية الشعبية ، (روبير شومان ، جورج بيدو) الذين كانوا دعاة الـ (C . E D) لانهم خدام الفاتيكان الموالي للسيطرة الاميركية ، وهم يرتدون رداء « الروحية » المسيحية لتجهيز ألدّ اعداء الجنس البشري[2] بالسلاح، فيما وراء الرين.

ومع ذلك، لا يمكن للاستعمار أن يخلو من التناقضات، بالرغم مما يبذل من جهود. ولهذا كان للنزعة البورجوازية اخ توأم هو النزعة القومية الاوروبية .

وهاك مثالين على ذلك :

تبالغ الشركات الاحتكارية ، التي تدعو إلى النزعة العالميـــة في أوروبا ، أمام

---

(١) لينين : « حول شعار الولايات المتحدة الاوروبية» في مؤلفات مختارة ، ج ١ ، ص٧٥٣، موسكو ، مطبوعات باللغات الاجنبية ١٩٤٦ ،

(٢) وهكذا نرى أن موضوع « اوروبا المتحدة » ، ليس الا خدعة ترددها أفواه الزعماء الاشتراكيين الديمقراطيين والحركة الجمهورية الشعبية . اذ هم يعملون على دوام انقسام اوروبا والمانيا بدلا من أن يسعوا للتفاهم الفعلي بين جميع بلاد اوروبا مهما كان نظامها الاجتماعي . وهذا يخدم اغراض النازيين في الدعوة إلى الحرب الذين يخشون المفاوضات العالمية ونتائجها الطيبة . الا وهي توحيد المانيا السلمي ، والامن الجماعي لجميع البلاد الاوروبية.

الشعوب التي تريد استعبادها ، بالنزعــة القومية في الولايات المتحدة ، وتستخدم جميع الوسائل لتردد على مسامع الشعب الاميركي انه «الشعب المختار» الذي ارسلته « العناية الالهية » لقيادة العالم .

تتبع البورجوازية الكبرى الفرنسية ، التي تعدل من « طبخة » النزعة العالمية لتلائم الاذواق في أوروبا، سياسة نزعة قومية دامية على حساب الشعوب المستعمَرة. فهي تأبى باسم « المصلحة الفرنسية » لقب الأمة على المراكشيين ، والفيتناميين الذين يناضلون من أجل استقلالهم .

فكيف لا نلاحظ الفارق الفظ بين « النزعة العالمية » التي يتزيا بها البورجوازيون الرجعيون وبين نزعتهم القومية الوحشية نحو شعوب الاتحاد السوفياتي التي يحلمون باعادتها ، عن طريق الحروب ، إلى السوق الرأسمالي .

هذه التناقضات هي أحد مظاهر الضعف في المعسكر الاستعماري .

٤ ـ الطّبقَـةُ العَامِلَة وَالامّـَة

ا ـ النزعَـة العَالميّـة البرُوليتَارية

لا يمكن حل المسألة القومية حلا صحيحاً إلا كجزء من مجموع ألا وهو النضال الطبقي والثورة البروليتارية .

فلقد رأينا أن الحقيقة القومية لم تكن لتتكون بدون نمو البورجوازيـة ، كما أن القومية البورجوازية تقوم ، في المرحلة الاستعمارية ، عـلى اضطهاد الامم . فكيف لا تعرض المسألة القومية ، من ثمّ ، للطبقة المعارضة للبورجوازيـة وهي

طبقة البروليتاريا ؟

يرتبط موقف البروليتاريا من المسألة القومية ، بمصالحها وما يجب عليها كطبقة ثورية ، فهو إذن موقف مبدأي ؛ وقد حدده ماركس وانجلز في بيان الحزب الشيوعي (١٨٤٨) الذي ينتهي بالشعار المشهور :

اتحدو يا بروليتاريي جميع البلاد ! »

هذه هي النزعة العالمية البروليتارية .

ولقد رأينا في الدرس الثالث (د) ان النزعة القومية البورجوازية أساساً موضوعياً هو مصلحة الطبقة المستغِلة . إذ أن البورجوازية الرأسمالية لا تقنع باستغلال بروليتارييها وشعبها الخاص بل هي تجندهم (وتضحي بهم) لاستعباد البروليتاريا وشعوب البلدان الاخرى ... بأسم « المصلحة القومية ». وهذه خدعة تخفي المصلحة البورجوازية . إذ أن مهمة النظرية الفكرية القومية أن تؤلب عمال مختلف بلدان العالم بعضهم على بعض .

غير أن للنزعة العلمية البروليتارية ، هي أيضاً ، أساساً موضوعياً ، كما اشرنا إلى ذلك (في الدرس الثامن عشر) ــ وهو أساس طبقي . إذ أن للبروليتاريين ، في جميع بلاد العالم ، نفس المصالح التي تجعلهم يتألبون على الطبقة المستغِلة . لأنهم أعضاء في نفس الطبقة المستغَلة . وليست النزعة العالمية صفة عابرة للنضال البروليتاري الطبقي . بل هي صفة أساسية . ولهذا كان مبدعا الاشتراكية العالمية ، وهما ماركس وانجلز ، أيضاً مؤسسي الجمعية العالمية للعمال . (أيلول ١٨٦٤) . كما أن بيان الحزب الشيوعي ، الذي يدعو البروليتاريين إلى النضال المنظم ضد المستغِلين في كل مكان ، وسيظل ، المشعل الهادي للثورة العالمية .

لاحظنا أن النزعة القومية والنزعة العالمية هما المظهران الفكريان للحرب الطبقية التي تقودها الرأسمالية . وتتيح لنا النزعة العالمية البروليتارية أن نتبينهما في كل وقت ، كما أنها تحاربهما .

تحارب النزعةَ القومية البورجوازية لان العمال ، بواسطة النزعة العالمية البروليتارية ، يعترفون بتضامنهم الطبقي ، ويأبون مدَّ يد المساعدة للمعتدين من بورجوازيتهم على البلاد الأخرى . وهذا هو الحال ولا سيما حينما يناضل بروليتاريو البلاد المستعمِرة لتحرير البلاد المستعمَرة القومي .

وتحارب النزعةَ العالمية البورجوازية لان عمال جميع البلاد ، نظراً لاخلاصهم للنزعة العالمية البروليتارية، يؤلفون جبهة قوية طبقية ضد الاحتكارات، كما أنهم يناضلون ، في نفس الوقت ، لتحرير وطنهم ووطن اخوانهم المضطهدين . مثال : يساعد العمال الفرنسيون ، في نضالهم ضد مشروع مارشال في فرنسا على يد الاستعمار الاميركي ، اخوانهم الاميركيين في نضالهم الطبقي ضد الرأسمال الكبير الاميركي الذي يؤدي بهم إلى البؤس ، والفاشية، والحرب.

ونرى أن مصالح العمال ، في كل بلد ، تتطلب تضامنهم العالمي الطبقي ، فكل ما يسيء للنزعة العالمية البروليتارية يسيء في نفس الوقت إلى العمال في كل بلد ، كما ان كل تقدم للنزعة العالمية البروليتارية مفيد للبروليتاريين في أي بلد .

ويلبي البروليتاريون الثوريون ، نداء بيان الحزب الشيوعي ، فيعلنون مساواة العمال في كل البلاد في الحقوق ضد النزعة القومية والنزعة العالمية ، ويقومون ، من بلد لآخر ، بالتضامن الطبقي الأخوي .

نستنتج عدة نتائج من النزعة العالمية البروليتارية كموقف مبدأي لا يتزحزح:

١ ـ إذا وجد، في دولة، أقلية من العمال لهـا خواصها القومية (مثال: الألزاسيون في فرنسا) فلا يجب أن يوجد الا حزب بروليتاري يضم جميع العمال؛ وهكذا يُضمن، بالتعاضد الطبقي، الدفاع عن حقوق الأقليات القومية.

٢ ـ لا تستطيع الدولة الاشتراكية ضمان استقلال القوميات التي تضمها إلا إذا وفرت لها المساواة. وكذلك شأن الدولة السوفياتية :

٣ ـ حجر الزاوية في النزعة العالمية البروليتارية هو تعلق جميع البروليتاريين غير المشروط بالدولة الاشتراكية، وقد وجدت مثل هـذا الدولة، وهي الاتحاد السوفياتي، منذ سبع وثلاثين سنة.

فلماذا هذا التعلق غير المشروط بالاتحاد السوفياتي؟

ان البروليتاريين، في تحقيقهم لحلم رجال الكومون الباريسيين عام ١٨٧١، الذين أوجدوا، في تشرين الأول ١٩١٧، أول جمهورية اشتراكية، قد بدأوا عهداً جديداً. إذ أن الدولة السوفياتية تكون منذ تشرين الأول ١٩١٧ بالنسبة لجميع البروليتاريين في جميع البلدان الندي العام للتعبير عن مطامح الطبقات المضطهدة وارادتها وتجسيم هذه الارادة وتلك المطامح[١].

ذلك لان الدولة الاشتراكية، لما كانت تختلف كل الاختلاف عن جميع الدول الرأسمالية لأنها تقوم على إزالة الاستغلال الطبقي، تكوّن الحصن الأمامي لجميع الطبقة البروليتارية العالمية، وهي مرمى البورجوازية العالمية الدائم.

---

(١) مسائل اللينينية، ج ١ ص ١٩١. المطبوعات الاجتماعية، باريس ١٩٤٧

فإذا دافع عنها البروليتاريون فإنهم يدافعون عن طليعتهم ؛ فهم يناضلون ، إذن ، من أجل أنفسهم ، ومن أجل مستقبلهم ، « من أجل بناء مجتمع مشابه للمجتمع السوفياتي ، يهديهم سواء السبيل في عقروطنهم » .

فالتبجح بخدمة البروليتاريا ، مع القيام بمحاربة أول دولة أقامتها البروليتاريا لنفسها ، هو حمل البروليتاريا العالمية على تضحية أفضل مناضليها وضرب عرض الحائط بالمثل الرائع الذي يقدمونـه لها منذ تشرين الاول ١٩١٧ ، ولهذا كانت المطالبة « باستقلال الطبقة العاملة » ضد الاتحاد السوفياتي هي ربط هـذه الطبقة بعربة الرأسمالية .

لا يمكن أن نحمل اسم الماركسي ، في الظروف الحاضرة ، إذا لم نؤيد ، علانية وبدون أي تحفظ ، أول دكتاتورية بروليتارية في العالم[1] .

ويكفي ، كي نقدر أهمية الدولة السوفياتية ، كأساس للنزعة العالمية البروليتارية ، أن نلاحظ ما يلي :

أ) لم تكف البورجوازية ، في جميع البلدان الرأسمالية ، منذ تشرين الأول ١٩١٧ ، عن القول ببرنامج مشترك هو النزعة المناهضة للسوفيات[2] .

---

(١) ستالين : مسائل اللينينية ، ج ١ ، ص ١٩٢

(٢) من المفيد ان نلاحظ ان الزعماء الاستعماريين العالميين ، في عصرنا ، مهما كانت التناقضات التي تؤلب بعضهم على البعض الآخر ، يشيرون الى الاتحاد السوفياتي على أنه العدو الاول ، ويقفون موقفاً يشبه جداً موقف الاقطاعيين الاوروبيين الذين كانوا ، في عام ١٧٨٩ ، جبهة مشتركة ضد الثورة الفرنسية ، الثورة الديمقراطية البورجوازية ، بينما رجال أوروبا المتحررون أيدوا فرنسا الديمقراطية ضد اقطاعيي بلادهم . فاذا ما دافع العمال الثوريون ، اليوم ، في كل مكان ، عن بلد الاشتراكية المنتصرة ، ضد الرجعية البورجوازية ، فانهم يصلون بذلك أواصر تقاليد قديمة .

ب) ان قادة يوغوسلافيا المغامرين ، برفضهم لمبدأ الدفاع غير المشروط عن الاتحاد السوفياتي ، قد جروا بلادهم على طريق الفاشية ؛ وجعلوا منها دولة تابعة للاستعمار الاميركي ، وجلبوا الشقاء للعمال اليوغوسلافيين .

ج) ان الزعماء الاشتراكيين ، صنائع البورجوازية في الحركة العمالية، كانوا ، في كل وقت ، أبطال النزعة المناهضة للسوفيات . كما كانوا دعاة النزعة القومية البورجوازية . ولهذا دعا قادة العالمية الثانية عام ١٩١٤ بروليتاريي المانيا وفرنسا للقتال من أجل « الدفاع عن الوطن » البورجوازي . فـــلا يمكن ، إذن ، تقدير النزعة العالمية البروليتارية حق قدرها إذا لم نقتلع النظرية الاشتراكية الديمقراطية (القومية والاستعمارية) .

د) يضاف إلى الملاحظات السابقة الملاحظة التالية :

ان الناس الذين يحاربون ، في كل وقت ، الاتحاد السوفياتي ، خدمة لمصلحتهم الطبقية ، يقومون ، في كل وقت ، بتصفية المصلحة القومية التي تدافع عنها الطبقة العاملة . بينما كانت السياسة الخارجية التي اتبعها الاتحاد السوفياتي دائماً ، لأنـــه دولة اشتراكية ، مطابقة لمصالح العمال في مختلف البلدان ، ولا سيما عمال فرنسا . نرى ذلك في الوقت الحاضر بصدد المسألة الالمانية ، التي من مصلحة فرنسا الحياتية حلها حلا سلمياً . والمقترحات السوفياتية مواتية لمثل هذا الحل ، بينما السياسة التي تتبعها البورجوازية الفرنسية تحاول ابعاد مثل هذا الحل[1] .

---

(١) أما فيما يتعلق بميثاق عدم الاعتداء الذي عقده الاتحاد السوفياتي مع المانيا الهتلرية في آب سنة ١٩٣٩ ، فانه يخدم مصالح السلم العالمي ، ولهذا تغتابه البورجوازية جداً ، تلك البورجوازية التي كانت ، لعلم خلا ، قد حطمت الأمن الجماعي الاوروبي لمصلحة المعتدي الهتلري ولم تعبأ بالتحالف الفرنسي السوفيـــاتي . ولو أن البورجوازية الفرنسية والانجليزية ، بعد آب ١٩٣٩ ، لم ترفض

ب ـ النزعة الوطنية البروليتارية

النزعة العالمية البروليتارية هي التعبير عن المصالح الطبقية المشتركة بين بروليتاريي جميع البلدان .

ولهذا كانت ، بالنسبة لجميع بروليتاريي جميع البلاد، النجم الهادي الذي يوجههم في المسألة القومية .

وليس للثورة الاجتماعية ، وهي هدف البروليتاريا ، طابع قومي في الاساس؛ فمحتواها محتوى طبقي . غير أننا رأينا أن الرأسمالية قد نمت في الاطار القومي ؛ ولهذا يرتدي نضال البروليتاريا الثوري ضد البورجوازية طابعاً قومياً. إذ لا يمكن للبروليتاريا، في بلد معين، ان تنتصر على بورجوازيتها إلا إذا حاربتها في عقر دارها، وانتزعت منها القيادة السياسية . ولهذا يجب عليها ، حسب قول ماركس ، « ان تجعل من نفسها طبقة قائدة للأمة ، وان تصبح هي نفسها الأمة [1] » .

تعني الوطنية البروليتارية ان البروليتاريين في بلاد مختلفة يناضلون لانتزاع قيادة الأمة من يد البورجوازية في بلادهم وبناء أمة « حرة ، قوية ، سعيدة » فهو إذن نفس النضال الطبقي ضد نفس العدو العالمي الطبقي . تتخذ النزعة العالمية البروليتارية ، إذن ، طابع الوطنية البروليتارية . ويرجع هذا لوجود الحقيقة

المفاوضات التي عرضها الاتحاد السوفياتي عليها ، لتحققت الشروط التي تشل المانيا الهتلرية في الغرب (بالتحالف الفرنسي السوفياتي) كما كانت مشلولة في الشرق بواسطة ميثاق عدم الاعتداء الالماني السوفياتي . ولأدى هذا الحصار بهتلر الى العجز . اقرأ حول المغزى التاريخي لحوادث آب ١٩٣٩ ج . بوفييه و ج جاكون : الحقيقة حول ١٩٣٩ . المطبوعات الاجتماعية . باريس ١٩٥١ .

(٢) ماركس وانجلز : بيان الحزب الشيوعي ، القسم الثاني ، ص ٤٦ .

القومية الموضوعي ، حيث يجري النضال العالمي الطبقي . وإذا لم يجر مثل هـذا النضال على المستوى القومي ، أصبحت النزعة العالمية البروليتارية صيغة فارغة ، ولم يعد للبورجوازيات المختلفة ما تخشاه من البروليتاريا في بلادها ، من عدوها المباشر .

هل تستطيع البروليتاريا ان تقوم بهذا النضال وتنتصر ؟ تجيبنا الوقائـع على ذلك .

رأينا (في الدرس الثامن عشر) ان البورجوازية الرأسمالية تقيم رخاءها على بؤس الجميع . وبهذا تتوفر الشروط لتقوم البروليتاريا الثورية بتنظيم تجمع واسع يضم مختلف طبقات الشعب الـكادح : من فلاحـين عمال ، وطبقات متوسطة ، وصناع ، وحانوتية ، الخ... ضدالبورجوازية الكبرى المستغِلة ، وتقوم البروليتاريا بقيادة هذه الحركة الشعبية ، لأنها ، لما كانت طبقة ثوريـة ، المدافع الأكيد من بين جميع ضحايا الرأسمالية . والشرط الضروري لتجمع البروليتاريا الأمة حولهـا هو ان تحقق هي وحدتها الطبقية الخاصة . ندرك هكذا الأهمية التاريخية للنضال المستمر الذي يقوم به ، في فرنسا ، موريس توريز والشيوعيون ضد الاشتراكية الديمقراطية التي تهدف لمنع الوحدة بين العمال .

وليس اتمام هذه المهمة القومية موافقاً لمهمة البروليتارية الثورية فقط ، بل هو شرط أساسي لنجاح الثورة في وطنها . وجميع الذين يخلطون بين النزعة القوميـة البورجوازية والنزعة الوطنية البروليتارية ــ أمثال الفوضويين النقابيين ــ كما أن الذين يقولون للعمال : « قضية الأمة ليست قضيتـكم ؛ بل قضيتـكم هي الثورة » كل هؤلاء يعملون ضد مصلحة البروليتاريا الثورية ، وهم ينكرون واقع الأمـة المادي، لأنهم مثاليون؛ بينما الطبقة العاملة لا يمكنها أن لا تعبأ بالشروط الموضوعية

التي ينمو فيها نضالها الثوري ، لانها تحفظ تعاليم لينين ، ومن بين هذه الشروط الحقيقة القومية ، وهي وحدة أرض ، ولغة ، واقتصاد ، وثقافة ؛ ولهذا لا تسلم قيادة الجماهير الشعبية لمن يجهل هذه الحقيقة التاريخية . كما أنهم ، لما كانوا ماديين سذجاً ، يجهلون قوة الشعور القومي على التنظيم والتعبئة ، وإلا فلماذا ظهرت الطبقة العاملة الفرنسية ، بالرغم مما نالها من الاضطهاد النازي ، في عام ١٩٤٤ ، أشد قوة وأكثر احتراماً من ذي قبل ؟ لأنها عرفت كيف تقود الأمة بأجمعها ضد الفاشية الهتلرية وانصارها من البورجوازية الكبرى المناهضة للقومية .

إذا كانت النزعة العالمية تقوم على أساس من احترام سائر الشعوب ، فإننا لن نكون عالميين إذا لم نحترم شعبنا ونحبه[1] .

رأينا في هذا الدرس (٣ ، ج) ان البورجوازية الرجعية لا يمكنها المحافظة على امتيازاتها الطبقية إلا باستعباد الأمة على يد الاستعمار الاميركي ، بينما تدافع البروليتاريا الثورية ، على العكس ، عن مصلحة الأمة في مجموعها (والطبقة الخائنة تطردمنها) حين تتبع سياسة فرنسية مستقلة.الطبقة العاملة هي الطبقة الوطنية لانها طبقة صاعدة ، فهي مسؤولة عن حياة الأمة وعن مستقبلها.

دلل موريس توريز[2] ، في استنتاجه لخلاصة مؤتمر الحزب الشيوعي الفرنسي الثالث عشر (حزيران ١٩٥٤) ، كيف ان نضال الطبقة العاملة ، في كل وقت ، ضد البورجوازية ، بقيادة الشيوعيين، يتفق والمصلحة القومية .. : وكذلك شأن

---

(١) جدانوف : حول الادب ، والفلسفة ، والموسيقى ، ص ٧٨ . مطبوعات النقد الجديد ، باريس ١٩٥٠

(٢) كراسات الشيوعية ، حزيران – تموز ١٩٥٤ ، رقم ٦ – ٧ ، ص ٦٢٤ – ٦٢٥

النضال ضد معاهدة فرساي « التي تحتوي على جميع البذور لازدياد النزعة العسكرية وروح الثأر في المانيا » وكذلك كان شأن النضال ضد القمع والحرب الاستعمارية (في مراكش ، والهنـــد الصينية) ، والنضال ضد الاستسلام في مونيخ والحرب السخيفة ، والاحتلال الهتلري وانصاره ، وتخريب النهضة الفرنسيـــة . وكذلك الشأن ، اليوم ، حين تقود الطبقة العاملة المعارضة القومية لاعادة تسليح سفاكي دماء شعبنا ، و « تقوم بحراسة السلم لمصلحة فرنسا الكبرى » . كيف يمكن للطبقة العاملة ، وقد ناداهـــا التاريخ لتحرير بلادنا من الاستغلال الرأسمالي ، ان تؤدي بنجاح هذه المهمة الثورية إذا لم تقم بدور القائد في النضال الحالي للمحافظة عـلى وجود الأمة ضد البورجوازية المناهضة للقومية ؟

وبينما تتنكر البورجوازية الكبرى ، التي تجعل شبح الموت يخيم عـلى مستقبل فرنسا ، لماضي شعبنا ، تتغنى الطبقة العاملة ، على العكس ، بفخر بكل تقدم ، في تاريخ بلادنا ، نحو رفع مستوى الحياة والحرية.

حبنا لبلادنا، هو حبنا لأمجد تقاليدها، وعزمنا على اعادتها لهذه التقاليد كحاملة للمشعل . حبنا لبلادنا ، هو حبنا لشعبها الذي نريده حراً سعيداً ، وان تكون فرنسا للفرنسيين ، وليست لاولئك الذين خرجوا من الوحدة القومية بكبريائهم وشرههم وخسة نفوسهم .

وطنية المساكين ، وطنية جان دارك الفلاحة الفرنسية التي ودّعهـــا ملكها واحرقها الانجليز ، تجتاز كل تاريخنا كشهاب ساطع .

كتب لابروبير ، حول مصير الارقـــاء البائس ، يقول : « لا وطن مع الاستبداد » .

ولقد جهد ديمقراطيو الثورة الفرنسية الكبرى ، لنيل وطنهم ، وكان يلهب نفوس جماعات « صانعي القباقيب والخياطين » الذين ربحوا معركة فالمي ، وهم يرددون « تحيا الأمة »، نفس من الوطنية الثائرة[1] .

فضل الحزب الشيوعي ، الذي يقوده موريس توريز ، إذن ، هو أنه أعاد « ألوان فرنسا » إلى شعبنا ، الذي خانته البورجوازية المنحطة[2] . فهو الداعي إلى اتحاد الأمة الفرنسية من أجل الخبز والحريات الديمقراطية، والاستقلال والسلام. وهكذا يتفق مع نضالهم اكبر ماركسي في عصرنا، وهو ستالين، الذي صرح في المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي (تشرين الاول ١٩٥٢) بقوله:

كانت تعتبر البورجوازية ، في الماضي ، رأس الأمة ، فكانت تدافع عن حقوق الأمة واستقلالها ، وتضع هذا الاستقلال وتلك الحقوق « فوق كل شيء » وأما الآن فلم يبق شيء من « المبدأ القومي » تقايض ، الآن ، البورجوازية حقوق الأمة واستقلالها بالدولارات ، وتلقى جانباً براية الاستقلال القومي والسيادة القومية . لا شك انه عليكم ، يا ممثلي الاحزاب الشيوعية والديمقراطية ،ان ترفعوا الراية وتتقدموا بها إذا أردتم ان تكونوا وطنيين ، وان تصبحوا القوة التي تقود الأمة ؛ إذ ليس من شخص آخر يستطيع رفع هذه الراية[3] .

اتمام هذه المهمة على يد الطبقة العاملة مرحلة ضرورية على طريق الاشتراكية التي سوف تصفي الاستغلال البورجوازي .

---

(١) موريس توريز : ابن الشعب ، ص ١١٨

(٢) تساعد قراءة قصة أراجون : « الشيوعيون » من يريد ان يفهم،دور الشيوعيين القومي، في تمام مغزاه التاريخي. وهذا ما يتغنى به اراجون في بعض قصائده الجميلة ، اقرأ مثلا « من الشاعر الى حزبه » في « ديانا الفرنسية » (الناشر : سيجيه) و « العيون والذاكرة » (الناشر: جاليار)

(٣) ستالين : آخر مؤلفات ، ص ١٨٨ .

الدرس الرابع والعشرون

الأمة (٢)

١ — مسألة الاستعمار. حق الأمم في أن تكون سيدة نفسها.

٢ — الأمم الاشتراكية .

أ) المسألة القومية والثورة الإشتراكية .

ب) ميزات الأمم الإشتراكية .

٣ — مستقبل الأمم .

ملاحظة حول الألزاس والموزيل .

رأينا (في الدرس السابق ، ٣ ج) أن الاضطهاد البورجوازي الطبقي ، في ظروف الاستعمار ، يرتدي شكل الاضطهاد القومي .

بعد ان كانت الرأسمالية محررة للأمم، في النضال ضد الاقطاعية، أصبحت اكبر مضطهد للأمم[1] .

ولهذا يتخذ النضال ضد الاستعمار شكل نضال من أجل الاستقلال القومي .

---

(١) لينين : ذكره جورج كونيو : حقيقة الأمة ، ص ٤٦

وتضم هذه الحركة الاستقلالية ، في بلد معين ، جميع الطبقات الاجتماعية المسلوبة أو المهددة بالاستعمار الأجنبي. وهكذا نفهم، مثلا ، ان فئات مهمة من البورجوازية شاركت ، في الصين، إلى جنب البروليتاريا والفلاحين ، في النضال من أجل التحرير القومي ، كما أن قسما من البورجوازية (التي يمثلها تشان كاي شك) كانت قد ربطت مصالحها بمصالح الاستعمار الاجنبي المضطهد المعتدي ، غير أن هذا الاستعمار قد اعتدى على مصالح عناصر أخرى من البورجوازية (كالصناعيين، مثلا) فاشترك هؤلاء في حركة الاستقلال .

وكذلك نجد أن الاستعمار الاميركي إذا كان يجد، في الوقت الحاضر، في فرنسا، تآمر البورجوازية الكبرى الرجعية ، والمحتكرين ، وتجار المدافع إلى جانبه ، فإنه يسيء لمصالح فئات أخرى من البورجوازية : وهكذ يشل مشروع مارشال ، الذي فرضه الاستعمار الاميركي على الاقتصاد الفرنسي ، ازدهار فروع بأكملها من الصناعة القومية، ويحرمها من أسواقها في بلاد الشرق. ومن هنا ازداد الاستياء عند كثير من الصناعيين.

وتثير سياسة اعادة تسليح المانيـا ، الذي يؤدي إلى التقليل من شأن فرنسا ويسيء إلى سيادتها القومية ، معارضة مختلف الطبقات، في البورجوازيـة نفسها ، تلك الطبقات التي تخشى السيطرة الالمانية . وتشير الفكرة ، التي تبناهـا المؤتمر الثالث عشر للحزب الشيوعي الفرنسي (حزيران ١٩٥٤[١]) ، إلى أن مصالح فئات اجتماعية عديدة بعيدة جداً عن الطبقة العاملة ومعادية مبدئياً للحزب الشيوعي

---

(١) كراسات الشيوعية ، حزيران – تموز ١٩٥٤ عـدد ٦ – ٧ ص ٩٢٢ – ٩٢٣ ، المسألتان : ٢١ – ٢٢

قد أصيبت نتيجة السياسة الاطلنطية . ولهـذا تقف بعض الدوائر السياسية البورجوازية ، مهما كان تعلقها بالرأسمالية ، إلى جانب الشيوعيين ضد استعباد فرنسا .

وهكذا قامت جبهة قومية متحدة ضد الاستعمار الاميركي والبورجوازيـة الكبرى الرجعية التي تساندـه ، للدفاع عن استقلال فرنسا ؛ وهي تضم – عدا الفلاحين الكادحين والبورجوازيـة الصغرى والطبقات المتوسطـة – فئات البورجوازية التي تخشى نتائج السياسة التي يفرضها الاستعمار الاميركي على فرنسا . وهذا لا يقضي قط على النضال الطبقي في داخل البلاد بين البروليتاريا والبورجوازية ؛ ولهذا سلمت البورجوازية الرجعية البلاد للاستعمار الاجنبي خدمة لمصلحتها الطبقية لا تستطيع ، إذن ، البروليتاريا الفرنسية ان تفصل نضالهـا من أجل الاستقلال القومي عن نضالها الطبقي .

وسنرى ، اعتماداً على الطابع المناهض للقومية الذي اتخذته الرأسمالة الاستعمارية، كيف يطرح الماركسيون اخطر مسائل عصرنا وكيف يحلونهـا الا وهي مسألة الاستعمار .

١ – مسألة الاستعمار : حق الأمم في أن تكون سيدة نفسها

انهت أقوى الدول ، في عصر الاستعمار ، تقسيم الكرة الارضيـة في أفريقيا وآسيا فيما بينهـا . واستغلت الشركات الاحتكارية المستعمرات والمحميات التي نشأت عن هذا التقسيم . ويشمل الاضطهاد الاستعماري جميع نواحي الأمة : فيحتل

الأرض ، ويفرض اللغة الاجنبية على حساب اللغة القوميـــة ؛ وينهب الثروات الاقتصادية ؛ ويستعبد الثقافة القوميــة . ولا شك أن النزعة الامبراطوريـــة الاستعمارية تقوم بقمع لا يعرف الشفقة كي تحفظ « حقوقهـــا » المزعومة كقوة محتلة ؛ ويأبى على الشعوب المستعمرة حقها في أن تنشيء لنفسها دولا خاصة بها .

نعرف قول ماركس المشهور : « لا يمكن للشعب الذي يضطهد شعوباً أخرى ان يكون حراً[1] ».

واستغلال شعب من الشعوب هو من صنع البورجوازية الكبرى الرجعيـــة والاحتـكارات التي تستولي على الشعوب الضعيفـــة ، بحثاً وراء الربح الاقصى ، فتسلبها خيراتها . ومن الواضح ان هذا العمل مناقض لمصالح البروليتاريين في البلد المستعمِر . فلماذا ؟

أولا : لأن عدوهم الطبقي ، أي البورجوازية الرجعية ، هو الذي يقوى باستعماره شعوباً أخرى . حتى ولو ان استغلال الشعوب المستعمَرة (كما حدث في انجلترا) يتيح للبورجوازية الاستعمارية ان تتكرم ببعض الخيرات على البروليتاريا في بلدها من تلك الارباح التي تنتزعها من العمال في المستعمرات . وتستعيض عن ذلك بازدياد قوتها التي تستمدها من الاستقلال الاستعماري . ولا تستخدم البورجوازية هذه القوة ضد العمال في المستعمرات فقط بل ضد البروليتاريا في الدولة المستغِلة ، لان الاضطهاد الطبقي في الخارج يقوي الاضطهاد الطبقي في الداخل .

ثم ان البورجوازية تدفع بالبروليتاريا في بلدها ضد العمال الاجانب لضمان نجاح مشاريعها الاستعمارية ، وهي تبتز أرباحها الهائلة من دم هؤلاء واولئك ، فتعمل ، لبلوغ هذه الغاية ، على اقناع العمال في البلد المستعمِر أن الاضطهـــاد

(١) راجع بهذا الصدد لينين : « الثورة الاشتراكية وحق الأمم في ان تكون سيدة نفسها » في « ماركس ، انجلز ، والماركسية ، مطبوعات باللغات الاجنبية ، موسكو ، ١٩٤٧ ص ٢٨٣ .
« كان ماركس يجعل في المقام الأول ، دون ان ينسى مصالح نضال طبقة البروليتاريا في البلاد المتقدمة ، المبدأ الأساسي للنزعة العالمية والاشتراكية وهو : « لا يمكن للشعب الذي يضطهد شعوبا أخرى ان يكون حراً »

الاستعماري يتفق ومصالحهم . ثم تعلم اطفال الشعب ، في الكتب البورجوازية ، ان حروب النهب « دفاع عن المدنية » ؛ فتختفي مصالح الشركات الاحتكارية (التي تستغل الشعب الفرنسي ، كما تستغل الشعوب المستعمَرة) وراء « المصالح الفرنسية » . وكلما نُخدع العمال الفرنسيون والانجليز بهذه الأكاذيب ، جلبوا على أنفسهم أكبر الضرر ، وخدموا اغراض الطبقة التي تضطهدهم ، وأضعفوا نضالهم كطبقة مستغلِة ، فأضعفوا بذلك وحدة البروليتاريا العالمية .

تقودنا هذه الملاحظة الاخيرة إلى حل مسألة الاستعمار . ذلك لأن النزعة العالمية البروليتارية تضع بيدنا مفتاح حل هذه المسألة .

فمصالح عمال البلد المستعمِر ومصالح عمال البلد المستعمَر متضامنة ضد البورجوازية الاستعمارية عدوهم المشترك .

فما رأي النزعة العالمية البروليتارية بهذا الصدد ؟

أ) يؤكد عمال البلد المضطهِد حق الأمم في أن تكون سيدة نفسها . يعني هذا ، عملياً ، انهم يعترفون للأمم المضطهَدة بحقها في أن تنفصل عن الدولة المستعمِرة لتنشيء دولتها الخاصة ، المستقلة . فالحديث عن « حرية تقرير المصير » ورفض الحق في الانفصال هراء كاذب ، لأن ذلك يعني ان تمنع بيد ما تعطيه باليد الاخرى[1] .

ولهذا وجب على عمال البلد المستعمِر ان يطالبوا بحق الانفصال للبلاد المستعمَرة . والتخلي عن ذلك (بحجة ان الشعوب المستعمَرة ليست « ناضجة للاستقلال »)

---

(١) أليس هذا ما يفعله ديغول ويقوله في الجزائر ؟ (المعرب)

موقف رجعي ، لا تفيد منه إلا البورجوازية المستعمِرة التي تريد بذلك من سيطرتها .

مثال ذلك : الهند الصينية . الموقف الوحيد العادل من النضال القومي ضد الاستعمار الفرنسي بقيادة شعوب الفيتنام واللاووس والكمبودج هو التأكيد على حق هذه الشعوب المطلق في الانفصال والاستقلال كدولة؛ ومساندة هذه الشعوب الفعلي في فرنسا نفسها .

ب) كما يؤكد ، من ناحية ثانية ، عمال البلد المضطهد وحدتهم العالمية الطبقية مع البروليتاريا في البلد المستعمِر. ولهذا تحارب الاحزاب الثورية، في البلاد المستعمِرة، في نفس الوقت الذي تحارب فيه النزعة الامبراطورية المضطهدة، نزعةَ البورجوازية القومية في بلادهم . يقول القوميون البورجوازيون ، في البلد المستعمَر لعمال هذا البلد : « كل الفرنسيين أعداؤ لكم » ، فيجيب العمال الذين نشأوا على روح النزعة العالمية البروليتارية : « كلا ! شركات الاحتكار الاستعمارية الفرنسية هي عدوة لنا ، بينما العمال الفرنسيون أصدقاء لنا » .

وهكذا يناضل بروليتاريو البلد المستعمِر ، باسم النزعة العالمية، النزعةَ القومية البورجوازية الاستعمارية؛ كما يحارب بروليتاريو البلد المستعمَر، باسم النزعة العالمية، النزعةَ القومية البورجوازية في بلدهم[1] .

---

(١) ومع ذلك لا يرفض بروليتاريو البلد المستعمَر ، في نضالهم من أجل الاستقلال القومي ، التحالف مع البورجوازية القومية، غير انهم لا يربطون عملهم بمصالح البورجوازية القومية لان هذه البورجوازية ، وان كانت تعارض البورجوازية الاجنبية الاستعمارية ، تظل عدوة لطبقة العمال ، « طالما ان بورجوازية الامة المضطهَدة تناضل ضد الامة التي تضطهد ، طالما نحن دائماً معها ، لاننا اكثر اعداء الاضطهاد جرأة ؛ وطالما أن بورجوازية الامة المضطهِدة تقف الى جانب نزعتها

يجدر بنا ، هنا ، ان نذكر أقوال لينين القيمة :

يجب أن يقوم مركز الثقل في تربية العمال العالمية في البلاد المضطهِدة، عـلى الدعاية والدفاع عن حرية البلاد المضطهَدة في الانفصال : إذ بدون ذلك لا توجد النزعة العالمية . لنا الحق ان نصف بالاستعماري الحقير كلّ اشتراكي ديمقراطي ، في أمة تضطهد ، لا يقوم بهذه الدعاية . وهذا مطلب مطلق ، وان كان مثل هـــذا الانفصال لا يمكن « تحقيقه » ، قبل حلول الاشتراكية ، إلاّ بنسبة واحد بالألف .

بينما يجب ، على الاشتراكي الديمقراطي، فيأمة صغيرة ، على العكس ، أن يجعل محور الثقل في نشاطه حول القسم الأول من شعارنا « اتحاد الأمم اتحاداً حراً » ، فهو يستطيع أن يقف إلى جانب استقلال أمته السياسي وأنضمامها إلىدولة مجاورة، دون أن يتنكر لواجباته كصاحب نزعةعالمية.ولكنه يجب عليه، في كل حالات ، أن يناضل ضد النزعة القومية الضيقة التي تميل للانغلاق والعزلة لينظر إلى هـــذه الحركة العالمية في مجموعها وشمولها فيربط بذلك المصلحة الخاصة بالمصلحة العامة .

ويجد الذين لم يتعمقوا هذه المسألة أنه من « التناقض » ان يلح الاشتراكيون

القومية البورجوازية طالما نحن ضدها . نناضل ضد امتيازات الامـــة التي تضطهد وجبروتها ، ولن نسمح بنيل أي امتياز على ظهر الامة المضطهَدة ...يوجد ، في كل نزعة قومية بورجوازية في أمة مضطهدة ، محتوى ديمقراطي عام ضد الاضطهاد ، ونحن نؤيد هذا المحتوى بدون تحفظ ، وان كنا نضع جانباً النزعة الى التعصب القومي» :

لينين : حول حق الامم في ان تكون سيدة نفسها ، ص ٥٣ — ٥٤ ، المطبوعات الاجتماعية ، باريس ١٩٥٢

الديمقراطيون[1] في الأمم المضطهِدة على « حرية الانفصال » ، كما يلح الاشتراكيون الديمقراطيون ، في الأمم المضطهَدة على « حرية الاتحاد » . غير أنه يكفينا قليل من التفكير لنرى أنه ، في هذا الوضع ، لا يوجد ، ولا يمكن أن يوجد ، طريق آخر نحو صبغ الأمم بالصبغة العالمية ودمجها بعضها بالبعض[2] .

وأكد موقفَ لينين هذا ، موريس توريز ، في فرنسا ، عدة مرات :

كان علينا ، نحن البروليتاريين، في بلد استعماري يضطهد عشرات الملايين من العبيد في المستعمَرات ، ان نرفع الصوت عالياً مطالبين بحق هذه الشعوب بتقرير مصيرها ، ومن ذلك حق الانفصال عن فرنسا . وكان علينا أن نحارب في بلادنا كل نزعة استعماوية ، تاركين لرفاقنا الشيوعيين في البلد المستعمَرة أمر مقاومة كل نزعة قومية ضيقة في بلادهم ، وأن يعلنوا الفائدة التي يجنيها شعبهم إذا تضامن في النضال مع البروليتاريا الفرنسية ضد نفس المضطهِدين الاستعماريين . قال لينين : « الحق في الطلاق لا يعني وجوب الطلاق[3] » .

يبدو هنا جانب مهم من الحق في تقرير المصير . يفسره البعض بصورة ساذجة فيقولون بأن « الحق » يماثل « الواجب » فإذا كان البروليتاريون في البلد المستعمَر يعلنون ، بالاتفاق مع البروليتاريين في البلد المستعمِر ، حقهم في الانفصال فلا يعني ذلك أنهم ينادون بالانفصال في كل وقت ، وأنهم يجدونه مفيداً في كل حين .

---

(١) تعني هنا كلمة «الاشتراكي الديمقراطي» معناها القديم وهو الاشتراكي الماركسي – وليس المعنى الذي يعنيه قادة العالمية الثانية بسلكتهم وهو : الانتهازي .

(٢) لينين: مؤلفات (باللغة الروسية) ج ١٩ ، ص ٢٦١ – ٢٦٢ ذكرة ستالين في «الماركسية والمسألة القومية والاستعمارية ، ص ٢٢٥

(٣) م . توريز : كراسات الشيوعية كانون الثاني ١٩٥٠ ، ص ٢٩ .

ولنضرب لذلك مثلا : كانت روسيا القيصرية تضطهد عدة شعوب في آسيا (آهالي جورجيا ، الأرمن) وكانت تأبى عليهم حقهم في انشاء دول مستقلة . وكان الماركسيون الروس والجورجيون والأرمن ينادون بالحق في الانفصال ضد النزعة القيصرية . ثم وقعت ثورة تشرين الأول ١٩١٧ . فماذا حدث ؟

لقد حرر قيام الاشتراكية الجورجيين والأرمن من نير الاستعمار. ومع ذلك لم ينفصلوا عن الامة الروسية؛ بل تكونت دولة متعددة الأمم، على أساس المساواة بين جميع الامم التي تكوّن هذه الدولة .

فلماذا لم يمارس الجورجيون والارمن حقهم في الانفصال ؟ لماذا ، بعد أن نالوا الحق في الطلاق، لم يمارسوا هذا الحق؟ لسبب بسيط وهو أنهم لو فعلوا ذلك لاصبحوا فريسة سهلة للبلاد الرأسمالية ، عدوة الاشتراكية والاتحاد السوفياتي . فقد كانت مصلحة عمال المستعمرات القيصرية القديمة الطبقية في عـــدم الانفصال عن الشعب الروسي ، وأن تتحد معه ومع الامم السوفياتية ، داخل الدولة الاشتراكية المتعددة القوميات على أساس طبقي .

نرى ، إذن ، أن المصلحة الطبقية هي التي تقرر في النهاية فيما يتعلق بالانفصال أو الاتحاد[1] .

---

(١) يمكن أن يحدث ان لا يكون الانفصال مرغوباً فيه . وقد رأينا مثالا على ذلك . وهاك مثالا آخر في وضع يختلف عن الوضع السابق . « كان ماركس في سن ١٨٤٠ – ١٨٥٠ مع حركة التشك السلاف الجنوبين القومية . فلماذا ؟ لان التشك والسلاف الجنوبين كانوا ، عندئذ ، « شعوباً رجعية » وكانوا « مراكز روسية أمامية »، في أوروبا ؛ فكانوا بذلك مراكز أمامية للاستبداد ، بينما كان البولونيون والهنغاريون « شعوباً ثورية » تناضل الاستبداد . وكان تأييد حركة التشك والسلاف الجنوبين القومية يعني ، وقتئذ ، تأييد القيصرية بصورة غير مباشرة ، وهي

غير أن الاختيار يرجع للشعب المعني بالامر (الشعب المستعمَر أو الاقلية القومية) .

وهكذا يجب على الشعب الفرنسي أن يحترم طموح الشعوب المستعمرة الى الاستقلال ، ولا سيما شعب الفيتنام . إذ أن لهذا الشعب الحق المطلق في أن ينفصل عن فرنسا ، وهذا ما تأباه عليه البورجوازية الاستعمارية ، لانها تريد الاستمرار في استغلال الهند الصينية ، بينما يساند العمال الفرنسيون حق الفيتنام ، في نضالهم ضد الحرب الجارية ، في إرجاع الجيش إلى فرنسا . هذه الحرب حرب ظالمة لانها تهدف لاستمرار اضطهاد شعب . بينما الحرب التي تشنها الامة الفيتنامية ضد

أقد أعداء الحركة الثورية في أوروبا » ، (ستالين : الماركسية والمسأله القومية والاستعمارية ، ص ١١٩ - ٢٢٠) يظهر هذا المثل أنه لا يجب قط النظر الى المسألة القومية في ذاتها ، بل في علاقتها بتطلبات النزعة العالمية البروليتارية الاساسية. وقد استغل هتلر ، في نفس الوقت ، قبل الحرب العالمية الثانية ، نضال السوديت (وهم أقلية المانية في تشيكو سلوفاكيا) ضد الدولة التشيكو سلوفاكية وضد السلام العالمي ، وضد مصالح البروليتاريا العالمية : « ليست مختلف مطالب الديمقراطية ، ومنها حق الامم في ان تكون سيدة نفسها ، مطلقة ، بل هي جزء من مجموع الحركة الديمقراطية (وهي اليوم اشتراكية) العالمية . ويمكن ، في بعض الحالات ، ان يناقض الجزءُ الكلَّ ، فيجب عندئذ رفض الجزء » (لينين : مؤلفات (باللغة الروسية) ، ج ١٩ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ، ذكره ستالين ص ٢٢٠) . وهذا الرفض لا يعني فصله بل وضعه في المحل الثاني لفترة من الزمن . نجد هنا مثالا على الميزة الاولى الجدلية . وهي ان كل شيء مرتبط بالآخر .

نفهم بذلك انه يمكن للبروليتاريا العالمية أن تساند حركة قومية معادية للاستعمار في بلد معين ، وان كانت هذه الحركة لا تقودها عناصر بروليتارية . فقد ساند البروليتاريون ، قبل الحرب العالمية الثانية ، في جميع البلاد ، نضال الحبشة ضد جيش موسوليني وان كان الشعب الحبشي يقوده اقطاعيون . لان مثل ذلك النضال كان يضعف الفاشية العالميـــة ، العدو الرئيس للبروليتاريا ، وكذلك شأن الحركة القومية التي تقودها البورجوازية اللبنانية .

الاستعمار المضطهد حروب عادلة ككل حرب تحرير قومي .

حتى إذا ما تحررت الامة الفيتنامية من نير الاستعمار ، كان من حقها أن تقرر بشأن علاقاتها مع فرنسا .

ويعتبر العمال في فرنسا وعمال الفيتنام ، منذ الآن ، أنه يستحسن ، لمصلحة البلدين ، قيام سياسة تبادل اقتصادي وثقافي . غير أن هذه السياسة تتطلب الفصل بين الامتين والمساواة المطلقة بين الدولتين .

نرى إذن ان مبدأ النزعة العالمية البروليتارية يسمح لنا نظرياً وعملياً بحل ، المسألة القومية والاستعمارية ، ونجد انفسنا ، إذن ، مرة أخرى ، أمام النضال الطبقي .

تتطلب مصالح الحركة البروليتارية في البلاد المتقدمة، وحركة التحرير القومي في المستعمرات، ان يتحد هذان الجانبان للحركة الثورية في جبهة مشتركة للنضال ضد العدو المشترك وهو الاستعمار[1] .

٢ - الأمم الاشتراكية

أ - المسألة القومية والثورة الاشتراكية

ساعد على نجاح الثورة الاشتراكية في تشرين الأول سنة ١٩١٧ تأليف هذه الجبهة المشتركة . ولما امكن انتصار البروليتاريا الروسية على البورجوازية

(١) تقرر ايقاف اطلاق النار في الهند الصينية بعد كتابة هذه السطور . فكان ذلك انتصاراً للعمل المشترك بين الشعبين الفيتنامي والفرنسي وانتصاراً للنزعة العالمية البروليتارية .

الاستعمارية لولا اتحاد الشعوب التي تستغلها هذه البورجوازية نفسها في أمبراطورية القياصرة الواسعة . وهكذا تكون ثورة تشرين الاول قد ضربت الاستعمار في قلبه وفي مؤخرته .

حطمت ثورة تشرين الأول ، بقلبها لكبار الملاكين والرأسماليين ، قيود الاضطهاد القومي والاستعماري التي نجت منها جميع الشعوب المضطهدة ، بدون استثناء ، في دولة شاسعة ،إذ لا يمكن للبروليتاريا أن تتحرر بدون أن تحرر الشعوب المضطهدة.وتمتاز ثورة تشرين الاول بأنها لم تقم بهذه الثورات القومية والاستعمارية، في الاتحاد السوفياتي ، تحت لواء الحقد القومي والمنازعات بين الأمم ، بل تحت لواء ثقة متبادلة وتقارب أخوي بين العمال والفلاحين في القوميات التي تقيم في الاتحاد السوفياتي ، ولم تقم بها باسم النزعة القومية بل باسم النزعة العالمية[1].

ولم يكن قادة العالمية الثانية ، بالرغم من خطبهم عن المساواة بين الأمم ، ليهتمون بالشعوب المستعمَرة : بل كانوا يأبون عليها أي امكانية للعمل الثوري . وكل ما كانوا يعترفون لها به هو حقها « في الاستقلال الثقافي » ، وان يكون لها مؤسساتها الثقافية ، وذلك داخل الدولة المستعمِرة .

بينما يعني الماركسيون اللينينيون بحرية تقرير المصير الحق في الانفصال ، وفي إنشاء دولة مستقلة . ولما كان نضال الأمم المضطهدة من أجل استقلالها موجهاً ضد البورجوازية الاستعمارية ، العدو المباشر للبروليتاريا « الأم » (Métropolitain)، كان لهذا النضال طابع ثوري .

---

(١) ستالين : « طابع ثورة تشرين الاول العالمي » في « مسائل اللينينية » ، ج ١ ، ص ١٨٨

المسألة القومية جزء من مسألة الثورة البروليتارية العامة ، وهي جزء من مسألة « دكتاتورية البروليتاريا »[1] .

تضخم حركة التحرير القومي الهائل في البلاد المضطهدة كافريقيا وآسيا منذ عام ١٩١٧ ، وانتصار الشعب الصيني على الاستعمار وسيره نحو الاشتراكية ، كل تلك وقائع لها أهمية كبرى بالنسبة للنضال الثوري العالمي .

لقد اقبل زمن ثورات التحرير في المستعمرات وفي البلاد التابعة ، زمن يقظة البروليتاريا في هذه البلاد ، زمن سيطرتها في الثورة[2] .

ب - ميزات الامم الاشتراكية

ابتدأت الثورة الاشتراكية ، بتحريرها للشعوب المضطهدة ، مرحلة جديدة في تطور الامم . وظهر نموذج جديد من الأمم ، بفضل انتصار البروليتاريا ، الا وهي الأمة الاشتراكية .

رأينا في الدرس السابق انه يجب أن نفهم من « الأمم البورجوازية » الامم التي نشأت بقيادة البورجوازية في نضالها ضد الاقطاعية .وكان انتصار البورجوازية انتصاراً لعلاقات الانتاج الرأسمالية . ومن هنا نشأت ميزات الأمة البورجوازية .

تقوم الأمة البورجوازية بالضرورة على عدم المساواة بين أفرادها ، لان

---

(١) ستالين : « حول مبادىء اللينينية » نفس المرجع ، ص ٥٥

(٢) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١٨٩

الطبقة المسيطرة تستغل البروليتاريا :

الأمة البورجوازية عدوة لسائر الأمم البورجوازية لان بورجوازيات مختلف البلدان الرأسمالية تتنافس فيما بينها سعياً وراء الربح . ومن هنا كانت النزعة القومية .

وأخيراً، تخضع الأمة البورجوازية ، في مرحلة الاستعمار، لها الشعوب المتأخرة في نموها الاقتصادي . وهكذا يتم الاستغلال في الداخل بواسطة الاستغلال في الخارج . نذكّر مرة أخرى بقول لينين : « أصبحت الرأسمالية الاستعمارية أكبر مضطهدة للأمم ».

وتختلف عن ذلك ميزات الأمة الاشتراكية :

يقول ماركس وانجلز في بيان الحزب الشيوعي : « الغوا استغلال الانسان للانسان تلغوا استغلال أمة لأمة أخرى . فمتى زال تعارض الطبقات داخل الأمة ، زالت العداوة بين الأمم[1] .

فقد أوجدت الثورة الاشتراكية ، بقلبها للبورجوازية المستغلة ، وإزالتها للاضطهاد الطبقي ، علاقات جديدة داخل الامة الواحدة وبين الامم المتعددة .

وقد برهن قيام الاتحاد السوفياتي وازدهاره على صحة ذلك .

فزوال الطبقات المستغلة ، السبب الرئيسي للاصطدام بين الامم ، وزوال الاستغلال الذي يغذي الريبة المتبادلة ويؤجج الاهواء القومية ؛ ووجود الطبقة العاملة ، في الحكم ، وهي عدوة كل استعباد ، تدافع باخلاص عن أفكار النزعة

---

(١) ماركس وانجلز : بيان الحزب الشيوعي ص ٤٦

العالمية ؛ وتحقيق التعاون المتبادل ، بصورة عملية ، بين الشعوب في جميع ميادين الحياة الاقتصادية والاجتماعية ؛ وأخيراً ازدهار الثقافة القوميـــة لشعوب الاتحاد السوفياتي ، وهي ثقافة قومية في الصورة ، اشتراكية في المحتوى: كل هذه العوامل وما يشبهها غيرت طابع شعوب الاتحاد السوفياتي بصورة جذرية وعملت على زوال شعور الريبة بينها ؛ونمت عاطفة صداقة متبادلة ، فنشأ ، بذلك ، تعاون أخوي حق بين الشعوب داخل الدولة الاتحادية الواحدة[1] .

تلك هي نتيجة انتصار الطبقة العاملة. كانت البورجوازية، بتحطيمها للاضطهاد الاقطاعي ، قد صنعت أغلالا جديدة . وأما الطبقة العاملة ، فإنها بتحررها قـــد حررت جميع الناس . فزال النير الطبقي كما زال النير القومي .

كانت أمبراطورية القياصرة « سجناً للشعوب » حتى إذا ما تحررت القوميات المختلفة من الاضطهاد نالت حقها في تقرير مصيرها . وقد رأينا ان ممارسة هذا الحق لها وجهان : إما الانفصال وإما الاتحاد الحر[2].

ولقد اختارت القوميات المذكورة ، آنفاً ، الاتحاد مع الشعب الروسي .

وهكذا نشأت دولة اشتراكية متعددة القوميات . وتحتفظ القوميات ، التي تتكون منها هذه الدولة ، بحقها في تقرير مصيرها : فهي تستطيع ،إذن ، إذا شاءت أن تنفصل عن الاتحاد.

ما هو طابع العلاقات الاساسي بين الامم الاشتراكية ، التي يقارب عددهـا الستين ؟ المساواة في الحقوق . وقد قال لينين : « لا امتياز لأمة على أخرى ...

---

(١) مسائل اللينينية ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .
(١) هذان الوجهان المتعارضان يكونان حق تقرير المصير . وهذا مثل لوحدة الاضداد (راجع الدرس الخامس) .

ولا أقل اضطهاد أو ظلم للأقليات القومية ». ليس هناك ، إذن ، أمة مسيطرة في الاتحاد السوفياتي ، بل جمهوريات متحدة بحرية (جمهورية روسيا ، جمهورية أوكراينا ، جمهورية كازاقي ، جمهورية استونيا ، الخ ...) فإذا ما وجد ، داخل الجمهورية المتحدة ، اقليات قومية ، كوّنت جمهوريات مستقلة(مثال : يوجد داخل الجمهورية المتحدة الروسية جمهورية تارتاري وجمهورية بشكيري ، وجمهورية داغستان . الخ) كما يوجد شعوب صغيرة ، ومناطق مستقلة ، وأقاليم قومية .

تقوم الدولة الروسية المتعددة القوميات بالدفاع عن المصالح المشتركة بين جميع القوميات التي تكوّنها . كما أنها تشرف على تخطيط الاقتصاد الاشتراكي وادارة السياسة الخارجية ، والجيش ، والتنشئة الثقافية .

غير أنها تخضع من أسفل إلى أعلى ، بواسطة السوفيات ، لأشراف جميع المواطنين المتساوين في الحقوق ، مهما كانت قوميتهم أو جنسهم . فيستطيع ، مثلا ، جميع المواطنين ، تولي جميع وظائف الدولة السوفياتية من أصغر وظيفة إلى أعلى وظيفة ، ويتولى الحكومة اناس من قوميات وأجناس مختلفة .

أما المصالح الخاصة بكل قومية ، فإنها من أختصاص الجمهورية المتحدة أو المستقلة التي تتمتع ، ضمن الدستور السوفياتي ، بدستورها الخاص ، وقوانينها الخاصة . ويعكس هذا الدستور ، كما تعكس هذه القوانين ، الخواص القومية (الاقتصادية ، والثقافية ، والتاريخية) لكل شعب .

وهكذا يتحقق ازدهار القوميات في كل الميادين ، على عكس ما يجري في النظام الاستعماري القيصري .

ولنضرب على ذلك مثلا : انشأ الشعب الاوزبكي ، الذي استُغِل قبل الثورة ، جمهورية اشتراكية لها دستورها ، وسوفياتها ، ومجلس وزرائها ، داخل

اتحاد الجمهوريات السوفياتية ، وازدهر اقتصادها القومي (الصناعة ، الزراعة ، تربية الماشية) ازدهاراً هائلا ، بفضل مشاريع الخمس سنوات . فلقد تضاعفت الصناعة الثقيلة خمسة عشر مرة منذ عام ١٩١٣ . فهناك مركز حراري ومائي ، وتنتج الزراعة الآلية بكثرة الاقطان المتنوعة . وتقوم مراكز تربية أغنام استراكان الرئيسية في أوزبكي . أما تحسين مستوى المعيشة والتقدم الثقافي فهما يناقضان مناقضة شديدة البؤس والضغط الثقافي اللذين تفرضها البورجوازية الرأسمالية على مستعمراتها ، فبينما يوجد في منطقة « القبيلي » في الجزائر طبيب لكل ٣٠ ألف شخص (حسب الاحصاء الرسمي) يوجد في اوزبكي طبيب لكل ٨٩٥ شخصاً وكذلك أقل من ١٠٪ من الاطفال المسلمين ، في مراكش ، يدخلون المدارس . بينما ، زالت الامية ، في اوزبكي ، بعد أن كانت عامة في عهد القياصرة (٩٨ ٪ اميون) وكذلك يتردد ٨٤٪ على معهد ثانوي عالٍ (في فرنسا ٣٦ / ١٠٠٠ فقط) .

ولغة التعليم هي اللغة الام ، التي هي رسمية . وهذا شأن جميع القوميات التي تكون الاتحاد السوفياتي .

كما ان جرائدها ومطبوعاتها باللغة القومية . وبذلك سهلت نهضة التقاليد الادبية والفنية لكل شعب[1] .

فقد انشيء ، عام ١٩٤٣ ، والحرب دائرة الرحى ضد هتلر ، مجمع العلوم الاوزبكي ؛ فلم يمض عليه عشر سنوات حتى أصبح يضم ٢٥ مؤسسة علمية ؛ يعمل

---

(١) أما اللغة الروسية فقد جعلت منها الظروف التاريخية لغة مشتركة لجميع شعوب الاتحاد السوفياتي ، ولغة مساعدة في الميدان العلمي . فهي تستعمل اذن بهاتين الصفتين .

خبيا ٥٠٠ باحث . وهكذا لكل جمهورية سوفياتية ملاكتها الخاصة (من علماء، ومهندسين ، ومهندسين زراعيين ، واطباء ، ومربين ، الخ).

ونستطيع ضرب الامثلة الكثيرة على ذلك . غير أن أصدق الامثلة هي تلك نجدها عند شعوب بعض المناطق المستقلة التي أودت بها النزعة الامبراطورية إلى موت مؤكد ، فإذا بالاشتراكية تنقذها من هذا المصير .

يسكن في سيبريا ، على ضفاف نهر (Haut - jénissei) ورافده (Abakam) شعب الماكاس (hakasse) وقد قام المونغول ، منذ أكثر من عشرة قرون ، يغزو هذا الشعب الذي كان من أقوى شعوب آسيا وأكثرها ثقافـة ، فـكان مصيره الخراب . حتى انه فقد احرفه الكتابية ، وزادت النزعة الامبراطوريـة في خطورة الحال فأخذ شعب الماكاس بالافول رويداً رويداً . كان إذن في وضع يشبه وضع الهنود على يد المستعمرين الاميركان . بيد أن الثورة الاشتراكيـة أعادت الحياة لهذا الشعب . فأصبح يعـد اكثر من ٥٠ ألف مواطن ، يقيمون في منطقة مستقلة ، ويتمتع هذا الشعب باقتصاد مزدهر (فحم حجري ، ذهب ، معدن الحديد ، غابات ، اقنية) وفيه ٣٥٠ مدرسة ، و ٣ مدارس تقنية ، ومعهد تربوي . كما له صحفه وادبه ومسرحه .

وكان شعب « النت » (Nénets) ، في شمالي سيبريا ، يخضع لاضطهـاد موظفي القيصر الوحشي ، والتجار الروس الذين كانوا يستولون على ثرواته (من فرو ، واسماك) وكبار مربي الوعول (rennes) . كان هذا الشعب في طريق الانحلال فبلغ عدده ١٦ ألف نسمة عام ١٨٩٩ ؛ و ٢٠٠٠ نسمة عام ١٩١٣ .

وقد غيرت الثورة الاشتراكية هذه الحال. فكوّن هذا الشعب مقاطعة قومية وعادت اليه القوة والحياة ، فبلغ عدده عام ١٩٣٩ ، ١٢ ألف نسمة . وازدهرت

صناعته من صيد بحري وبري ؛ وظهرت زراعة صناديق الزجاج (serre) وأصبح عدد المدارس ٥٦ ، منها سبع مدارس ثانوية ؛ ومدرسة تقنية لتربية الوعول ؛ وثلاثة مراكز للبحث العلمي ... كل ذلك في هذه المنطقة التي كان يخيم عليه الجهل والخرافات .

هكذا يضمن الاتحاد السوفياتي ازدهار مختلف الشعوب التي يتكون منها . فاستعادت قوميات قديمة مضطهدة استقلالها واستطاعت شعوب خاملة ، بفضل الاشتراكية ، أن تكون أمماً . كما استطاعت شعوب ذات اقتصاد بدائي وعقلية قديمة « كالنيت » أن تنتقل في بضع سنوات إلى طريقة الحياة الاشتراكية .

وهكذا ندرك كيف أن العلاقات بين الامم ، (كبيرة وصغيرة) قد تغيرت تغيراً كلياً في مثل هذه الظروف .

فحل محل الريبة والعداوة الثقة المتبادلة والتعاون الاخوي . ولهذا ذهبت جهود للغزاة الهتلرية سدى ، اولئك الذين كانوا يأملون تحطيم العلاقات التي أقامتها الاشتراكية بين الشعوب السوفياتية بالقوة ، كانوا يعتقدون ، مثلا ، أنهم يستطيعون تهييج العواطف القومية القديمة من جديد في اوكرانيا ضد الشعب الروسي ، فلم يحدث شيء من ذلك . وبينما نرى الحرب العالمية الثانية قد أضعفت كثيراً النظام الاستعماري الذي أقامته الرأسمالية ، إذا باتحاد الامم الاشتراكية يقوى في نضالها المشترك ضد النازية العنصرية ، عدوة الشعوب .

وهكذا تحققت صحة وجود وطنية سوفياتية تعارض النزعة الوطنية المتعصبة البورجوازية .

لا تقوم قوة الوطنية السوفياتية على المعتقدات العنصرية البالية أو المعتقدات

القومية ؛ بل هي تقوم على اخلاص الشعب وولائه العميق لوطنه السوفياتي، وعطفه جميع العمال ، المقيمين في بلادنا ، الاخوي .

تشترك في الوطنية السوفياتية ، بانسجام ، تقاليد الشعوب القوميـة ومصالح عمال الاتحاد السوفياتي الحياتية المشتركة . والوطنية السوفياتية ، بدلا من أن تفرق، تجمع ، على العكس ، جميع الامم والقوميات في بلادنا ضمن عائلة واحدة أخوية ، من هنا تظهر أسس الصداقة المتينة التي لا تتزعزع بين شعوب الاتحاد السوفياتي . كما أن شعوب الاتحاد السوفياتي ، من ناحية ثانيـة ، تحترم حقوق شعوب البلاد الاجنبية واستقلالها . فقد اظهرت دائماً رغبتها في أن تعيش بسلام وصداقـة مع الدول المجاورة . وهذا هو أساس العلاقات التي أخذت تنمو بين دولتنا وبين الشعوب المحبة للحرية[1] .

رايات الدولة الاشتراكية هي رايات الصداقة بين الشعوب التي كونت هذه الدولة ، كما أنها رايات الصداقة مع جميع شعوب العالم ، ومن بينهـا الشعوب التي لا تزال ترزح تحت نير الرأسمالية . ولهذا كان من العبث الحديث عن « استعمار روسي » : ذلك لان الثورة الاشتراكية ، بازالتها للبورجوازية الامبراطوريـة ، قد اجتثت النزعة الامبراطورية من جذورهـا . فالاتحاد السوفياتي مسالم ، في أساسه ، لانه اشتراكي . والوطنية السوفياتية على نقيض النزعة القومية البورجوازية، فهي حب يحمله العمال السوفياتيون لبلاد الاشتراكية ، وهي اروع مظهر للنزعـة العالمية البروليتارية .

نستطيع الآن أن نخلص للقول بأن الاشتراكيـة ، في نفس الوقت الذي توفر

---

(١) ستالين : حول حرب الاتحاد السوفياتي الكبرى ، ص ١٥٥

فيه ازدهار كل أمة مادياً وأخلاقياً ، تعجل في التقريب السلمي بين جميع الامم .
ولما كانت الاشتراكية محررة للأمم فإنها تمهد لاتحادها .

٣ - مستقبل الأمم

دللنا في الدرس الثالث والعشرين على أن الامم لم توجد دائماً . بل ان الامم حقيقة تاريخية كوّنتها البورجوازية على أساس سوق واحد .

حتى إذا ما حطمت الطبقة العاملة ، بواسطة الثورة ، النير الطبقي ، حطمت في نفس الوقت ، النير القومي : وهكذا تضمن الاشتراكيـــة لجميع الامم ازدهاراً منسجما تاماً .

وليس هذا الازدهار نفسه سوى بداية ازدهار أشد روعة هو الازدهار الذي ستوفره الشيوعية للانسانية جمعاء متى انتصرت في كل مكان.

إذ سيكون من نتيجة انتصار الشيوعية الشامل تكوين اقتصاد عالمي واحد . وهو شرط ضروري لتقدم قوى الانتاج المطرد . ومن ثمّ تفقد الحدود الارضية مغزاها . إذ سوف يقرب ازدياد التبادل المادي والثقافي بين الشعوب . فنسير نحو لغة عالمية واحدة ، غنية جداً ، لانها سوف تتولد من اندماج عدة لغات قوميـــة بصورة تدريجية .

متى زالت النزعة الامبراطورية وولت الطبقات المستغلة ، وانقضى عهد الاضطهاد القومي والاستعماري ، وحل محل العزلة القومية والريبة المتبادلة ، الثقة والتقارب بين الامم ، وظهرت المساواة في الحقوق بـــين الامم في الحيـــاة ، وماتت سياسة

الاضطهاد وتمثل اللغات، وتنظم تعاون الامم وأمكن اللغات القومية، في تعاونها، ان تغذي بعضها بعضاً ... لا يمكن ، في مثل هذه الظروف ، الحديث عن اضطهاد واندحار بعض اللغات وانتصار البعض الآخر ... سنجد انفسنا أمام مئات اللغات القومية التي سينفصل عنها أولا ، بتأثير تعاون اقتصادي وسياسي وثقافي طويل الامد بين الأمم، اللغات الخاصة بكل منطقة من مناطق العـــالم؛ثم سوف تندمج هذه اللغات في لغة واحدة عالمية مشتركة ، لن تكون طبعاً الالمانية أو الروسية أو الانجليزية بل سوف تكون لغة جديدة قد تمثلت أفضل عناصر اللغات القومية ولغات المناطق العالمية[1] .

سوف تكون اللغة الواحدة وسيلة ثقافة مشتركة ، في محتواها من العواطف والافكار ، وفي صيغتها وتعبيرها ، من أجل أولئك الناس الذين أدركوا ، في كل مكان ، أسمى مرحلة في تطورهم التاريخي وأصبحوا أفراداً في وطن واحد هو وطن الشيوعية الشاملة .

---

(١) ستالين: « حول الماركسية في علم اللغة» آخر مؤلفات ص ٥٨ ، يتفق هذا مع نمو الشعوب الموضوعي ، فسوف تتكون اللغة الوحيدة بواسطة عملية تاريخية بطيئة ، في ظروف الشيوعية العالمية الاقتصادية والاجتماعية . وسوف تكون وسيلة ناجحة لنشر الثقافة لانها ثمرة عملية طويلة الامد ، وسوف تتسم بأروع ما اكتسبته المدنية عند مختلف الشعوب ، نرى ان مثل هذه اللغة لا تشبه بشيء هذا الخليط الاصطناعي أي الاسبرنتو ؛ لان الاسبرنتو — ، وان كان الكثير من انصارها دعاة تقدم — تسعى لتحويل الشعوب عن النضال الثوري . ويقول دعاتها ان تحرير الشعوب سيتم بتعميم الاسبرنتو . وهذه وجهة نظر البورجوازية الصغرى. اذ مها تكلم الرأسمالي والبروليتاري الاسبرنتو، فان هذا لن يزيل الاضطهاد الطبقي . فالطريق الثوري الوحيـــد أمام الجماهير هو النضال الطبقي العالمي .

وهكذا نجتاز الحدود القومية .

غير أن المشكلة ، في هذه الايام ، ليست مشكلة تجاوز الامم ، بل ان مشكلة الشعوب ، اليوم ، هي مشكلة تحريرها من النير الرأسمالي وازدهارها الاشتراكي ، أجل ازدهارها الاشتراكي ، لان الماركسية حين تتحدث عن « توحيد الأمم » لا تعني بذلك قط فناءهـــا ، والطريق إلى الاتحاد هو الازدهار الذي يشترط الانتقال إلى الاشتراكية .

يجب أن ندع الثقافات القومية تنمو وتكشف عن قواها الكامنـــة لتتوفر الظروف التي تسمح بصهرها في ثقافة واحدة مشتركة، ذات لغة واحدة مشتركة. ويحدث ازدهار هذه الثقافات القومية في صورتها ، الاشتراكية في محتواها ... من أجل انصهارها في ثقافة واحدة اشتراكية (في صورتها ومحتواها) ذات لغة واحدة مشتركة متى انتصرت البروليتاريا في العالم أجمع ، وتسربت الاشتراكيـــة إلى العادات . وهذه هي جدلية الطريق اللينينية في طرح مشكلة الثقافة القومية[1] .

ملاحظة حول الألزاس والموزيل

يساعدنا مبدأ النزعة العالمية البروليتارية ، لوحده ، على حل مشكلة الاقليات القوميـــة بصورة صحيحة .

وهذا هو حال سكان مقاطعات ثلاث : الرين الاسفل، الرين الاعـــلى ، والموزيل .

---

(١) ستالين : الماركسية والمسألة القومية والاستعمارية ص ٣٣٧ — ٣٣٨

لا يوجد « أمة » ألزاسية بالمعنى الكامل لهذه الكلمة . ولكننا ، إذا رجعنا إلى تعريف الأمة العلمي ، نلاحظ ان هذه المقاطعات لها وضع خاص .

لا يمكن أن نتحدث عن « وحدة لغوية » مع فرنسا، متى وجدنا البالغين ، فوق الاربعين سنة (ما خلا بعض المناطق) والشبان بين ١٦ — ٢٠ سنة لا يعرفون تقريباً اللغة الفرنسية ، كما أن الذين تعلموا الفرنسية لا يتكلمونها أو يكتبونها إلا بصعوبة لقلة الممارسة — لان لغة التخاطب في العائلة وفي العمل هي لهجة أصلها الماني. ويكفي أن نقارن بين ما تطبعه صحف اللغة الالمانية وبين ما تطبعه صحف اللغة الفرنسية لنتأكد من ذلك .

أما التكوين النفسي ، فيصعب علينا أن ننكر أنه يختلف عن التكوين النفسي الفرنسي بسبب الاختلاف اللغوي ولا سيما الاختلاف في تطور الالزاس التاريخي :

إذ أن سلسلة من التجارب التاريخية التي قامت بها الأمة الفرنسية بين عامي ١٨٧٠ — ١٩١٩ (فصل الكنيسة عن الدولة وقضية دريفوس مثلا) لم تنطبع في وعي سكان الالزاس واللورين انطباعها في وعي سائر الامة . كما لا يمكننا أن ننكر أن فترة ١٩٤٠ — ١٩٤٥ عاشها الشعب في الالزاس واللورين بطريقة تختلف عن سائر الناس في فرنسا .

وكذلك لا توجد وحدة قومية بين المانيا والألزاس لنفس الاسباب التاريخية وبالرغم من وجه القرابة اللغوية ، ولهذا فإن تجربة الثورة الفرنسية الكبرى أو تجربة ١٩٣٦ قد أثرتا تأثيراً قوياً في الالزاس بينما هما لم تؤثرا في الشعب الالماني .

نلاحظ إذن وجود خواص قومية في الالزاس واللورين ، فهل هي لا تخلو من القيمة ؟ أو ليست مصدراً لعدد من المطالب ؟

أجل . وتجاهل هذه المطالب على يد الحكومات الفرنسية سبب شعوراً بالنقص وأثار الاستياء بين صفوف سكان الألزاس واللورين .

وهذا بديهي فيما يتعلق بالمطالب المادية الخاصة ... كالضمان الاجتماعي ، وكساد المحصول الزراعي (الخمر ، التبغ) ، والفروق في الضرائب ، ووضع الموظفين ، وضحايا الحرب ... الخ .

وهذا بديهي أيضاً فيما يتعلق بمشاكل اللغة : فاستعمال اللغة الفرنسية فقط في النشرات الادارية (ما عدا أوراق الضرائب) وأمام المحاكم، وفي مجالس الشركات يؤدي إلى مظالم عدة يشعر الناس كأنها عقاب لهم .

كما أن تعليم اللغة الفرنسية لوحدها يؤدي ، من جهة، إلى أن الاطفال الالمان الذين يتخرجون من المدرسة الابتدائية لا يعرفون اللغة الالمانية الادبية كما أنهم يعرفون اللغة الفرنسية أقل من الاطفال الفرنسيين في المقاطعات الأخرى . لان هؤلاء يتكلمون اللغه الفرنسية عند دخولهم إلى المدرسة في السادسة من عمرهم ، كما يتكلمونها في الشارع ، وفي العائلة ، بينما على صغار الالزاسيين ـ الذين يتكلمون لهجتهم الخاصة خارج ساعات الدرس ـ ان يتعلموا اللغة الفرنسية بأكملها .

ومن جهة ثانية فإن تعليم اللغة الفرنسية فقط يؤدي إلى أن الشاب الالزامي الذي يبتعد لسبب ما (كالعمل أو الخدمة العسكرية) ، عن عائلته ، لا يستطيع مراسلتها باللغة التي يفهمها والداه أو جداه ، كما يجد صعوبة في قراءة رسائلهم باللغة الالمانية[1] .

---

(١) من رسالة وجهتها أمانة الحزب الشيوعي الفرنسي ، ٢٢ أيار ١٩٥٠ ، الى شيوعيي « Saint - Louis Hunenigne - Hegenheim » (الرين – الاعلى) ، كراسات الشيوعية نيسان ١٩٥٠ ، ص ٥٨ . راجع أيضاً في كراسات الشيوعية، آذار ١٩٥٠ بحث ف . بيو « مسؤليات شيوعيي الالزاس واللورين الكبرى ».

تمثل الألزاس واللورين على المستوى التاريخي ، واللغوي ، والفني ، والثقافي ، والاقتصادي شخصية أصيلة بالنسبة للأمة الفرنسية والأمة الالمانية على السواء .

وتنكر البورجوازية الفرنسية هذه الأصالة . وهي تناهض ، لاسيما ، مطلب العمال الالزاسيين الواضح بازدواجيـــة اللغة (الالمانية والفرنسية) في المدرسة الابتدائية . وهي تدعي ان مثل هذا المطلب لا أساس له بالرغم من الوقائع البديهية . (حتى إذا وجب معاقبـــة جزاري اورادور عاوضت بذلك بحجة أن بعضهم الزاسيون) .

غير أنه ينبغي أن نلاحظ أن نفس هذه البورجوازيـــة ، بعد أن شجعت في الالزاس واللورين عمـــل صنائع هتـــلر ، سلمت الالزاسيين واللورينيين إلى هتلر عام ١٩٤٠ بدون أية صعوبة .

وهي تغمرهم اليوم ، بالرغم من رفضها لسد مطالب العمال الألزاسيين (ولا سيما فيما يتعلق باللغة) بدعاية « أوروبية » ضخمة ، فهي تود لو يقع العمال الالزاسيون في فخ «أوروبا المتحدة» على أمل أن تعطيهم « أوروبا » أخيراً ما رفضته فرنسا . وهكذا تريد البورجوازية الفرنسية ، مرة أخرى ، تحويل عمال الالزاس واللورين إلى طيارين في الطيران الالماني . فهل هناك موقف أكثر تعارضاً مع مصالح عمال فرنسا ومصالح عمال الالزاس ؟

بينما يختلف موقف الطبقة العاملة الفرنسية . فهي تعترف ، حسب النزعة العالمية البروليتارية ، بمطالب الاقلية الألزاسية القومية كما تعترف لها بحقها في تقرير مصيرها . (أي حق الانفصال) .

غير أن الحق في الطلاق ليس وجوب الطلاق .

إذا كان على شيوعي فرنسا أن يلحوا في القول على الحق في الانفصال ، ضد النزعة الامبراطورية المضطهدة ، فإن على شيوعي الألزاس واللورين أن يوضحوا الاتحاد الحر الذي رضيته شعوب الألزاس واللورين مع عمال فرنسا ، مخافة التردي في النزعة القومية الضيقة[1] .

ليست مصلحة عمال الألزاس واللورين ، الحالية ، في الانفصال . بل مصلحتهم في الدفاع عن مطالبهم القومية في اتحادهم الوثيق مع عمال فرنسا . وهذا ما حدث في عام ١٩٣٦ حينما حارب عمال الألزاس الجبهة الشعبية . وكما حدث أثناء الاحتلال النازي ، فقد ناضل عمال الألزاس واللورين ، متحدين مع الطبقة العاملة الفرنسية ، ضد الهتلريين (وأعوانهم) . وسائق القطار الشيوعي فولدي هو رمز بطولة هذا النضال الموحد ضد العدو المشترك .

ومصلحة عمال الالزاس واللورين ، اليوم ، هي في النضال مع عمال فرنسا ضد البورجوازية الرجعية من أجل الحريات الديمقراطية والتقدم الاجتماعي ، وضد بعث النازية في المانيا ، وضد اديناور وسلاح طيرانه .

---

(١) م : توريز : « حق شعوب الالزاس واللورين في تقرير المصير » (صحيفة الاومانيتي ٢٠ تشرين الثاني ١٩٣٤ مؤلفات ، كتاب ٢ ، ج ٧ ، ص ١٤٠

فهرست الجزء الثاني

صفحة

صفحة